TWO ANGELS AND A DEVIL

رواية

ملاكان وشيطان

صلاح الدين أقرقر

كتوبيا
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

ملاكان وشيطان

الكتاب: ملاكان وشيطان/ رواية
المؤلف: صلاح الدين أقرقر
تحرير أدبي: نهاد شيبة
رقم الإيداع: 21382/ 2018
الترقيم الدولي: 978-977-85238-3-4
تصميم الغلاف: أحمد فرج
تدقيق لغوي: مريم المير

كتوبيا للنشر والتوزيع
01271185731
kotopiapu@gmail.com
Facebook/kotopiapu
٣٦٨ شارع عبد السلام عارف فيكتوريا- الإسكندرية

جميع الحقوق محفوظة

©كتوبيا للنشر والتوزيع

لا يجوز إعادة نشر أو استخدام محتوى هذا الكتاب بدون موافقة كتابيّة من الناشر.

صلاح الدين أقرقر

ملاكان وشيطان

رواية

كتوبيا
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أولئك الّذين لا يستطيعون قراءة هذه الرّواية لأنّهم مهمّشون هنالك بعيداً في الجبال المقفرة يعيشون كالمنفيين.

إلى كلّ ملاك يحارب من أجل نزع الأقنعة المزيّفة عن وجوه الشّياطين.

إلى كلّ من يسعى لسحب الأشواك المغروزة في وطنٍ أضناه الأنين.

قال ابن جرير :

حدّثنا المثنى، حدّثنا أبو صالح، حدّثني معاوية بن صالح، عن أبي عبد اللّه محمّد بن أيّوب وغيره من المشيخة، عن ابن عائذ، عن أبي ذرّ قال: أتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في مجلس قد أطال فيه الجلوس، قال، فقال: «يا أبا ذرّ، هل صلّيت؟ «قال: لا يا رسول الله. قال: «قم فاركع ركعتين» قال: ثمّ جئت فجلست إليه، فقال : «يا أبا ذرّ، هل تعوّذت باللّه من شياطين الجنّ والإنس؟ «قال: قلت: لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، هم شرّ من شياطين الجنّ»

الرّواية فيها انقطاع ورُوِيَ متّصلا كما قال الإمام أحمد رحمه اللّه.

رأيـت الشّـيطان فقـال لي: قـد كنـت ألقـى النّـاس فأعلّمهـم، فـصرت ألقاهـم فأتعلّـم منهـم.

تلبيس إبليس لابن الجوزي

مقدّمة المؤلّف

إبليس هو كبير الشّياطين. وقد خلقه الله تعالى من نار. وكان من الجنّ العابدين، حتّى ارتقى بفضل عبادته إلى مرتبة الملائكة المقرّبين. وعندما خلق اللهّ الإنسان من طين، سجد له الملائكة أجمعون، إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. فجعله اللهّ من المطرودين. ولعنه إلى يوم الدّين. فتوعّد آدمَ وذرّيّتَه بالضّلال المبين. وراح يغويهم بعزيمة لا تلين...

واطمأنّ إبليس على عرشه سلطانا للشّياطين، حتّى ثار ضدّه بعضٌ ممّن وُكِّلوا في الأرض لخلافة ربّ العالمين. فأطاحوا به من عرش الشّيطنة. وراحوا يعيثون في الأرض فسادا، يظلمون إخوانهم من بني البشر، ويعلمّون حلفاءهم من شياطين الجنّ ما كانوا عنه غافلين...

ولكن...

هناك من بني البشر من ارتقى إلى مرتبة الملائكة المقرّبين. يصبر على البلاء، ويحارب الشّر، ويبغي الخير لجميع العالمين...

وتستمرّ الحرب بين الخير والشّر إلى يوم الدّين...

إلى أن يدخل الملائكة جنّة النّعيم. ويُقذَف الشّياطين في جهنّم خاسئين.

صلاح الدّين أقرقر

(١)

أهازيج الموت

على طرف مرتبة زريّة لم تحظَ بسريرٍ تتوكّأ عليه فارتضت افتراش حصيرٍ بالٍ، جلست العروس مشبّكةً أصابع يديها فوق فخديها وقد نكّست رأسها حتّى لامس ذقنُها صدرَها فبدت وكأن ثقلاً لا قِبَل لها به يربض على رأسها. بدت في أوج حزنها بعدما أخفقت مساحيق التّجميل الّتي ضمّخوا بها وجهها في طمس أمارات الخوف والهلع الّتي كانت واضحة على محيّاها. كان التّناقض صارخاً بين بهرجتها الظّاهرية الّتي أرادوا بها عبثاً أن يرسموا على ملامحها مظاهر الاحتفال والسّعادة، ومشاعرها المكنونة في أعماقها والّتي تفوح منها روائح القهر والتّعاسة. كانت منكمشةً على نفسها انكماش من تنتظر مصيرا مجهولاً قد ينزل بها في أيّة لحظة، واجمةً وجوم من ضاق صدرها بهمّها ولم تجد من تشكو إليه بثّها. كانت غارقةً في السّكون والصّمت الّذي لم تمزّقه سوى تلك الأصوات الموقَّعة القادمة من الخارج والّتي هي مزيجٌ من القرع على الدّفوف والطّبول، والتّصفيق، وأهازيج تصدح بها عقائر الرّجال والنّساء المنضوين تحت لواء فرقة «أحواش» الّتي أُوكِلت لها مهمّة إضفاء مظاهر البهجة والاحتفال على المناسبة.

وإذا كانت الفرقة قد نجحت بجدارةٍ واستحقاقٍ في بثّ الفرح والسّرور في نفوس جمهور المتفرّجين من سكّان القرية الّذين شرع بعضهم في التّصفيق، وانخرط البعض الآخر في الغناء، بينما أذعن الآخرون لأهوائهم المتأجّجة الّتي دعتهم للرّقص، فإنّها بالمقابل لم تستطع أن تمتصّ تلك اللّوعة الحارقة الّتي تستعر في أعماق العروس القابعة وحيدةً في الدّاخل كالموبوءة. لم تكن تدري من خول لهم الفرح نيابة عنها، ولا لماذا لم يتجشّم أحدٌ عناء سؤالها إن كانت فرحةً أم لا. لم تكن متأكّدة حتّى ما إن جاز لها أن تطرح على نفسها أسئلة كهذه. ضحكت تهكّماً من غبائها. لقد غالت كثيرا في أمانيها!

من هي حتّى تتمرّد على تقاليد وأعراف قريتها الضّاربة جذورها في القدم؟ هل هي أكثر حصافةً وحكمةً من آبائها وأجدادها وأجداد أجدادها؟ وهل هي البنت الوحيدة في قريتها الّتي تلقى هذا المصير؟ هدّأت هذه الأسئلة من روعها قليلا بعدما جعلتها تنتصر لبراءتها وتلقي باللّائمة على الآباء والأجداد وتقاليدهم البغيضة. ولكن رغم ذلك، فلا يزال شعورٌ فطريّ يسكن كيانها بأنّ شيئا مخالفاً للفطرة السّليمة يحدث. سمعت صرير باب الغرفة وهو يُفتح. رفعت رأسها في استسلام وكأنّها متأهّبةٌ لهذه اللّحظة منذ زمن بعيد. نظرت بعينين انطفأ فيهما نور الحياة لعريسها الّذي دخل بعدما أحكم إيصاد الباب وراءه كمن هو مقبل على وليمة دسمة يخشى أن يباغته من يشاركه فيها. تقدّم نحوها وئيدًا وهو يبتسم ابتسامة بلهاءَ كشفت عن أسنانه الصّفراء الّتي تبعث على القرف والتّقزّز. كانت جثّته الضّخمة مختبئةً بالكاد تحت جلبابه الأبيض الّذي التصق مع لحمه مبرزا جميع هضاب جسده الثّخين: كتفاه الواسعان، صدره المترهّل، بطنه المنتفخ، ردفاه المكتنزان، وفخذاه السّمينان. تسمّر واقفاً فوق رأسها كمارد أبله، ثمّ مالبث أن جلس ملاصقا

لهـا. أزاح قـبّ جلبابـه عـن رأسـه المكـوّر الأفطـح ليظهَـر بوضـوح خـدّاه اللّحيـمان. كان جسـمها النّحيـل يرتجـف خوفـاً وفرائصهـا ترتعـد هلعـاً. كانـت تبـدو بجانبـه كحجـر حقـير في سـفح جبـل ضخـم.

كان شـاربه الكـثّ يرتعـش مـن فـرط النّشـوة تحـت أنفـه المفلطـح عندمـا طـوّق عنقهـا بذراعـه الغليظـة. اضطربـت أوصالهـا واختلـج قلبهـا وتسـارعت دقّاتـه، وتعـالى صوتهـا حتّـى غطّـى عـلى مـا عـداه مـن أصـوات الطّبـول والدّفـوف وغيرهـا. حاولـت جاهـدةً أن تُفلـت جسـمها مـن قبضتـه الفولاذيـة، لكـن هيهـات، فقـد شـدّها بقـوّة أكـبر إلى الخلـف مُرقـداً إيّاهـا عـلى ظهرهـا

كان واضحـا أنّـه ولـج الغرفـة مـن أجـل إنجـاز مهمّـة محـدّدة بدقّـة متناهيـة، ومـا كان مسـتعدّاً أبـدا للزّيـغ عـن مهمّتـه تلـك قيـد أنملـة. جرّدهـا مـن ثيابهـا كـما تفعـل طفلـةٌ بدميتهـا. وفعـل بنفسـه مثلـما فعـل بهـا. ثـمّ ألقـى بجسـمه البديـن عـلى جسـمها النّحيـف. لم تكـن تسـتوعب مـا يحـدث، ولا مـا هـو عـازم عـلى فعلـه، بيـد أنّهـا شـعرت بثقـلٍ هائـلٍ يكتـم أنفاسـها. انتفضـت محاولـةً الخـلاص مـن هـذا الوحـش الأهـوج الجاثـم عـلى صدرهـا ككابـوس مرعـب، ولكـنّ قواهـا الخائـرة كانـت أوهـن مـن أن تسـعفها. صرخت بأعـلى مـا ملكـت، ولكـنّ صراخهـا ضـاع في لجّـة بحـر مـن أهازيـج «أحـواش». كانـت تحـرّك رأسـها يمنـة ويسـرة في تشـنّج، وتـضرب بيديهـا عـلى المرتبـة في اسـتنجاد حتّـى بـدت كطـير مكسـور الجنـاح يحـاول عبثـاً الطّـيران والإفـلات مـن مخالـب قـطّ شرس.

كان ما يفعله القطّ في منتهى الوحشية...

وما يأمله الطّير ضربا من المستحيل...

ضربـت وضربـت بيديهـا كديـك مذبـوح يرقـص رقصتـه الأخـيرة. وفجـأة! ودون أدنى اكـتراث مـن العـالم الّـذي كان يسـير بإيقاعـه العـادي في الخـارج، خمـدت انتفاضتهـا كـما تخمـد جـذوة مـن نـار صُـبَّ عليهـا دلـو مـاء.

ماتت رقيّة...تلك الوردة الطّريّة النّديّة الّتي بالكاد شرعت تتفتّح وأخذت أرائجها الزّكيّة النّفّاذة تتضوّع كالمسك لتعمّ كلّ أرجاء القرية، قبل أن تمتدّ إليها من المجهول قدم ماردٍ أرعن لتدوسها بقسوة كما تدوس عجلة سيّارة ضفدعة تافهة.

ماتت رقيّة ولمّا تبلغ بعد الخامسة عشر من عمرها!

لم يكن أبداً قبول الزّوج أو رفضه واحدا من بين الحقوق النّادرة المتاحة لها ولغيرها من بنات هذه القرية القصيّة المهمّشة القابعة في مرتفعات جبال الأطلس المتوسّط، لذلك فقد كان من البدَهيّ جدّاً أن يتمّ تزويجها دون استشارتها، تماما كما كان من البدَهيّ جدّاً أيضا أن يتمّ ذلك في هذا العمر دون أدنى حرج.

فالأهالي في هذه القرية ومثيلاتها يرقبون بأعين متوجّسة بناتهنّ اللّواتي ما إن تبدأ أجسادهنّ بالتّغضض وتظهر عليها علامات الأنوثة، حتّى يضعون أيديهم على قلوبهم خشية فضيحة محتّمة. فكل بنت في نظرهم هي «مشروع فضيحة». قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أيّة لحظة. لذلك لا يتورّعون عن تزويجهنّ أوّل من يطرق أبوابهنّ وبأثمان بخسة. ولا يهمّهم بعد ذلك أن تعيش البنت في ضنك أو تُطلَّق أو حتّى تموت. المهمّ أن يزيحوا عن كواهلهم أثقالاً لا طاقة لهم بها. ولا ضير بعد ذلك أن تعود البنت إليهم مُطلَّقة بعدما يكون زوجها قد منحها تذكرة العبور إلى عالم الدّعارة الّذي يغريهم بمورد سهل من الرّزق لا ينضب، هو الكفيل في نظرهم بانتشالهم من براثن فاقة ينغمسون فيها حتّى آذانهم في ظلّ الإقصاء والتّهميش اللّذين يرزحون تحت وطأتيهما: فالخدمات الاجتماعية وفرص الشّغل شبه منعدمة.

لذلك، وبقلبٍ مترع بالرّضى لا تشوبه ذرّة ندم واحدة، قبل والد رقيّة

تزويـج ابنتـه. كيـف لا وقـد طلـب يدهـا «سي الحسـين»، الرّجـل الأوّل في القريـة. الفقيـه الّـذي يأتمـر الجميـع بأمـره، ولا يشـهق أحـد في القريـة ولا يزفـر إلاّ بإذنـه. يـا لـه مـن شرفٍ لا يضاهيـه شرف! لا يهـمّ أنّـه متـزوّجٌ، ولا يهـمّ أنّـه جـاوز الأربعـين مـن عمـره، ولا يهـمّ حتّـى أنّ هـذا الـزّواج سـيتمّ بالفاتحـة ودون توثيـق عقـد. كلّ ذلـك في معيـار الأب غـير مهـمّ. المهـمّ هـو أن يعـضّ عـلى هـذه الفرصـة الذّهبيـة، الّتـي سـاقها القـدر إليـه مـن حيـث لا يـدري، بالنّواجـذ. لذلـك وبعـد أيّـام تـمّ الـزّواج. وفي ليلـة دخلتهـا لفظـت رقيّـة أنفاسـها الأخـيرة...

كان جسـم سي الحسـين سـاخناً كأنّـه محمـوم، لذلـك لم يجـد أدنى صعوبـة في الشّـعور بتلـك الـبرودة الغريبـة الّتـي أخـذت تـسري في أوصالـه. تنبّـه إلى أنّ مصـدر الـبرودة هـو ذلـك الجسـم المدفـون تحتـه، كـما تنبّـه بعـد ذلـك إلى أنّ هـذا الجسـم قـد خمـد كأنّمـا أصابـه شـلل كلّي. ظـنّ في البدايـة أنّ تحتـه تمثـالا مـن ثلـج، ولكنّـه مـا لبـث أن آب إلى واقعـه. زحـزح جسـمه الضّخـم عـن جثّـة رقيّـة. أمسـك بيدهـا البـاردة ورفعهـا قليـلا ثـمّ حرّرهـا لتسـقط باسـترخاء عـلى المرتبـة. تحسّـس نبضهـا فتسـارع نبضـه بعدمـا أيقـن أنّ روحهـا قـد فاضـت تاركـة جسـدها كبنايـة خربـة. جحظـت عينـاه خوفـا، وابتعـد عنهـا متقهقـراً إلى الخلـف وعينـاه لا تـزالان تحملقـان فيهـا في ذعـر. لم يتوقّـف إلاّ عندمـا لمـس ظهـره جـدار الغرفـة. تـرك جسـمه يهـوي عـلى الأرض كقـصر مـن رمـل، وجلـس مشـدوهاً دافنـاً وجهـه بـين كفّيـه. لم يكـن منظـر الجثّـة ولا رائحـة المـوت هـما مـن بثّـا الرّعـب في قلبـه. فهـو قـد تعـوّد عـلى رؤيـة المـوتى وملامسـتهم طيلـة مـا يزيـد عـلى العقديـن مـن الزّمـن منـذ أن حـطّ رحالـه أوّل مـرّة في أرض هـذه القريـة. فـإلى جانـب مهنتـه كفقيـه، اسـتأثر أيضـا بمهمّـة تغسـيل المـوتى الذّكـور مـن أهـل القريـة. كان الخـوف مـن فـراق رقيّـة هـو الّـذي اسـتحوذ

عليه وأصابه في مقتل. فقد أحبّها حبّا لاعجاً لا هوادة فيه. لم يتخيّل أبداً حتّى في أسوء كوابيسه أن يفقدها في نفس اللّيلة الّتي يمتلكها فيها.

كان شعورٌ مخزٍ بالمرارة والحرمان يغزو قلبه العليل، ولكنّه ما لبث أن استعاد رباطة جأشه كمن سمع خبرا عن مفقود يئس من البحث عنه دون جدوى. هبّ واقفا بعدما عادت الحيويّة والنّشاط إلى أطرافه. ومض في عينيه لمعانٌ عجيب، وتقدّم بخطى حثيثة نحو الجثّة. انحنى عليها وانكبّ يضاجعها في استلذاذ مضاجعة الزّوج لزوجته. عندما فرغ منها، استلقى بجانبها كالقتيل.

نام حوالي ثلاث ساعات...

وعندما استفاق، كانت الجثّة قد بدأت تأخذ لوناً أزرق. تأمّلها بنهم أكبر، ثمّ عاود مضاجعتها مرّة أخرى. وبعدما قضى منها وطره، قام بمحو كلّ أثر لجريرته الشّنيعة. ألبس الجثّة ثيابها ثمّ خرج متلفّعاً بالحزن الشّديد ليخبر الجميع بخبر وفاتها إثر سكتة قلبية.

استحال الفرح مأتماً، والغناء نواحاً. ولم يكن أحد طبعا ليشكّك في رواية الفقيه ولا ليخطر بباله ما جرى في تلك اللّيلة، ولا حتّى في الصّباح حينما عكف الفقيه بنفسه على تغسيل جثّة زوجته رقيّة.

(٢)

حلم الملاك

دخلت حنان وأمّها إلى البيت محمّلتين بأعداد من الأكياس متنوّعة الأشكال والألوان والأحجام، كانتا تضحكان في سعادة ضافية وفرحة غامرة، تتهامسان وتتغامزان في استصباء وكأنّهما صديقتان حميمتان، لطالما خالهما الكثيرون صديقتين أو أختين.

ألقتا بالمشتريات على المنضدة، وجلستا في إعياء على الأريكة؛ منذ مدّة وهما على هذه الحال، ولكن في الأيّام الأخيرة بلغت استعداداتهما ذروتها مع اقتراب موعد التحاق حنان بمقرّ عملها، كانت حنان فخورة بنفسها بعدما تمكّنت من تحقيق حلم صباها الّذي تعقّبته لما يقرب من عشرين عاما. آن لها الآن أن تجني ثمار سنواتٍ من الجدّ والمثابرة قضتها بين مقاعد الدّراسة في المغرب وفرنسا إلى أن توّجتها بالدّكتوراه في الطّب، تشعر الآن بطاقة جبّارة تجتاحها. طاقة جعلتها تعيد ضخّ دماء جديدة في حلم صباها لتعيد إليه الحياة من جديدٍ وهي الحالمة الّتي لا تستطيع العيش في مكان لا تعبق فيه روائح الأحلام. أصبح حلمها اليوم أن تداوي جراح المكلومين، وترسم البسمة على شفاه البائسين، وتمسح بيديها الملائكيتين هموم المكروبين. تعرف جيّداً الميدان الّذي ستصارع فيه هذه المرّة كلّ المعيقات الّتي قد تعترض سبيل حلمها الجديد،

صحيح أن الفرصة لم تسنح لها لزيارة هذا الميدان عن قرب، إلاّ أنّ شاشة التّلفاز ووسائل التّواصل الاجتماعي قامتا بالمهمّة على الوجه الأكمل، كانت دائما تتألّم وتترقرق في عينيها الدّموع كلّما شاهدت سكّان الأرياف والمداشر البعيدة المهمّشة يئنّون تحت وطأة المرض دون أن يجدوا مستشفًى يتطبّبون فيه، أو يداً رحيمة تحنو عليهم. هي الآن قاب قوسين أو أدنى من الخوض في غمار هذا الحلم، تعلم أن طريقها قد لا يكون مفروشاً بالورود، وأنّ مطبّات كثيرة قد تعترضها، ولكنّها كانت متأهّبة لاجتيازها جميعا بنجاح كما اجتازت أوّل مطبّ واجهها.

كلّما تذكّرت كيف استطاعت اجتياز ذلك المطبّ الأوّل إلاّ وشعرت بالاعتزاز والفخر. لم يكن أبداً من السّهل على طبيبة تهمّ بخطو أولى خطواتها في مسارها المهني الشّاق أن تقاوم إغراءً كذلك الّذي قاومته بعد أن عرض عليها والدها مساعدتها في فتح عيادتها الخاصّة مقابل التّخلّي عن حلمها الّذي كان يبدو له ضرباً من الحماقة.

كانت كلّما ضيّق عليها الخناق بإلحاحه الشّديد تقول له:

- العيادة الخاصّة لا يزورها إلاّ المترفون الّذين لا يشكون إلاّ من مرض واحد اسمه التّخمة.

وتستطرد متحمّسة:

- حلمي أن أصير ملاك رحمة يرفرف بعيدا بجناحيه العملاقين لينشر السّرور في القرى النّائية، ويبثّ الحبور في الصّدور الكئيبة، ويحيي الأمل في النّفوس اليائسة.

وكان يقول لها بنبرة متهكّمة:

- الأحلام تبقى مجرّد أحلام يا عزيزتي. الواقع شيء آخر. لو كانت الأحلام تتحقّق لكنّا الآن نعيش في مدينة فاضلة. الدّنيا فرص، والذّكيّ هو من يستغلّ كلّ فرصة أُتيحت له. الفرصة اليوم أمامك مثل عنقود عنب

يانع متدلٍّ متضرّعٍ إليكِ لتقطفيه، فلا تجحدي بالنّعمة الّتي قد تُرْزَئين بها بعد فوات الأوان.

وتقول له بنبرة واثقة متحدّية لا تخلو من دعابة:

ـ أنت تعلم جيّداً أنّني أكره العنب وأحبّ ثمار الصّبّار.

كانت واثقة أنّها هزمت أنانيتها وجشعها وانتصرت لكبريائها وإنسانيتها...

كانت حنان وأمّها قد شرعتا في فتح الأكياس وتفحّص محتوياتها حينما داهمتهما علياء قادمة من غرفتها تحثّ خطاها بعدما شعرت بمجيئهما، وقفت فوق الأكياس المبعثرة على المنضدة.

قالت متسائلة وقد انكبّت تفتّش في بعض الأكياس في فضول:

ـ ألا تملاّن من التّسوّق؟

أضافت وهي تغمز إلى أمّها بعينها:

ـ المسكينة، تظنّ أنّها بهذه المشتريات ستعيد الحياة إلى تلك المقبرة الّتي ستعمل فيها.

ألقت بكيسٍ على المنضدة في لا مبالاة، ووثبت في خفة لتجلس قرب والدتها وهي تثرثر:

ـ أنا لستُ غبيّة مثلها لأدفن نفسي حيّةً في قريةٍ جبليةٍ تفتقر لأبسط شروط الحياة، عندما أحصل على الباكالوريا سألج أكاديمية الطّيران كي أصبح ربّانة طائرة وأجول كلّ بقاع العالم.

ابتسمت حنان وقالت في تودّد:

ـ من حقّك أن تلهثي وراء حلمك حتّى الرّمق الأخير، ولكن ليس من حقّك يا عزيزتي أن تحجري على أحلام الآخرين.

ابتسمت علياء في استهزاء وقالت:

ـ وهل تسمّين العمل في قرية أشبه ما تكون بالمقبرة حلماً.

ثمّ أردفت وهي تهزّ كتفيها في لا مبالاة:

- إن أردت دفن نفسك حيّةً في تلك الأرض المقفرة فذلك شأنك.

تدخّلت الأمّ كعادتها غالباً مؤازرةً وجهة نظر حنان:

- تفكيرك يا علياء يحمل في طيّاته أنانية مفرطة، كيف يكون مصير هؤلاء النّاس لو تبنّى الجميع مثل أفكارك؟! أليسوا مغاربة مثلنا كي يستفيدوا من الخدمات الصّحيّة والتعليمية وغيرها؟!

ثمّ أضافت موجّهة كلامها لعلياء وكفّاها يحتضنان كفّ حنان في حنوّ:

- المواطنة الحقّة يا ابنتي ليست شعارات رنّانة فارغة نتغنّى بها في المناسبات الوطنيّة، بل هي أن يضحّي كلّ واحد منّا من موقعه، من أجل وطنه بالغالي والنّفيس.

قالت علياء في سخرية:

- اتركي إذن عملك في المدينة واجمعي أغراضك لترافقي ابنتك وتلبّي نداء الوطنية الّذي يصدح بداخلك، ألم تقولي أنّ الوطنية ليست مجرّد شعارات رنّانة؟! أم خِلت نفسك تقدّمين درسا نظرياً جافّاً أمام تلاميذك؟!

استرسلت في هجومها التّهكّمي:

- طالما كرهت التّخصّصات الأدبية، أحسّ أنّها لا تقدّم أي نفع للبشريّة، الأدباء ليسوا إلاّ آلات صمّاء لإنتاج الكلام العقيم الّذي يضرّ أكثر ممّا ينفع، لولا العلماء لبقينا نركب الحمير ونتراسل عبر الحمام الزّاجل.

وضعت سبّابتها حذو أذنها كمن عثر على فكرةٍ بعد طول تفكير، وقالت دون أن تتخلّى عن نبرتها المتهكّمة:

- أتعرفان؟! ليست فكرة سيّئةً أبداً أن نكون أربعتنا وطنيين دونما الحاجة للتّنكّر لأحلامنا: أنت يا أمّي تعملين أستاذة في تلك القرية المهمّشة، تجهرين سيف العلم البتّار في وجه الجهل والأمّية، وأنت يا حنان تحقّقين حلم طفولتك بالعمل طبيبة، تتعقّبين الأمراض على أجساد الأعلاّء الفقراء. تفسخينها عنهم كما يفسخ الرّجل الثّوب عن نفسه، وتُلبسينهم

بدلها لباس الصّحّة والعافية، أمّا أبي فسيتكفّل بتوفير الأدوية اللاّزمة لذلك في صيدليته، في حين سأتولّى أنا نقلها إليك عبر طائرتي الخاصّة.

تبادلت حنان وأمّها نظرات حيرى.

قالت الأمّ في حسرةٍ واضحة:

ـ لن تتغيّري أبداً يا علياء.

قالت حنان:

ـ بنتُ أبيها.

ثمّ واصلت وهي تنهض من مكانها وتغادر:

ـ لقد أصابني إنهاكٌ شديد، سأرتاح قليلا في غرفتي.

قامت علياء بدورها، في خفّتها المعهودة، واستأذنت أمّها متّجهة صوب غرفتها وأصابعها تعبث بشاشة هاتفها المحمول باحثة عن رقم صديقتها.

ضغطت على زرّ الاتّصال وقرّبت المحمول من أذنها وانتظرت قليلا حتّى جاءها الصّوت:

ـ الو...علياء.

ـ قالت وهي تدخل غرفتها وتغلق الباب خلفها:

ـ كيف حالك يا قبيحة؟ اتّصلت بك كثيرا دون جدوى. كان هاتفك مشغولاً دائما.

ـ اه نعم. ربّما كنت أهاتف أحداً.

ـ عادل؟

بنبرة فيها خجل أجابت نعيمة:

ـ لا أدري. ربّما.

استلقت علياء فوق سريرها على بطنها ورجلاها يرقصان في الهواء وهي تقول في مكر مقلّدةً صوت صديقتها:

ـ لا أدري. ربّما.

استطردت بلهجة صارمة:

ـ وهـل هنـاك مـن خطـف لبّـك واسـتأثر بقلبـك غـيره. لا أدري مـا الّـذي استهواك فيـه! مالـه لا نقـذ ولا شـقذ.

ـ لا أدري ما الّذي يضيرك أنت! عادل ابن ناس ويحبّني وهذا يكفيني.

لعلعـت علياء مقهقهـة كالرّعـد حتّـى دمعـت عيناهـا وهـي تقـول بصوت يتهـدّج بـين الفينـة والأخرى:

ـ ابـن ناس...يحبّني...إنّـك تعيشـين في القـرون الوسـطى يـا عزيـزتي. الحـبّ كلمـة اخترعهـا الأغنيـاء لتقيهـم حقـد الفقـراء. قـولي لي: مـاذا سـتأكلان إن ضاركـما الجـوع؟! وبمـاذا ستسـافران إن ألمّ بكـما الضّجـر؟!

ودون أن تترك لها مجالاً للجواب، قالت وهي لا تزال تقهقه:

ـ لا تقـولي لي أنّ قصيـدة غـزل تكفيكـما لسـدّ الرّمـق، وروايـة حالمـة تكفيكـما للسّـفر إلى مـا وراء الأفـق. لقـد ابتُليـت بحاشـية مـن المجانـين الحالمـين: أختـي، وأمّـي، وأنـت.

قالت نعيمة في حزم:

ـ دعـي عنـك هـذا الـكلام الآن، فالحـبّ بعيـد عنـك بعـد السّـماء عـن الأرض. أراك غـدا في الثّانويـة. الآن لـديّ أشـغال كثـيرة في البيـت.

قالت علياء ساخرة:

ـ آه...نسـيت أنّـك في طـور التـدرّب عـلى وظيفـة ربّـة بيـت حتّـى تكـوني عـلى قـدر المسـؤولية الّتـي ينتظرهـا منـك «سي السّـيّد». أليـس كذلـك يـا «أمينـة»؟

ثمّ انخرطت في نوبة ضحك.

ـ مع السّلامة. أراك غداً.

ـ مع السّلامة.

(٣)

الحرب ضدّ طواحين الهواء

دخل عادل إلى بيته الصّغير وقد تغلغل إلى جسده إرهاقُ من قضى يومه كاملا يهشّم الصّخور الصّلدة في سجن للأشغال الشّاقّة. لم يكن بنّاءً ولا حدّاداً ولا فلاّحاً..بل كان أستاذاً لقسم متعدّد المستويات في قرية جبلية قصيّة تجاوزها قطار الحضارة بقرون عديدة.

قضى تسع سنوات من شبابه في هذه الأرض البائسة الّتي تفتقر لأبسط شروط العيش الكريم دون أن يتأفّف من برودة الشّتاء القاسية، أو يشتكي من صعوبة الطّريق الوعرة، أو يتذمّر من انعدام أسباب الحياة. حطّ رحاله في هذه القرية وبين ضلوعه قلب متخم بآمال جمّة وأهداف نبيلة. ومضى منذ يومه الأوّل يشقّ طريقه بحماس لا مثيل له وبنجاح لا مراء فيه. كان يعلم علم اليقين أنّ عدوّه الأوّل في هذه القرية الّتي تكسّر على تخومها إيقاع الحياة هو الملل. لذلك لم يترك له ثغرة ينفذ منها ليسمّم نفسه، فملأ وقته بالدّراسة، وراح يلتهم الكتب التهاماً حتّى حصل على الإجازة في اللّغة العربية. ثمّ أدمن قراءة الرّوايات وسافر مع أبطالها ليجوب مختلف بقاع العالم ممتطياً خياله الواسع. رحل به نجيب محفوظ وطه حسين وتوفيق الحكيم وإحسان عبد القدّوس وغيرهم إلى زيارة مصر، ممتّعا ناظريه بمختلف مآثرها ومزاراتها السّياحية. ومتجوّلاً

في مختلـف أزقّتها وحواريهـا الضّيّقـة. ومخالطـاً أناسـها الطّيّبـين و«فُتُوّاتهـا» و«مْعَلْميهـا». وشـارباً مـن نيلها ومسـتمتعاً بـ«زفّاتهـا». وأخـذه باولـو كويلـو وغابرييـل غارسـيا ماركيـز وماريـو بينديتـي وماريـو فارغـاس يوسـا وغيرهـم لاكتشـاف ثقافـات أخرى عـن شـعوب أمريـكا اللّاتينيـة الّتـي تزخـر بالغرابـة والتّنـوّع. وغـاص بـه دوستويفسـكي عميقـاً في النّفـس البشريّـة وهـو يحلّـل بعـين ثاقبـة الحالـة السّياسـية والاجتماعيـة والرّوحيـة لروسـيا في القـرن التّاسـع عـشر. وعـرف أشـياءً كثـيرة عـن الثّقافـة والأدب الأوروبّيـين عـبر قراءاتـه لألبيرتـو مورافيـا وجـين أوسـتن وفيكتـور هيجـو وجوسـتاف فلوبـير وغيرهـم. إضافـة إلى ذلـك، حـاول عـادل أن ينسـج علاقـات اجتماعيـة مـع سـكّان القريـة ويوطّـد وشـائج الألفـة والـودّ معهـم ويتعايـش معهـم مشـاركاً إيّاهـم أفراحهـم وأتراحهـم، وكاد ينجـح في سـعيه ويفلـح في قصـده. ولكنّـه لم يكـن يعلـم أبـدا أنّـه حينـما وضـع يـده عـلى جـرح ينـزف دمـا محـاولا ضمـده بـدواء ظنّـه كفيـلاً باندمالـه مخرسـاً بذلـك صـدى أنـين فتيـات القريـة الّـذي يهـزّ النّفـوس، إنّمـا كان بذلـك يؤلّـب عليـه عـداوة بعـض السّـكّان. فعندمـا لاحـظ أنّ الأهـالي لا يتحرّجـون مـن تزويـج بناتهـنّ مبكّـراً قبـل بلوغهـن السّـنّ القانونيـة بكثـير، خـرج فيهـم ناصحـاً أمينـاً محـاولاً بـكلّ مـا أوتي مـن حكمـة أن يضعهـم عـلى سـبيل الرّشـاد.

جال ببصره يمنة ويسرة فلم يجد سوى سي الحسين فقيه القرية.

انفرد به ذات يوم في المسجد بعد أن انفرط عقد المصلّين وقال له:

ـ أودّ محادثتـك في أمـر مهـمّ، بصراحـة لم أجـد في القريـة مـن قـد يصغـي لكلامـي ويسـتوعبه غـيرك.

قال سي الحسين وقد بدا عليه الاهتمام:

ـ كلّي آذان صاغية، ما الأمر؟

قال عادل في تحمّس:

ـ لاحظت أنّ سكّان القرية لا يتورّعون عن تزويج بناتهنّ القاصرات.

ثمّ أردف يقول محاولاً الإعلاء من شأن الفقيه:

ـ وكـما تعلـم فهـذا يخالـف القانـون، لذلـك فأنـا أرى أن لا أحـد سـواك بمقـدوره نصـح الأهـالي وجعلهـم يقلعـون عـن ذلـك.

انتفـض سي الحسـين كمـن بـه صرع، وقـال بلهجـة حازمـة تحمـل في طيّاتها نوعـاً مـن الوعيد:

ـ إيّـاك ثـمّ إيّـاك أن تـأتي عـلى ذكـر هـذا الـكلام مـرّة أخـرى، أنـا وأنـت غريبـان عـن هـذه القريـة ولا ينبغـي لنا حـشر أنفينا في مـا لا يعنينـا. إذا أردت العيـش بسـلام فالـزم حـدودك، فالنّـاس هنـا يقدّسـون عاداتهـم وتقاليدهـم تقديـس الهنـود للبقـر، ويعتبرونهـا خطوطـاً حمـراءَ لا يجـب تخطّيهـا.

غمغم عادل بعد أن كادت الصّدمة تعقد لسانه:

ـ ولكن...

قال سي الحسين بنفس اللّهجة الحازمة محاولاً إغلاق الموضوع:

ـ أظنّ أنّ كلامي مفهوم.

دون أن يستفيق من صدمته قال عادل:

ـ مفهوم.

خـرج عـادل في ذلـك اليـوم مـن المسجد يتعـثّر في خيبـة مريـرة، لم يكـن أبـدا يتوقّـع ذلـك الـكلام مـن سي الحسـين، اعتقـد أنّه سـيقبل مسـاعدته بصدر رحـب، وسيشـدّ عضـده عـن طيـب خاطـر، وسـيؤازره مـؤازرة هـارون لمـوسى. ولكـنّ لا شيء مـن ذلـك حصـل، كلّ مـا حـدث أنّـه أحـسّ إحسـاس مـن يحـاول ثنـي أبي لهـب عـن عبـادة الأوثـان.

لم يسـتطع عـادل أن يفهـم كيـف يمكـن للعـادات والتّقاليـد أن تسـمح للآبـاء بالـزّج ببناتهـنّ القـاصرات في أتـون زواج لا يعرفـن منـه سـوى الاسـم، لم

يستطع أن يفهم كيف يمكنهم أن يرموهنّ في جحيم مجهول كما يُرمى الحطب في النّار، لم يستطع أن يفهم لماذا يرفض الإنسان أن يعيش حرّاً، حتّى إذا لم يجد من يستعبده من بني جلدته، خرّ ساجداً تحت أقدام العادات والتّقاليد.

لم يكن كلام سي الحسين مقنعاً، ولم تكن حجّته دامغة. لذلك، وبعد أن استفاق من صدمته ولملم قواه، شرع عادل يبحث عمّن يسانده ليغيّر هذا المنكر.

ولّى وجهه هذه المرّة شطر الرّجل الثّاني في القرية: الحاجّ عبد اللّه.

مستفيدا من خيبته الأولى، قال له عادل بنبرة خفّ فيها منسوب التّفاؤل:

- جئتك يا حاجّ لأكلّمك في موضوع يهمّ القرية.

قال الحاجّ وهو يهزّ رأسه مشجّعا إيّاه على الكلام:

- تفضّل يا بنيّ، تكلّم.

دون أن يسمح عادل لمنسوب التّفاؤل داخله بالارتفاع قال:

- الأمر يتعلّق بموضوع الزّواج.

- ....

عندما لاذ الحاج بالصّمت، فهم عادل أنّه لم يستوعب الموضوع. لذلك استرسل شارحاً:

- الآباء هنا في القرية يقومون بتزويج بناتهنّ في سنّ مبكّرة جدّا، مدوّنة الأسرة تمنع زواج الفتاة قبل سنّ الثّامنة عشر إلاّ بإذن القاضي، البنت في هذا العمر يجب أن تكون في قاعة الدّرس وليس في بيت الزّوجية. القانون يا حاجّ...

قاطعه الحاجّ بفظاظة:

ـ عن أيّ قانون تتحدّث يا هذا؟! إنّنا نعيش هنا في عزلة تامّة ومأساة حقيقية بعد أن بصقتنا الدّولة ونفضت يديها من أمرنا.

ثمّ استطرد بنبرة تقطر مرارة:

ـ لا طرق، ولا مواصلات تصلنا بالعالم، لا ماء صالح للشّرب يرحمنا من مياه المطامير الملوّثة بالحشرات والأدران، ولا مستشفى نلوذ به من أسقامنا الّتي تنخر أجسادنا كما ينخر السّوس الخشب. لا إعداديات، ولا ثانويات تكون ملاذا لفلذات أكبادنا، لا فرص شغل لشبابنا الّذين ولّوا ظهورهم للقرية تاركين إيّاها في رعاية النّساء والعجزة والأطفال والمخبولين. اتركنا يا بنيّ وشأننا، هكذا وجدنا آباءنا يعيشون وهكذا سنعيش إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

واصل الحاجّ كلامه بعد أن كسا وجهَه حزن قاتم:

ـ لو كان في القرية مستشفى لما ماتت زوجتي رحمها اللّه، لقد فاضت روحها في الطّريق قبل أن تصل إلى المدينة بعدما لدغتها حيّة.

تمتم عادل بكلمات غير مفهومة ورحل...

إذا كانت حجّة سي الحسين داحضة، فإنّ حجّة الحاجّ عبد اللّه دامغة.

شعر عادل شعور من انسكب عليه دلو ماء بارد في ليلة من ليالي الشّتاء القارسة.

يعلم تماما أنّ هذه الحقائق الّتي ذكرها الحاجّ لم تكن أبدا غائبة عنه، ولكن لا يدري لماذا يحسّ وكأنّه يسمعها لأوّل مرّة.

ليس من يعيش في السّجن كمن يسمع عنه...

أعاد لملمة أفكاره المشتّتة وأقرّ بالهزيمة في الجولة الأولى دون أن ينسى رفع قبّعته للحاجّ تعظيماً له على جرأة افتقدها سي الحسين.

لقد انهزم في الجولة الأولى بشرف، ولكنّه سيستريح استراحة محارب أشرس استعداداً للجولات المقبلة.

لم تطل فترة استراحة عادل، لأنّه سرعان ما عاوده الإحساس المرير بالذّنب وهو يرى القرية تسير بخطى حثيثة إلى الوراء وكأنّها تسابق الزّمن كي تتوارى عن أنظار الحضارة لترميَ بنفسها عميقاً في قبو الجهل المظلم السّحيق، راح يبحث عن كلّ فرصة من شأنها أن تبثّ الرّوح في هذه القرية الميّتة كما يبثّ ضوء الصّباح الصّخب في الكون بعد ليلة هامدة، استنجد بمجموعة من أصدقائه الشّباب في المدينة والّذين ينشطون في العمل الجمعويّ، وبسط بين أيديهم المشكل لينجحوا في عقد شراكة مع إحدى الهيئات الألمانية الّتي تضمّ شباباً ألماناً ومغاربة من أبناء الجالية حملوا على عاتقهم بناء مركز صحّيّ بالقرية. شعر عادل شعور من عثر على ضالّ فقد راحلته في صحراء دويّة مهلكة، وهو يكاد يقضي جوعا وعطشا، فأطعمه وسقاه ودلّه على راحلته.

ولكن رغم ذلك، لم يسمح لنفسه أن تتمادى في الفرح بهذا النّصر المؤقّت، فقد كان يعلم أنّ المعركة لا تزال طويلة، لقد كانت فرحته مبتورة. لذلك فقد وطّن العزم أن يزيل اللّثام عن مأساة هذه القرية ويسلّط عليها الأضواء حتّى تصبح قضيّة رأي عام.

في إحدى العطل شدّ رحاله إلى العاصمة في زيارة خاطفة لإعلامي مشهور يقدّم برنامجاً جماهيريّاً مباشراً على إحدى القنوات التّلفزية، وبعد جهد جهيد، نجح في عقد لقاء معه.

بعد أن أطلعه على المشكل قال له بنبرة يمتزج فيها الحماس بالأمل:

ـ يجب أن تفعل شيئا إنقاذاً للبراءة المغتصبة في هذه القرية البائسة.

قال الإعلامي ببرود مستفزّ:

ـ المشكلة ليست جديدة، والكلّ على علم بها. الدّولة نفسها تعلم ولم تحرّك ساكناً، فماذا عساي أفعل؟

شعر عادل وكأنّ كاسراً عملاقاً يحلّق فوق رأسه ناشرا في المكان ظلالا قاتمة من الإحباط واليأس.

قال وهو يبذل أقصى ما يملك من طاقة لمداراة غضب عارم اعتراه:

ـ عذر أقبح من زلّة، إذا نفضت الدّولة يديها من أمرهم وتركتهم يواجهون مصيرهم وحدهم لأسباب أعرفها أنا وأنت، فليست لنا نحن أيّ مصلحة في أن نحذو حذوها.

قال الإعلامي محاولاً إبداء بعض الاهتمام:

ـ ربّما أتّفق معك.. ولكنّك غضضت الطّرف عن سؤالي، ماذا عسانا نفعل؟

قال عادل وهو يحك رأسه بيده في حيرة:

ـ لا أدري.. ولكن صدّقني يجب أن نفعل شيئاً.

ثمّ واصل وهو يحاول أن يثير غروره ويعزف له على الوتر الحسّاس:

ـ أنت إعلامي مشهور، وجمهورك بعدد نجوم السّماء، كما أنّك مواطن متشبّع بحبّ بلده. وقبل هذا وذاك، فأنت إنسان شهم أصيل المحتد ولن تتوانى في الاستجابة لنداء النّبل الّذي يصلصل بداخلك.

أحسّ الإعلامي أنّ عادل حاصره بدهاء، لذلك قال محاولا الإفلات:

ـ في حقيقة الأمر أنا لا أحبّذ برنامجاً تقليديّاً جافّاً، إذا أمكنك إحضار فتاة قاصر إلى الاستديو لتحكي مأساتها مباشرة على الملأ صوتاً وصورة فلربّما تمكّنّا من كسب تعاطف الجمهور، ونكون بذلك قد خطونا الخطوة الأولى في الطّريق نحو إيجاد الحلّ لهذه المعضلة.

شعر عادل بنفسه مثل قزم مهين محاصر من ملاكم عملاق في ركن من أركان حلبة الملاكمة. شعور مخزٍ بالعجز يستعر بداخله.

احتاج لحظات لكي يستوعب المأزق الّذي وضعه الإعلامي فيه.

قال بعد ذلك بعد أن قرّر أن يبقي باب الأمل مفتوحاً على مصراعيه:

ـ حسناً، أعطني رقمك وأعدك أن أبذل قصارى جهدي.

أخذ الرّقم، ثمّ شكره وغادر...

كان يعلم في قرارة نفسه أنّ الإعلامي نجح بخبث في تعجيزه، من المستحيل أن يتمكّن من إحضار فتاة قاصر من تلك القرية النّائية إلى العاصمة لتظهر في برنامج تلفزيوني أمام ملايين المشاهدين.

لأن يعود من العاصمة إلى القرية حبواً أهون.

عاد قافلاً إلى القرية يرتشف خيبة مرّة لا يتوقّف عن تجرّعها إلاّ كلّما نجح في إقناع نفسه أنّ شرف المحاولة يكفيه إلى حين...

ألقى بجسده المنهك على سريره، وخلد لقسط من الرّاحة وهو يشعر أنّه يخوض حرباً ضدّ طواحين الهواء...

(٤)
بداية موسم الانتقام

جلس سي الحسين متربّعاً في رشاقة تتعارض تماماً مع بدانة جسمه المفرطة، طاوياً قدميه كجناحي فراشة حتّى بدا كفيل ضخم يمارس ببراعة متناهية طقساً مألوفاً من طقوس اليوغا، فيما جلست أمامه في خضوع فتاة بالكاد شرعت علامات الأنوثة تبرز على جسدها الأهيف، وبجانبها اطمأنّت امرأة في عقدها الرّابع لم تنجح رياح الأيّام العاتية في محو كلّ نفحات الجمال من على وجهها الأخّاذ.

كانت المرأة غارقة في يمّ من حشمة لا قرار له، لا ينتزعها منه إلاّ شبقها الجامح الّذي ينغز بين جوانحها مغرياً إيّاها باختلاس نظرات بين الفينة والأخرى إلى سي الحسين الّذي كان منهمكاً في همهماته الّتي تشبه هديل الحمام ويده اليمنى تحتضن كفّ الفتاة الأيسر ويده اليسرى ترسو على جبهتها في اطمئنان. كانت الفتاة ترهف السّمع للفقيه بعد أن حفّزت كلّ جوارحها واستحضرت كلّ نواياها الحسنة عملا بنصائح أمّها وأملاً في شفاء لا تخالجها فيه ذرّة شكّ وهي الّتي استشعرت نسائمه منذ اللّحظة الأولى الّتي لمست فيها قدماها أرض غرفته المباركة!

لم تكن هي الأولى الّتي تزور الفقيه التماساً للشّفاء ولن تكون الأخيرة، فغرفته الّتي شيّدها في بيته المحاذي للمسجد خصّيصاً لاستقبال زبائنه،

أضحـت منـذ مـدّة طويلـة محجّـاً لـكلّ مـرضى القريـة والقـرى المجـاورة، فقـد ذاع صيـت الرّجـل في كلّ مـكان، وملحماتـه في شـفاء كلّ الأمـراض، حتّـى المسـتعصية منهـا، قـد تغنّـت بهـا الألسـن، وفتوحاتـه الباهـرة في عـالم الطّـب لا ينكرهـا إلاّ جاهـل أو حاقـد.

ومـن ذا الّـذي تسـتطيع نفسـه الخسيسـة أن تسـوّل لـه الطّعـن في طبيـب بـارع، أو القـدح في فقيـه بصـير، أو التّجريـح في إمـام ورع؟!

إنّ مـن يحـاول إقنـاع مريـدي سي الحسـين أنّـه قـد يخطـئ كمـن يحـاول إقناعهـم أنّ إبليـس اللّعـين مـلاك طاهـر!

توقّـف سي الحسـين عـن ترتيلـه الـرّديء، ثـم دسّـت المـرأة يدهـا في صدرها وأخرجـت صرّة كانـت محفوظـة فيـه بعنايـة كـما تُحفـظ الـثّروة في حـرز أمـين لا تلمسـها يـد ولا تلمحهـا عـين، فتحتهـا برزانـة مبالـغ فيهـا وتناولـت عـدّة دريهـمات ناولتهـا لـه وهـي تنحنـي مقبّلـة يـده تتـبرّك بهـا كـما يتـبرّك الحجّاج بالحجـر الأسـود، عندهـا ضرب لزائرتيـه موعـداً آخـر بعـد أسـبوع. وودّعهـما بعـد أن أنعـم عليهـما بوصفتـه الطّبيـة الرّكيكـة، الّتـي يصفهـا لجميـع مرتاديـه مهـما اختلفـت شـكاواهم وأعمارهـم، ونصائحـه وإرشـاداته الّتـي سـتُنَفَّذ بحذافيرهـا تتهاطـل عليهـما مـن كلّ حـدب وصـوب كزخّـات مطـر مفاجئـة لا سـبيل لهـما لتلافيهـا.

خرجـت الزّائرتـان مـن البـاب المفـضي مبـاشرة إلى الخـارج وأبـواب كبـيرة للأمـل في الشّـفاء شُرّعـت بداخلهـما، بينـما تحامـل الفقيـه عـلى نفسـه ليقـف بصعوبـة وخـرج مـن البـاب الآخـر المفـضي إلى بيتـه.

اسـتقبلته زوجتـه فاطنـة بابتسـامة تنـزّ ريـاءً وهـي تسـأل سـؤالها المعتـاد الّـذي لا تسـأم مـن اجـتراره كلّـما رأتـه قادمـاً مـن غرفتـه:

ـ من المريض هذه المرّة؟

يجيب بفتور دون أن يرفع إليها بصره:

ـ عائشة.

تسأل بشكل آلي:

ـ عائشة؟

يجيب ببرود:

ـ عائشة بنت حادّة.

تسأل بفضول امرأة تخلّفت قسراً عن حضور حفل زفاف وتحترق شوقاً لمعرفة أدقّ تفاصيله:

ـ مابها؟ مسّ؟ سحر؟ أو عين؟ مع من حضرت؟

يجيب بجفاء:

ـ حضرت مع أمّها، يبدو أنّ الجنّ العاشق تلبّس بها.

تجتاحها رغبة جامحة في أن تقول له:

ـ وهل هناك جنّ عاشق غيرك؟!

ولكنّها تكبح رغبتها وتكتفي بهزّ رأسها تزلّفاً علامة الموافقة.

تزوّج سي الحسين من فاطنة قبل عشرين سنة، كان حينذاك في الخامسة والعشرين من عمره وكان يكبرها بعشر سنوات، وهو فارق ضئيل حسب منظور أهل القرية للزّواج. كانت حياتهما في بدايتها تسير بإيقاع سلس مثلها مثل أيّ حياة نجمت عن زواج تقليديّ، ولكن بعد حوالي خمس سنوات، بدأت حياتهما تتخبّط بإيقاع يتباطأ يوما بعد يوم حتّى أصبحت اليوم تسير بسرعة سلحفاة عجوز منذ أن أفصح سي الحسين عن رغبته في الزّواج برقيّة، كان هذا الزّواج هو النّقطة الّتي أفاضت الكأس المملوءة، فاض قلب فاطنة بالحقد بعد أن كان مملوءً من قبل ولأسباب لا يعلمها سواها. هو نفسه لم يجد تفسيرا لذلك، فكان كلّما ازداد نجمه تلألؤا في

سـماء القريـة، إلاّ وازداد خفوتـاً في قلـب زوجتـه، وكلّـما ازداد احترامـا وإجـلالاً في أعـين السّـكّان، إلاّ وازداد احتقـاراً وإذلالاً في عينيهـا، كانـت تزدريـه قبـل أن يفكّـر بالـزواج عليهـا، ولكنّهـا رغـم ذلـك كانـت مسـتعدّة للبقـاء معـه حتّـى النّهايـة، غـير أنـه منـذ تفكـيره في جلـب ضرّة لهـا تطيـح بهـا مـن عرشـها- ولـو كان عرشـاً مـن ورق، كـما تطيـح الثّـورة بأعتـى السّـلاطين- اضطرمـت في قلبهـا نـيران الغـيرة مولّـدة رغبـة شـديدة في الانتقـام.

لو كانت فاطنة شاعرة لأنشدت:

أستطيع أن أغفر لك يا حبيبي كلّ ذنوبك الّتي لا تُغتَفَرْ

ولكن أن تتزوّج عليّ فقد ولجت برجليك دائرة الخطرْ

فهل رأيتَ سلطاناً معزولاً ينحني مقبّلاً رجلي عازلِه؟!

وهل رأيت يوماً رجلاً حارب امرأة مكلومة وانتصرْ؟!

لم يكـن لمـوت عروسـه الجديـدة ليلـة دخلتهـا مفعـول المطـر القـادر عـلى إخـماد ذلـك الحريـق المسـتعر في قلـب فاطنـة وإنبـات أشـجار وارفـة مكانـه، علهـا تثمـر طمأنينـة وسـكينة وتنتـج ظـلالاً مـن الرّاحـة والهـدوء، لأنّهـا تعلـم أنّ البنـات لم ينقرضـن برحيـل رقيّـة، لذلـك احتضنـت رغبتهـا في الانتقـام احتضـان أمّ لرضيعهـا.

كان لـسي الحسـين ولـدان كنسـتهما القريـة كجـلّ الشّـباب لتبتلعهـما المدينـة كـما يبتلـع الحـوت الضّخـم أطنانـاً مـن الأسـماك الصّغـيرة، وكان لا يراهـما إلاّ مـرّة واحـدة كلّ عـام حـين يعـودان قبـل عيـد الأضحـى بيـوم أو يومـين وهـما محمّـلان بالبضائـع والهدايـا ليقضيـا أسـبوعين أو ثـلاث في ضيافـة القريـة الّتـي تعـود إليهـا الحيـاة بعـودة النّازحـين كـما تعـود الحيـاة لمريـض بعـد اسـتفاقته مـن التّخديـر، لذلـك فقـد كان يقـضي جـلّ أوقاتـه عـلى مـدار السّـنة مربوطـاً بحبـال الوحـدة وعالقـاً في شـباك زوجتـه الّتـي تحـرص حرصـاً

شـديداً عـلى نصبها لـه بحرفيـة بالغـة في كلّ رقعـة في البيـت وكأنّها تعلـن لـه بصـوت مكتـوم بـدء موسـم الانتقـام الطّويـل...

كان يشـعر في بيتـه شـعور ذبابـة عالقـة في خيـوط عنكبـوت، وكانـت تعلـم أنّـه لـن يدّخـر جهـداً مـن أجـل الإفـلات مـن شـباكها لذلـك لم تتـورّع عـن إعطائـه جرعـات محسـوبة مـن الحرّيـة بـين الفينـة والأخـرى وكأنّهـا تُهيّئـه لتحمّـل وجـع قيودهـا مـن جديـد.

لـو طُلـب مـن فاطنـة ذكـر آيـة قرآنيـة تحفظهـا ظهـراً عـن قلـب لمـا تـردّدت أن تقـول: {كلّـما نضجـت جلودهـم بدّلناهـم جلـودا غيرهـا ليذوقـوا العـذاب}.

لقد كان قلبها عاصمة كبرى للحقد.

وكـما كانـت تخمّـن، فـسي الحسـين لم يطـرد مـن بالـه قـطّ فكـرة الـزّواج عليهـا، بـل أصبـح يمنـح نفسـه المزيـد مـن الذّرائـع ليمـضي قدمـاً في لهاثـه خلـف تحقيـق ذلـك الهـدف، فكـدّس إلى جانـب ذريعتـه القديمـة، وهـي نضـوب رحـم فاطنـة وعـدم قدرتـه عـلى إنبـات مولـود جديـد، ذرائـع جديـدة مثـل: الوحـدة الخانقـة الّتـي يرسـف في أغلالهـا، النّكـد المريـر الّـذي يعيـش فيـه معهـا، وإحيـاء سـنّة مـن السّـنن المهجـورة!!! لم يسـتطع طبعـا أن يبـوح لزوجتـه بذرائعـه الجديـدة، الّتـي يعلـم بينـه وبـين نفسـه أنّهـا واهيـة، كـما بـاح لهـا بالقديمـة، ولكنّـه كوّمهـا جانبـاً في انتظـار الفرصـة المواتيـة...

(٥)

رحلة نحو المجهول

كانـت سـيّارة الدّفـع الرّباعـي تبـدو مـن بعيـد وهـي تتسـلّق الطريـق الجبلـيّ المتعـرّج كقرادة عـلى ظهـر أفعـى عملاقـة؛ في المقعـد الأمامـي خلـف المقـود جلس في رصانـة رجـل متأنّـق لم تنجـح شـعيرات الشـيّب البيضـاء الّتـي خطـت فوديـه في النّيـل مـن وسـامته، كان ينظـر مـن وراء نظّارتـه الشّمسـية السّـوداء إلى الطّريـق الصّعبـة أمامـه بحـذر مـن يتمـشّى في ظلمـة حالكـة، وبجانبـه اطمأنّـت امـرأة لا تخطـئ العـين ملاحتهـا رغـم فـارق السّـن الضّئيـل بينهـما، فيـما جلسـت في الخلـف حنـان وعليـاء تنظـران عـبر زجـاج السّـيّارة إلى الجبـل الّـذي يطـوّق المـكان في انبهـار شـديد، وإلى الـوادي السّـحيق الّـذي كان عـن يسـارهما في ذعـر مريـع، كانـت السّـيّارة تلتهـم الكيلومـترات الثّمانـين الفاصلـة بـين المدينـة والقريـة الجبليـة بعـسر شـديد وبشـهيّة مسـدودة.

كانـوا قـد تجـاوزوا منتصـف الطّريـق بقليـل حينـما كمّمـت عليـاء فمهـا ببطـن كفّهـا الأيـسر وهـي تنحنـي إلى الأمـام مصـدرة صرخـة إنـذار مكتومـة ومربّتـة بيدهـا اليمنـى عـلى كتـف أبيهـا، ولّـوا وجوههـم جميعـاً شـطرها، أوقـف الأب سـيّارته دون إبطـاء فترجـلّ الجميـع منهـا، وابتعـدت عنهـم عليـاء وهـي تهـرول في شـبه انحنـاء قبـل أن تطلـق العنـان لجوفهـا ليبـوح بمكنونـه ويفـرغ كلّ محتوياتـه دفعـة واحـدة، بعـد أن أنجـزت مهمّتهـا بنجـاح عـلى

مـرأى ومسـمع مـن أفـراد أسرتهـا، ولّـت عائـدة نحوهـم بخطـى مترنّحـة كخطـى السّـكران، وعينـين منطفئتـين كعينـي السّـهران، ووجـه شـاحب كوجـه العليـل، وأنفـاس لاهثـة كأنفـاس عـدّاء منهـك...

تناولـت حنـان قنّينـة ميـاه معدنيـة مـن السّـيّارة وأفرغـت القليـل مـن المـاء عـلى أختهـا الّتـي غسـلت يديهـا ووجههـا وشربـت مرطّبـة حلقهـا الجافّ، قبـل أن يركـب الجميـع السّـيّارة مـن جديـد كاتمـين ابتسـاماتهم عـلى شـفاههم اتّقـاءً للسـان عليـاء السّـليط.

تحرّكت السّيّارة وشرعت أنفاس علياء تهدأ شيئاً فشيئاً.

قالت في سخط:

ـ لا أدري لماذا فرّطت في يوم إجازتي الأسبوعية من أجل فكرة غبية.

انتظرت جواباً. وعندما لاذ الجميع بالصّمت واصلت:

ـ النّـاس يقضـون أيّـام إجازاتهـم في أماكـن فخمـة، يرفّهـون عـن أنفسـهم ويتمتّعـون بمباهـج الحيـاة، ونحـن نصعـد في رحلـة العـذاب نحـو المجهـول.

اكتفـى الأب بابتسـامة ذات معنـى، بينـما قالـت الأمّ بلهجـة ودودة محاولة التّخفيـف مـن اسـتياء عليـاء قـدر الإمكان:

ـ نحـن يـا ابنتـي في مهمّـة ولسـنا في إجـازة. مهمّـة دقيقـة ليـوم واحـد فقـط. نأخـذ فكـرة مبدئيـة عـن المـكان الّـذي سـتعمل فيـه أختـك ثـمّ نعـود أدراجنـا في المسـاء.

قالت علياء:

ـ ساعة في الجحيم أطول بكثير من سنوات في النّعيم.

مالت عليها حنان والابتسامة تزيّن وجهها:

ـ إنّك تبالغين يا عزيزتي.

بادلتهـا عليـاء ابتسـامتها بأخـرى مناوئـة، ولكنّهـا لم تكـن ابتسـامة جميلـة بـل كانـت ابتسـامة اسـتهزاء وهـي تقـول:

ـ بل أنت من تستهينين بأمور مصيرية في الحياة، تخاطرين بمستقبلك وبحياتك كلّها من أجل أحلام تافهة ومبادئ بالية.

تدخّلت الأم بحزم محاولة إيقاف علياء عند حدّها بكلمة واحدة:

ـ علياء!

قال الأب وهو يطالع وجه علياء في مرآة السّيّارة العاكسة وكأنّه يؤكّد مجدّدا تأييده المطلق لوجهة نظرها:

ـ دعيهما يا عزيزتي، فغداً يندمان على قرارهما.

ثمّ واصل وهو يعدّل بإبهامه وضع نظّارته فوق أنفه:

ـ ضرب من ضروب الجنون أن يرفض المرء عرضاً سخيّاً بإنشاء عيادة خاصّة وسط المدينة من أجل العمل في مستوصف حقير في قرية مهمّشة وبأجر زهيد.

قالت حنان والابتسامة ذاتها تزيّن وجهها:

ـ بابا! أظنّ أنّنا تحدّثنا في الموضوع بما فيه الكفاية، دع عنك محاولات اللّحظة الأخيرة أرجوك، ولا تعتقد أنّ الصّدمة الّتي تُقدّر أنّها ستلمّ بي لو رأيت القرية رأي العين ستجعلني أعود عن قراري، لقد عزمت أمري وانتهى.

هزّ الأب كتفيه في لا مبالاة وهو يقول:

ـ سنرى.

وبلهجة فيها الكثير من الإصرار والتّحدّي قالت حنان بدورها:

ـ سنرى.

استدارت الأمّ بابتسامتها العريضة صوب حنان وهي ترفع إبهامها في وجهها علامة الاستحسان.

بادلتها حنان ابتسامتها العريضة بأخرى مثلها ورفعت إصبعيها: السّبّابة والوسطى، علامة النّصر.

وبعدمـا يربـو عـلى السّـاعتين بقليـل، كانـت السّـيّارة قـد وصلـت إلى هدفهـا.

نـزل الجميـع، وأخـذت حاسّـة البـصر زمـام المبـادرة مـن بقيّـة الحـواس الأخـرى حيـث راح كلّ واحـد يلقـي ببـصره في جميـع الاتّجاهـات لاكتشـاف المـكان الّـذي بـدا غريبـاً مقارنـة مـع مـا ألفـوه في المدينـة؛ طفـل صغـير حليـق شـعر الـرأس، مـترب الوجـه، لسـانه لا يكـفّ عـن لعـق مخاطـه الّـذي اندلـق حتّـى تعـدّى ذقنـه، يحمـي جسـمه النّحيـف مـن سـياط الـبرد ومـن لسـعات الحـرّ بقميـص مـزرّر بشـكل عشـوائيّ كان في يـوم مـا أبيـض، وقـد بقـي نصفـه السّـفلي بـلا سروال ولا تبّـان مـمّا سـمح لخصيتيـه الصّغيرتـين ولعضـوه الـبريء بالرّقـص في الهـواء وهـو يجـري حـافي القدمـين في سـعادة غامـرة مطـارداً قطّـاً أرقـط قـد نسـل معظـم شـعره وبـرزت عظامـه.. حـمار أشـهب عجـوز يمـشي بخمـول وقـد نكّـس رأسـه الكبـير وأذنيـه الطّويلتـين وكأنّـه في محـراب صـلاة.. كلـب ضـالّ يسـير عـلى غـير هـدى، تعلـوه أسراب مـن الذّبـاب في موكـب بئيـس.. شـابّات ونسـوة يحملـن عـلى ظهورهـنّ أكوامـا كبـيرةً مـن الحطـب وهـنّ يمشـين مقوّسـات الظّهـور، يحاولـن طـرد البـؤس عـن وجوههـن الذّابلـة بابتسـامة أو ضحكـة أو أنشـودة مـن تـراث الأجـداد.. شـيخ طاعـن في السّـنّ يجلـس مسـتنداً بظهـره إلى جـدار مـن طـين وكأنّـه يتحـسّر عـلى المـوت الّـذي خلـف موعـده معـه منـذ زمـن بعيـد.. بيـوت طينيـة واطئـة متراكبـة بعضهـا فـوق بعـض وكأنّهـا تتكافـل مـن أجـل القـدرة عـلى البقـاء في هـذا المـكان الموحـش.. صخـور عملاقـة ملتصقـة بالجبـال لا يعلـم إلاّ اللّـه وحـده كيـف بقيـت جامـدة في مكانهـا لقـرون دون أن تتدحـرج لتسـحق البيـوت كـما تسـحق قـدم فيـل ضخـم حـشرة صغـيرة.. مدرسـة صغـيرة مكوّنـة مـن ثـلاث حجـرات دراسـية ترقـب القريـة مـن علٍ، يتوسّـطها بقايـا علـم بـالٍ

ممزّق يرفرف بشموخ رغم المعاناة.. مقبرة شبه ملتصقة بالمدرسة وكأنّ المسؤولين الّذين خطّطوا لتشييدها كانوا متأهّبين منذ مدّة طويلة للّحظة الّتي يشيّعون فيها التّعليم لمثواه الأخير...

لو كان العلم قد نجح في اختراع مقياس للدّهشة، لكان الرّقم القياسي العالمي قد تحطّم هذا الصّباح على وجوه هؤلاء الغرباء الأربعة الّذين جاؤوا في زيارة استطلاعية لهذه القرية المقفرة.

من بين ثنايا هذا البؤس كلّه ظهر من العدم شابّ أنيق، بهيّ الطّلعة، مليح القسمات، تسبقه ابتسامته يوزّعها بسخاء حاتميّ ذات اليمين وذات الشّمال، شابّ من ذلك النّوع من البشر الّذين إذا نظرت إلى وجوههم يتملّكك يقين غريب أنّك تعرفهم منذ أمد بعيد، من ذلك النّوع الشّفّاف الّذي تقرأ في وجهه بسهولة صفاءً لا نفاق فيه ولا رياء، من ذلك النّوع الّذي يجبرك على أن تحبّه ولو في شهور الصّيام عن الحبّ.

لقد كان كبطل هارب من رواية رومانسية...

رفع الأب يده بإلحاح كأنّه غريق يطلب النّجدة، لمحه الشّابّ واقترب يرسم على ملامحه بشاشته السّاحرة.

عاجله الأب مصافحاً:

ـ السّلام عليكم.

ردّ الشّاب:

ـ وعليكم السّلام.

ـ من فضلك نريد مقابلة شيخ القرية.

ـ طبعاً طبعاً سأرافقكم لأدلّكم على البيت.

شكره الأب بابتسامة ملاطفة وسارا جنباً إلى جنب وفي إثرهما حنان وعلياء وأمّهما.

ولأوّل مـرّة تبتسـم علياء ابتسـامة لئيمـة وتغمـز بعينها وهـي تهمـس في أذن أختهـا:

ـ يبدو أنّ أيّامك لن تكون كلّها شقاء في هذه القرية الموحشة.

لم تسـتطع حنـان أن تقمـع ابتسـامة ذات مغـزى ارتسـمت عـلى محيّاهـا، وتمترسـت خلـف جـدار الصّمـت.

بعـد لحظـات مـن المـشي في طرقـات وعـرة متخمـة بأحجـار صلـدة، وجدوا أنفسـهم واقفـين أمـام بـاب خشـبيّ لبيـت تـرابي واطـئ. طـرق الشّـابّ البـاب، وماهـي إلاّ ثـوان حتّـى فتحـت بنـت صغـيرة ذات شـعر طويـل ملبّـد بسـبب الإهـمال وقلّـة النّظافـة.

ربّت على كتفها في لطف وهو يسأل:

ـ أبوك في الدّاخل؟

أجابت على الفور:

ـ نعم.

ـ أخبريه أنّني أريده.

أومأت برأسها موافقة وسحبت جسمها الصّغير سحباً إلى الدّاخل.

تسـبقه نحنحتـه الّتـي أصرّ عـلى أن تناسـب رجـل سـلطة في مقامـه، ظهـر الشّـيخ محـمّاد عـلى البـاب.

قـال موجّهـاً كلامـه للشّـاب وعينـاه تتقافـزان في فضـول عـلى الغربـاء الأربعـة:

ـ مرحبا أستاذ عادل. كيف الحال؟

أجاب عادل:

ـ الحمد لله بخير.

ثـمّ أردف مجيبـاً عـلى سـؤال عريـض لم يبـح بـه الشّـيخ ولكنّـه قـرأه في عينيـه:

ـ هؤلاء النّاس يسألون عنك.

قال الشّيخ باعتزاز:

ـ مرحبا، بيت السّلطة يسع الجميع.

تقـدّم الأب خطوتـين في اتّجـاه البـاب، وانـصرف عـادل إلى حـال سـبيله بابتسـامته المعهـودة بعـد أن اعتـذر.

قال الأب مشيرا إلى نفسه محاولا الإجابة على السّؤال العريض للشّيخ:

ـ السّي عزيز.

ثمّ واصل وهو يشير إلى حنان:

ـ والد الدّكتورة حنان، ابنتي ستعمل بالمركز الصّحّي لقريتكم. أرجو...

قاطعه الشّيخ:

ـ فعـلاً فعـلاً، لـديّ علـم بذلـك، مرحبـاً بكـم في بيتـي، تفضّلـوا. البيـت بيتكـم.

حـاول الأب جاهـداً إقناعـه بأنّهـم جـاؤوا فقـط لإلقـاء نظـرة عـلى المركـز الصّحّـي حيـث سـتعمل ابنتـه وسـيعودون قافلـين إلى المدينـة، ولكـنّ الشّـيخ أقسـم بأغلـظ الأيمـان ألاّ يذهبـوا إلاّ بعـد أن يتناولـوا عنـده طعـام الغـذاء، وتحـت إلحاحـه الشّـديد لم يجـدوا بـدّاً مـن الدّخـول.

كان الشّيخ يردّد وهم يتخطّون عتبة الباب:

ـ وإذا لم تدخلـوا إلى بيـت شـيخ القريـة فـإلى أيّ بيـت غـيره تدخلـون؟! بيـت سي الحسـين أو بيـت الحـاجّ عبـد اللّـه؟! يجـب أن يعلمـوا أنّ للسّـلطة أعينًـا لا تنـام في هـذه القريـة، تفضّلـوا. مرحبـا بالطّبيبـة.

عندمـا كانـوا جالسـين في غرفـة طويلـة لا تنقصهـا سـوى الكـراسي لتصبـح أشـبه مـا تكـون بحافلـة متهالكـة، سـمعوا أصواتـاً واضحـة كانـت كافيـة لتجعلهـم يتخيّلـون المنظـر وكأنّهـم يرونـه رأي العـين: زوجـة الشّـيخ تلهـث

محاولـة الإمسـاك بدجاجـة، الدّجـاج يجـري في كلّ الاتّجاهـات وأجنحتـه تحاول الطّيران بـلا جـدوى وأصواتـه تتعـالى بالنّقنقـة وكأنّـه يلعـن الضّيـوف الّذيـن جـاؤوا مـن المجهـول ليكـدّروا عليـه صفـوه وليجعلـوه في رمشـة عـين ضحيّـة للحظـة كـرم عابـرة.

كانوا يرتشفون الشّاي ويبتلعون الضّحكات.

بعـد أن تناولـوا وجبـة الغـذاء بشـهيّة نغّصهـا عليهـم إحساسـهم بالذّنـب تجـاه دجاجـة لم تقـترف إثمـاً سـوى أنّهـم قدمـوا مـن بعيـد لـكي يكونوا سـبباً في ذبحهـا، خرجـوا في زيـارة خاطفـة للمركـز الصّحّـي يصطحبهـم الشّـيخ محـمّاد.

ولجـوا تلـك البنايـة الصّغـيرة حديثـة البنـاء عـبر بـاب خارجـي متوسّـط الحجـم، عـبروا سـاحة صغـيرة غـير مسـقوفة هـي عبـارة عـن مـشروع حديقـة كـما دلّ عـلى ذلـك عـدد مـن الشّـتلات المغروسـة فيهـا، دخلـوا عـبر بـاب صغـير ووقفـوا لوهلـة ينظـرون يمنـة ويـسرة يكتشـفون المـكان.

قالت حنان وهي تتحرّك في نفاد صبر عبر ممرّ ضيّق:

ـ فلنبدأ من جهة اليمين.

تبعها الجميع في إذعان.

واصلـت وهـي تتلمّـس عارضـة خشـبية مثبّتـة عـلى حافّـة الجـدار وكأنّهـا طفلـة صغـيرة تربّـت عـلى قطّتهـا المدلّلـة:

ـ قاعة الانتظار.

قال الأب وهو يزمّ شفتيه:

ـ صغيرة جدّاً.

ـ ستفي بالغرض لأنّ القرية صغيرة جدّاً أيضاً.

قالتها وهي تفتح باباً في فضول.

دخلـت وتبعوهـا مقتفـين أثرهـا كحـرس يعملـون دون كلـل مـن أجـل حمايـة شـخصية نافـذة تتهدّدهـا الأخطـار مـن كلّ حـدب وصـوب.

جالت ببصرها في الحجرة لوهلة في رحلة استكشافية لتقول بعدها كمن خلص لحلّ معادلة رياضية معقّدة أرّقته لفترة:

ـ مكتبي.

جلست إلى المكتب المحاذي للجدار المقابل للباب تماماً وهي تقول في زهو:

ـ الحجرة جميلة ولكن تلزمها أمور عديدة حتّى تبدو في أبهى حلّة.

ثمّ وهي تقف وتشير بيدها:

ـ لوحة هناك على الحائط، ومشجب هنا بجانب المكتب مباشرة، وستارة لهذه النّافذة، و...

قاطعتها علياء ممارسة هوايتها المحبّبة في التّهكّم:

ـ لا أكاد أصدّق كيف هانت عليك نفسك لتجعليها حبيسة في هذا القبو.

تعمّدت حنان بفطنتها ورزانتها أن تتفادى مماحكة عقيمة لن تفضي إلى أيّ نتيجة مع علياء خصوصا وأنّ هناك عيناً غريبة لا تفوّت صغيرة ولا كبيرة إلاّ وترصدها. لذلك تجاهلت تهكّمها، الّذي لا يضيرها على أيّ حال، واتّجهت صوب باب آخر، فتحته ودخلت يتبعها موكب حراستها، كانت حجرة أكبر قليلا من حجرة المكتب.

قالت الأمّ وهي تذرع الحجرة:

ـ قاعة الفحص؟! أليس كذلك يا ابنتي؟

ـ بلى يا أمّي.

استطردت بلهفة طفلة تكتشف لعبة جديدة:

ـ انظري! هذا سرير للفحص، وهذه آلة الكشف بالصّدى، وهذا جهاز التّخطيط للقلب، يا إلهي! لا أكاد أصدّق أنّه موجود، وتلك قنّينة الأوكسجين.

تدخّل الشّيخ وقد كان يفهم ويتكلّم العربية بطلاقة عكس أغلب سكّان القرية.

ـ إنّهم الألمان.

باستغراب تساءلت الأم:

ـ الألمان؟!

انطلق الشّيخ يشرح بعظمة وكأنّه لم يتكلّم منذ طردته أمّه من رحمها:

ـ أي نعم. إنّ هذا المركز هو ثمرة مجهودات جبّارة قمت بها رفقة الأستاذ عادل، لقد اتّصلنا بهيئات ألمانية حملت على عاتقها مسؤولية تشييده وتجهيزه، جعلنا اللّه في خدمة السّاكنة، وهل عمل مثل هذا يستطيع أن يقوم به سي الحسين أو الحاجّ عبد اللّه؟

برزت علامات التّعجّب على الوجوه.

واصل الشّيخ دون أن يمنحهم مجالا ليتساءلوا عن ماهية سي الحسين أو الحاجّ عبد اللّه:

ـ أظنّكم تودّون رؤية السّكن الّذي ستقيم به الدّكتورة.

قالت الأمّ في اندفاع:

ـ طبعاً طبعاً أكيد.

ثمّ وهو يضحك:

ـ الألمان لا ينسون شيئاً أبداً.

أمسك الشّيخ هذه المرّة بزمام القيادة، وعاد ليسلك بهم في خيلاء نفس المسار الّذي قطعوه قبل قليل: عبروا لحجرة المكتب من جديد، ثمّ من باب جانبي لم ينتبهوا إليه قبل ذلك دخلوا للمنزل الّذي كان ملتصقاً بالمركز. كان المنزل صغيراً يتكوّن من غرفتين ومطبخ ومرحاض وحديقة

صغيرة بهيجة، ولكنّه كان جميلاً بثّ في نفس حنان مخزوناً إضافيّاً من الرّضى والحبور.

بعد زيارتهم التّفقّديّة الخاطفة، لم تتغيّر قناعة أيّ أحد من أفراد الأسرة حول قرار حنان، فالأب وعلياء قد ترسّخت لديهما أكثر فكرة الخطأ الفادح الّذي سترتكبه الدّكتورة الشّابة إن هي سارت قدماً على خطى أحلامها المجنونة في اعتقادهم، في حين أنّ حنان ازدادت إصراراً على رفع التّحدي الّذي بدا لها مشوّقاً ويستحقّ أن تخوض فيه بكلّ جوارحها. أمّا الأمّ، فقد كانت فخورة جدّاً بابنتها الّتي أبدت من النّبل والشّجاعة الشّيء الكثير.

عندما خلت حنان بنفسها في غرفتها ولاذت بسريرها بعد أن نال منها الإنهاك واستنزف الإرهاق كلّ طاقتها بعد يوم طويل، لم تستطع رغم كلّ ذلك أن تقتنص بسهولة لحظة نوم تسمح لجسمها المهدود باستعادة راحته المفقودة، فقد ظلّت أحداث اليوم تمرّ أمام عينيها كشريط وثائقيّ، حاولت مرارا أن تقمع نفسها وتقفز على تلك اللّقطة الّتي تسلّط فيها الكاميرا أضواءها السّاطعة على وجه ذلك الشّاب الأنيق، البهيّ الطّلعة، المليح القسمات، دون جدوى. لا تدري لماذا اختارته ذاكرتها عنواناً لذلك اليوم الشّاقّ رغم غزارة الأحداث الّتي وقعت فيه، لا تدري لماذا يطاردها طيفه الجميل وتغشاها ابتسامته السّاحرة، ولا لماذا استحوذ وجهه الملائكي على تفكيرها كما يستحوذ ثدي الأمّ على اهتمام رضيعها. ماذا دهاها تلك الشّابّة الرّصينة المتّزنة صاحبة العقل الرّاجح! كيف يمكن لشابّ غريب أن يجعل مشاعرها تلتجّ كما تلتجّ أمواج بحر هادئ داهمته عاصفة هوجاء على حين غرّة!

قوّست حاجبيها في دهشة وهي تتساءل في قرارة نفسها: هل وقعت ضحية لحبّ ذلك الشّابّ الغريب؟! حاولت بضراوة طرد هذه الفكرة

من ذهنها فهي لم تسعَ يوماً إلى الحبّ ولم يسعَ الحبّ يوماً إليها. كان بينهما أشبه ما يكون بحجاب من وقار. ليس لأنّها لا تؤمن بالحبّ، ولكن لأنّ اهتمامها كلّه كان منصبّاً على دراستها وسعيها الحثيث لتحقيق حلم صباها، ثمّ لأنّها لم تصادف من قبل من تهتزّ من أجله مشاعرها الرّاكدة.

ولكن هاهي بوادر إعصار مدمّر تحوم حول قلبها المرهف...

ومتى كان الحبّ إعصاراً مدمّراً؟! هكذا كانت تحاول أن تصرخ في أعماقها مدافعة عن مشاعر غزتها مثلما تغزو قبيلة من النّمل قرية من السّكّر.

لم يكن الحبّ غريباً عليها أبداً، فقد كانت تقضي جلّ أوقات فراغها في قراءة الرّوايات الرّومانسية؛ تفرح بلقاء الحبيب لحبيبته بعد أن عتت الظّروف القاسية بحبّهما العذريّ وشتّتتهما لسنوات طوال، تنتحب لموت عاشق في اللّحظة الّتي كان فيها على وشك نيل عشيقته بعدما حارب العالم كلّه من أجلها، تقضي وقتاً من ليلها تنسج الحلول من خيالها لرواية غرامية لم تكملها بعد. ولكن لم يكن الحبّ يوما قريبا منها بهذا الشّكل.

تنهّدت تنهيدة عميقة لذيذة لم يسبق لها أن تذوّقت مثلها من قبل، وسرحت بخيالها بعيداً قبل أن ينتزعها من سرحانها سؤال باغت أحلامها اللّذيذة كما يباغت الغزاة مدينة آمنة.

ترى هل ستتمكّن مرّة أخرى من ملاقاة ذلك الشّابّ الغريب الّذي ترقّت بفضله على سلّم الحبّ من درجة الحبّ النّظري الحبيس في الرّوايات والمسلسلات إلى أولى درجات الحبّ التّطبيقي الّذي يُحسّ ويُلمس ويُعاش؟!

لم يكن من السّهل أبداً أن تجد جواباً شافيّاً لسؤالها، لذلك باتت ليلتها في ضيافة سهاد لذيذ...

(٦)
حب قاتل

من كان يظنّ أنّ هذه القرية لا تنتج إلاّ الحرّ اللاّفح صيفاً والثّلج القارّ شتاءً فهو مطالب بإعادة حساباته، فرغم قساوة العيش على أرضها الجافّة، إلاّ أنّ هذا لم يمنع أبداً أنّ حبّاً طاهراً قد انبثق من أحشائها، في يوم من الأيّام، متخطّياً بسرعة هائلة مختلف أطوار النّموّ المعتادة وبالغاً عنان السّماء، مزيّناً إيّاها بألوانه البرّاقة كقوس قزح ليغدو كمنارة يهتدي بها كلّ من أوشك على التّوهان في دروب العشق الملتوية.

كان بطل هذا الحبّ الملتهب هو الحاجّ عبد اللّه. ربّما من رآه الآن لا يمكن أن يتصوّر أبداً أنّ هذا الشّيخ السّتّيني صاحب الطّول الفارع والجسم الضّامر والبشرة ذات اللّون القمحي قد كان في يوم من الأيّام مدرسة للحبّ كاملة البنيان، مدرسة عبثت بجدرانها الأقدار السّيّئة لتحوّلها في رمشة عين إلى ركام من لوعة حارقة، ففي شبابه الأوّل أصيب عبد اللّه حتّى العظم بحبّ الغالية، حبّ لا يحتمل الوصف لأنّه ببساطة أرقى وأعمق من أيّ وصف، حبّ يلزم اختراع حروف غير الحروف، وكلمات غير الكلمات، ولغة غير اللّغة.

تزوّج عبد اللّه من الغالية وحضنها تحت حبّه الوارف كما يحضن الطّير بيضه، وكانت له أمّ وأخت تحبّانه حبّاً لا تقبلان أن يشاركهما فيه أحد، لذلك ظلّتا ترقبان الزّوجين السّعيدين بقلبين تنهشهما الغيرة.

قالت له أمّه يوما في غضب:

ـ إنّها عقيم لا محالة، لاتوجد امرأة في القرية مرّ عليها عام ولم تنجب أو تحبل على الأقلّ.

تدخّلت أخته مؤيّدة:

ـ إنّها عقيم ولا ريب.

قال عبد اللّه برقّة لا يملكها إلاّ من كان بين ضلوعه قلب محبّ:

ـ إنّها لا تزال صغيرة يا أمّي، فهي بالكاد تبلغ السّادسة عشر من عمرها، لا يزال أمامنا متّسع من الوقت كي ننجب.

صرخت الأمّ وهي تضرب فخديها بعصبية:

ـ ننجب!!! يا للعار! لا ينقصك إلاّ أن تنجب مكانها.

قال عبد اللّه بلطف وهو يحاول أن يهدّئ من روعها:

ـ لا تضخّمي الأمر يا أمّي، الموضوع لا يحتمل هذا الغضب كلّه.

ومحاولة منه لغلق الموضوع، قال بنبرة حازمة ولكنّها لم تخرج عن حدود اللّياقة:

ـ وحتّى لو فرضنا جدلاً أنّها عقيم، فلن أتخلّى عنها أبداً بسبب ذلك.

انتابت الأمّ موجة غضب عارمة، وشرعت تلطم خدّيها وتقول:

ـ يا لفضيحتي!!! لقد جلبت الخزي والعار للرّجال، أبوك أشبعني ضرباً حتّى كاد يقتلني لأنّني لم أحبل في شهري الأوّل، وأنت ترضى أن تشاركك الفراش زوجة عقيم.

حاول أن يُخرجها من نوبة الغضب الّتي اعترتها فوضع يديه على كتفيها في حنان، ولكنّها أبعدته عنها في شراسة وهي تصرخ:

ـ ابتعد عنّي، لا تلمسني. أنت لست رجلاً.

قال في دهشة:

ـ أمّي!!!

زمجرت:

ـ أنا لست أمّك وأنت لست ولدي.

تساءل في ذهول:

ـ ولكن...ماذا يجب عليّ أن أفعل حتّى أنال رضاك؟

أجابت من فورها وكأنّها كانت تنتظر هذا السّوال منذ زمن بعيد:

ـ طلّقها.

واصلت وقد احمرّت عيناها بشدّة كأنّهما جمرتان ملتهبتان:

ـ طلّقها وسأختار لك زوجة غيرها تملأ لك البيت أطفالاً.

قال في إذعان مشوب بثقة غريبة:

ـ حسناً يا أمّي، غدا سأصطحبها لزيارة الطّبيب، وإذا كانت عقيماً فسأطلّقها.

انفرجت أسارير الأمّ على حين غرّة وكأنّها تخلّصت من زوجة ابنها للأبد، وكيف لا تفرح وهي واثقة بأنّها عقيم وأنّها ستعود من عند الطّبيب حاملة شهادة طلاقها!!

وفي مساء اليوم التّالي كانت الأمّ وابنتها جالستين في عجرفة، منتظرتين قدوم عبد اللّه وزوجته العقيم من المدينة ليشهدا بمتعة شديدة مراسيم الاحتفال بطلاقهما.

دخل عبد اللّه برأس منكّس ووجه متجهّم يكسوه سواد قاتم وكأنّه قطعة من فحم.

عاجلته أمّه بالسّؤال في لهفة بعدما زعزع منظره البئيس ثقتها في نفسها:

ـ عبـد اللّـه! ولـدي!! مابـك؟! عقيـم أليـس كذلـك؟! سـتطلّقها؟! هـه... تكلّم...

ـ ....

تبادلت الأمّ وابنتها نظرات مرتابة.

قالت الأخت وقد قطّبت حاجبيها في شكّ:

ـ ماذا دهاك يا عبد اللّه! تكلّم! قل إنّها عقيم وينتهي الأمر.

ـ لا. ليست عقيماً.

قالها ببرود.

تساءلت الأم في عدم استيعاب:

ـ ليست عقيماً!!! ولكن لماذا لم تنجب حتّى اليوم؟!

استطردت بعد أن شرع صبرها ينفد:

ـ تريـد أن تقنعنـي أنّ امـرأة سـليمة يمكـن أن تبقـى سـنة كاملـة دون أن تنجـب! اسـمع يـا عبـد اللّـه، لابـدّ أنّ تحليـلات الطّبيـب خاطئـة، تحليـلاتي الّتـي تصيـب دائمـا تقـول إنهـا عقيـم وسـتطلّقها الآن.

ألقـى بحزمـة أوراق كانـت في يـده علـى طاولـة قريبـة وهـو يقـول بنـبرة تـشي بخيبـة مريـرة:

ـ العيب منّي أنا.

تسـمّرت الأمّ في مكانهـا وعجـزت عـن الـكلام بعدمـا عقـدت الصّدمـة لسـانها، مـا جـرى يفـوق خيالهـا. لم تسـمع قـطّ مـن قبـل أنّ هنـاك رجـلاً عقيـماً، وحتّـى لـو سـمعت فـلا يمكـن أن يكـون هـذا الرّجـل هـو ابنهـا.

نجحـت الأقـدار في أن تُبقـي الحبيبـة في حضـن حبيبهـا، ولكـن ليـس لوقت طويـل، حيـث وبعـد حـوالي خمـس سـنوات تكفّلـت الأقـدار نفسـها بحرمانـه

منهـا وإلى الأبـد بعدمـا لفظـت أنفاسـها الأخـيرة في الطّريـق إلى المستشـفى بعدمـا لدغتهـا حيّـة.

صبّ عبـد اللّـه قـارّ غضبـه عـلى الدّولـة الّتـي حمّلهـا المسـؤولية كاملـة في فقـدان زوجتـه، فقـد كان ولا يـزال دائمـا يـردّد في حـسرة:

ـ لو كان في القرية مستشفى لما ماتت زوجتي رحمها اللّه.

حـزن عبـد اللّـه لمـوت زوجتـه أشـدّ مـا يكـون الحـزن، فكحـل السّـهاد عينيـه، وغـادرت البسـمة شـفتيه، وسـدّت الكآبـة شـهيّته، وصـام عـن النّسـاء ليلـه ونهـاره، فسـكن المـرض جسـمه حتّـى قـال النّـاس إنّـه لا محالـة هالـك.

ترى كيف كان سيعيش الإنسان لولا نعمة النّسيان؟!!

مـرّت السّـنوات ببـطء شـديد وعبـد اللّـه يعـود بالتّدريـج لممارسـة حياتـه الطّبيعيـة حتّـى وجـد نفسـه مـرّة أخـرى يسـتجيب لنـداء الفطـرة الّـذي يـصرخ بداخلـه، فتـزوّج...

أحـبّ عبـد اللّـه زوجتـه الجديـدة خديجـة حبّـاً لم يصـل لدرجـة حبّـه لزوجتـه المتوفّيـة الغاليـة. ولكنّـه حـبّ عـلى أيّ حـال...

في الأشـهر الثّلاثـة الأولى، عاشـا في سـكينة وطمأنينـة وراحـة بـال، ولكـن ما حـدث بعـد ذلـك كان عجيباً.

ذات زوال وعندمـا كان عبـد اللّـه يدخـل البيـت ليتنـاول غـذاءه رفقـة أفـراد أسرتـه، إذ بـه يلمـح أختـه تتقـدّم نحـوه لاهثـة كأنّهـا تصعـد جبـلاً وفي يدهـا سـكّين ملطّـخ بالدّمـاء.

قالـت بأنفـاس مضطربـة والعـرق ينـزّ مـن جبينهـا وشـبح ابتسـامة غريبـة يطفـو عـلى ملامحهـا:

ـ لقد قتلتها قبل أن تمرّغ وجهك في الوحل بفضيحتها.

فتـح عينيـه عـلى اتّسـاعهما وتسـارعت ضربـات قلبـه وكأنّـه في كابـوس مرعـب وقـال بصـوت متهـدّج:

ـ ماذا...؟! ماذا حدث...؟! قتلتها...؟! ولكن...

اندفع بسرعة السّهم صوب غرفة النّوم ليجد زوجته على سريرها مضرّجة في دمائها، جمد في مكانه لوهلة ذاهلاً مرتاعاً، اقترب منها أكثر ثمّ دفن وجهه بين كفّيه وأطلق العنان لانتحاب يقطع أنياط القلوب.

سمع صوتاً خشناً من الخلف:

ـ الرّجال لا يبكون، خصوصاً من أجل العاهرات.

استدار بعد أن حرّر وجهه من كفّيه.

وهو ينشج سأل بصوت جريح:

ـ أمّي!! ماذا تقصدين؟

تقدّمت نحوه خطوتين وقالت بنبرة صارمة:

ـ انتظرتك أن تغسل خطيئتها بيديك ولكنّك خيّبت أملي ولم تفعل، فلم أجد سوى أختك لتتكلّف بالأمر.

واصلت في غلّ:

ـ كيف تسمح لنفسك بالعيش في ودّ مع زوجة تحمل في أحشائها جنيناً من صلب رجل آخر! لو لم تكن ولدي لقتلتك أنت أيضاً.

وهو يبكي بحرقة ويمسح الدّموع الّتي تنزلق على خدّيه بكفّيه قال:

ـ ولكنّ كيف عرفت أنّه ليس من صلبي؟!

قالت وهي تضغط على الحروف بشدّة:

ـ لا أدري أأنت غبيّ أم تتغابى؟! ألم تقل أنّك عقيم لا تنجب؟! فكيف ستحبل زوجتك إذا لو لم تخنك مع رجل آخر؟!

وضع يديه على رأسه في حسرة وندم قبل أن يتهاوى على الأرض كنخلة بلا جذور.

لقد دفع حياة زوجته خديجة ثمناً لحبّه الجمّ لزوجته المتوفّية الغالية...

لـن يخطـر ببـال بـشر أبـداً مـا فعلـه عبـد اللّـه عندمـا زار المدينـة ذلـك اليـوم منـذ سـنوات رفقـة زوجتـه ليجريـا الفحوصـات اللاّزمـة للتّأكّـد مـن قدرتهـا عـلى الإنجـاب. فبعـد أن أثبتـت الفحوصـات أنّ الغاليـة عقيـم، لم يشـأ أبـداً أن يخـدش أنوثتهـا ويجـرح كبرياءهـا ويجعلهـا عرضـة لجـبروت أمّـه وأختـه، لذلـك أخبرهـا أنّهـا سـليمة وأنّـه سـيضطرّ بـدوره لإجـراء الفحوصـات للتّأكّـد مـن خلـوّه مـن عيـب يمنعـه مـن الإنجـاب، وعندمـا خـرج مـن مكتب الطّبيـب، أخبرهـا أنّـه عقيـم وهـو يعلـم في قـرارة نفسـه، كـما أثبتـت التّحاليل، أنّـه قـادر عـلى إنجـاب قبيلـة!

إنّ في كلّ حـرب جنديّـاً مجهـولاً، ولـو كان في الحـبّ عاشـق مجهـول لمـا كان سـوى عبـد اللّـه.

عندمـا اسـتفاق مـن إغماءتـه، حـدّق في زوجتـه وهـو لا يـكاد يصـدّق أنّهـا قُتلـت بيـد أختـه، فانخـرط في انتحـاب مـرّ.

تـمّ الحكـم عـلى أختـه بالسّـجن المؤبّـد، وماتـت أمّـه سـنوات بعـد ذلـك ليبقـى وحيـدا وبداخلـه حـزن لا يخمـد.

لقـد أصبـح الحـاجّ عبـد اللّـه رمـزا مـن رمـوز الإخـلاص في القريـة، لذلـك كانـت لـه مكانـة خاصّـة في قلـوب السّـكّان الّذيـن لم يكفّـوا يومـا عـن مقارنتـه بالشّـيخ محـمّاد الّـذي طلّـق زوجتـه الأولى بعـد عـام مـن زواجهـما لأنّهـا عقيـم، لذلـك كان الشّـيخ يكرهـه كـره الرّاعـي للذّئـاب.

تنهّـد الحـاج عبـد اللّـه تنهيـدة تحمـل في طيّاتهـا نصـف حـزن العـالم وهـو يسـتعيد شريـط قصّتـه البئيسـة كـما دأب عـلى ذلـك كلّ ليلـة عندمـا يختـلي بنفسه .

أغمض عينيه وهام في رحلة شاقّة لاستجداء النّوم...

(٧)
لذّة بنكهة الموت

ظهر ذلك اليوم، دخل سي الحسين إلى بيته بعد أن أدّى واجباً روتينياً من الواجبات الخمسة المناطة به كلّ يوم كإمام يحمل على عاتقه إمامة عدد هزيل من المصلّين الّذين يثابرون على الصّلاة جماعة في مسجد القرية الصّغير، اتّجه كالرّجل الآلي مباشرة إلى الغرفة حيث من المفترض أن تكون زوجته قد وضّبت طعام الغذاء على المائدة؛ ولكنّ صوت نحيب امرأة وصل إلى سمعه، دفعه إلى السّير بخطوات واسعة مستعجلة وقد تسلّل الوجل إلى قلبه، دهم الغرفة بلا استئذان ليلمح زوجته تجلس في وجوم وبجانبها امرأة متّشحة بالسّواد، كأنّها غراب، وقد انهمكت في البكاء والعويل، ضيّق عينيه وهو يمعن النّظر في وجه المرأة الّذي بدا شاحباً كشمس تميل إلى المغيب.

سأل زوجته بعدما كشف هويّة المرأة الّتي كانت لا تزال تنتحب:

ـ فاطنة! ماذا جرى؟ ما بال الضّاوية تنوح؟

بصوت منكسر أجابت فاطنة:

ـ لقد ماتت أختها السّعدية وجاءت تنعاها لنا.

أجاب على الفور وهو يتكلّف الأسى والحزن:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه.

ثمّ أضاف وهو يقترب معزّياً المرأة في وفاة أختها:

ـ إنّ للّه ما أخذ، وله ما أعطى، وكلّ شيء عنده بأجل مسمّى، أحسن اللّه عزاءك، وجبر مصيبتك، وغفر لأختك.

تمتمت الضّاوية بصوت متهدّج وهي تنشج:

ـ اللّهمّ آمين.

ومض في عيني سي الحسين بريق عجيب يشي بفرحة دفينة لا تلائم إطلاقاً الموقف المحزن الّذي كان فيه.

وخشية أن تنطّ الفرحة من عينيه وتفضح ما كان يجول بداخله، انسحب وهو يقول بصوت عانى كثيرا لكي يُخرجه ملتاعاً:

ـ والآن سأذهب إلى المسجد كي أنعى المرحومة لسكّان القرية.

عندما أوشك على الخروج من الغرفة، التفت ناحية زوجته وهو يقول بلهجة آمرة فيها حرص شديد:

ـ فاطنة! ماذا تنتظرين؟ هيّا قومي واستعدّي لتغسيل الميّتة.

ثمّ طأطأ رأسه وهمس للضّاوية بصوت كالفحيح:

ـ وأنت يا الضّاوية، عليك أن تذهبي الآن وتستعجليهم لإحضار المرحومة، فإكرام الميت دفنه.

لم ينتظر منهما ردّاً لأنّه كان يعلم أنّهما ستنفّذان تعليماته بحذافيرها، لذلك هرول إلى المسجد يكتم فرحته الدّفينة.

وثبت الضّاوية من مكانها كأنّ دبّوساً وخزها على حين فجأة، وغادرت يسبقها نشيجها، في حين نهضت فاطنة بوجه متهجّم ورجلين متثاقلتين لتعدّ العدّة لتغسيل الميّتة.

لم يكن تغسيل أموات القرية الإناث بالمهمّة الغريبة على فاطنة،

صحيح أنّ آخر ما كان يمكن أن يتبادر إلى ذهنها في ماضيها البعيد هو أن تجد نفسها في يوم من الأيّام وجهاً لوجه أمام جثّة امرأة ميّتة تُقلّبها ذات اليمين وذات الشّمال وتدعك أعضاءها بلا أدنى رهبة، ولكن، وبعد زواجها، وجدت نفسها ترضخ لتوسّلات زوجها الّذي لم يأل جهدا من أجل إقناعها بالتّكفّل بالمهمّة.

كان كلّما لاحظ خوفها وتردّدها يقول لها:

ـ ألا تودّين أن يغفر اللّه لك؟

وتجيب:

ـ بلى.

فيقول:

ـ فاعلمي إذن أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم يقول: (من غسّل مسلماً، فكتم عليه، غفر اللّه له أربعين مرّة).

تقول مرتبكة:

ـ ولكن...

يقاطعها قائلاً بإلحاح:

ـ لا تفوّتي عليك هذا الأجر العظيم.

وظلّ يلحّ عليها ويصرّ حتّى وافقت.

كانت تساعدها في مهمّتها تلك امرأة أخرى، ولكن سرعان ما قرّر سي الحسين إعفاءها على أن تتحمّل زوجته وحدها عبء هذه المهمّة الثّقيلة بعدما رأى أنّ المرأة ليست أهلاً للثّقة بعدما تداول سكّان القرية عيوب بعض الموتى.

بعد حوالي نصف ساعة، كانت فاطنة منهمكة في تغسيل الميّتة في الغرفة الّتي اتّخذاها مكانا خاصّاً لذلك، في حين كان سي الحسين ينتظر في

غرفة نومه كقطّ أمام محلّ جزارة، فرغت فاطنة من مهمّتها وخرجت متّجهة صوب غرفة النّوم.

استقبلها زوجها ببشاشة مقزّزة كشفت عن أسنانه الصّفراء وهو يقول:

ـ بارك اللّه فيك وجزاك خير الجزاء وغفر لك ذنوبك.

زمّت شفتيها ودمدمت:

ـ آمين.

حثّ خطاه إلى المطبخ وصوته يتردّد:

ـ سأجلب لك كأس حليب محلّى بالعسل لكي تستعيدي نشاطك وحيويّتك بعد هذه المهمّة الشّاقة.

وبعد لحظات ظهر أمامها وهو يمدّ إليها الكأس ويقول بأدب جمّ:

ـ تفضّلي، اشربيه وخذي قسطاً من الرّاحة.

أخذت منه الكأس وجلست شاكرة له حسن صنيعه قبل أن تطلب منه أن يحضر لها كأس ماء.

هرول إلى المطبخ كالمسحور، بينما هبّت هي من مكانها في سرعة خاطفة متّجهة صوب دولاب صغير متهالك، قرفصت ووضعت كأس الحليب أسفل الدّولاب ثمّ أخذت قدحاً آخر يشبهه كانت قد أخفته لسبب لا يعلمه سواها، عادت إلى مكانها وانتظرت إلى أن ظهر زوجها فرفعت القدح الفارغ إلى فمها متظاهرة بأنّها تفرغ في جوفها آخر قطرة من الحليب.

شرعت تلعق شفتيها بلسانها وهي تتسلّم كأس الماء من زوجها وتقول في امتنان مصطنع:

ـ شكرا لك.

قال وقد تهدّلت شفته السّفلى العريضة حتّى أصبحت مثل شفة جمل ضمآن:

- لا شكر على واجب. ارتاحي قليلا وأنا سأذهب لأتلوَ ما تيسّر من كتاب اللّه عزّ وجلّ.

ثمّ غاب ربع ساعة وعاد يمشي على رؤوس أصابعه كاللّصّ، دخل الغرفة واقترب من السّرير، ثم انحنى قليلاً على زوجته. وعندما اطمأنّ أنّها تغطّ في نوم عميق، غادر الغرفة دون أن يستطيع هذه المرّة كتم فرحته الدّفينة.

فتحت فاطنة عينيها المغمضتين تحايلاً، وجلست تتخبّط في عجز قاتل، إنّها تشعر شعور من يغوص في رمال متحرّكة، فلا هي ابتلعته ولا تركته يمضي إلى حال سبيله. إنّها تعيش الآن أصعب لحظات حياتها على الإطلاق، فضميرها لا يكفّ عن تأنيبها وهي تعلم أنّ زوجها الآن بصدد اجتراح جريرة فظيعة لا يمكن أن تخطر على بال بشر.

تعلم يقيناً أنّه الآن في غرفة التّغسيل يمارس شذوذه الجنسي البشع على جثّة السّعدية!!! ليست المرّة الأولى الّتي يفعل فيها ذلك، ولكنّه دأب على هذا الفعل على امتداد ما يقارب الخمس عشرة سنة. فبعد زواجهما ببضع سنوات، وبعد أن أُوكلت لها مهمّة تغسيل أموات القرية الإناث، لاحظت أنّها كلّما فرغت من تغسيل ميّتة وشربت الحليب الّذي يحرص زوجها على إعداده لها، إلاّ واستسلمت لنوم عميق. ساورتها الشّكوك وخالجتها الأوهام قبل أن تهتدي لحيلة نفّذتها بإحكام.

ذات يوم بعد أن عادت من غرفة التّغسيل وقدّم لها زوجها كأس

الحليب المحلّى بالعسل ككلّ مرّة، أرسلته في مهمّة تافهة خارج الغرفة ثمّ عمدت لإخفاء الكأس تحت الدّولاب وحملت القدح الفارغ الّذي وضعته هناك خصّيصاً لذلك، وعندما عاد زوجها تظاهرت بأنّها شربت الحليب وتظاهرت بعدها بالنّوم العميق. وبعد أن اطمأنّ زوجها إلى أنّها نائمة، غادر الغرفة، بعد لحظات خرجت في أثره، بحثت عنه في كلّ أرجاء البيت، ولمّا لم تجده أيقنت أنّه لا محالة خرج. كانت في طريقها إلى غرفة النّوم عندما تناهت إلى مسمعها أصوات تأوّهات ووحوحة كتلك الّتي تصدر عن مريض يتلوّى من الألم. أرهفت السّمع فإذا بالصّوت يأتي من غرفة التّغسيل، تسمّرت في مكانها بعد أن انتابتها مشاعر مختلفة امتزج فيها الرّعب والذّهول والتّردّد والحيرة. إنّها الجثّة لا محالة عادت إليها الحياة! هكذا كانت تفكّر، لقد سمعت حكايات كثيرة عن موتى عادت إليهم الحياة بعد موتهم وكانت تشعر بالفزع بسبب ذلك، وهاهي اليوم تعايش لحظة عودة الرّوح لميّتة بكلّ تفاصيلها، كان قلبها يكاد يغادر صدرها وهي تقترب بخطوات متثاقلة من غرفة التّغسيل، وقفت قرب الباب وانحنت قليلا ووضعت عينها قرب ثقب المفتاح وشاهدت زوجها في أغرب وضع يمكن أن تشاهد فيه إنسان...

تحسّرت كثيرا في ذلك اليوم لأنّها لم تشرب الحليب وتنم، وهاهي اليوم تتحسّر أكثر لأنها لا تملك حليباً مثل ذلك الّذي يصنعه زوجها لكي تُسقيه لضميرها لينام إلى الأبد...

لا تدري أيّ شيطان مريد وسوس لزوجها لاقتراف جريمة بشعة كتلك! بل لم تعد تدري من منهما الشّيطان!

رغم بشاعته أيضاً، إلاّ أنها كان يمكن أن تتفهّم ممارسته للجنس على

الأحياء، ولكن أن ينتهك حرمة الأموات بهذا الشّكل المشين، فهذا ما لم تستطع أن تجد له تبريراً كما لا تستطيع أن تفعل حياله شيئاً. فمن من سكّان القرية سيصدّقها إن هي كشفت السّتار عن جريمة زوجها وهم الّذين يرفعونه إلى درجة الملاك!

كلّما تملّكها العجز الفظيع كانت تردّد:

ـ سحقاً لهؤلاء الأغبياء الّذين لا يعرفون أنّ الملائكة ليست لهم أسنان صفراء!

(٨)
عذاب الحياة والموت

يحدث كثيراً أن يعيش الإنسان حياة بائسة متخمة بالأحزان والآلام دون أن يمنعه ذلك من قضاء أيّامه ولياليه وهو يحلم بتعقّب طيف سعادة هاربة، كما يتعقّب طير مكسور الجناحين حلم الطّيران من جديد. يحدث كثيراً أن يستهلك عمره كلّه يحارب ضدّ نحس كما حارب دون كيشوت ضدّ طواحين الهواء.. يحدث كثيراً أن تخيب آماله في احتساء رشفة من سعادة دنيوية خلّفها للمحظوظين وراءه وهو راقد على فراش الموت يعيد تحديث أحلامه لتلائم الموقف الجديد الّذي وجد نفسه فيه على حين غرّة ودون استعدادات كثيرة، ليطمع، منساقاً خلف فطرته البشريّة، في ميتة هانئة وحياة أخرى يقضيها متسكّعاً على ضفاف أنهار العسل المصفّى وتحت ظلال أشجار مختلفة ثمارها تسرّ النّاظرين في جنّات النّعيم. كلّ ذلك يحدث كثيراً، ولكن أن يعيش الإنسان في شقاء ويموت في شقاء وتتنجّس جثّته بعد الموت ويوارى الثّرى ليجد نفسه وحيدا في ظلمة القبر وجهاً لوجه أمام ملائكة غلاظ شداد لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فإنّ ذلك لا محالة لا يحدث إلاّ لمن رضع النّحس من ثديَيْ أمّه بدل الحليب.

السّعدية واحدة من هؤلاء القلائل الّذين خُطّ مسار حياتهم بحبر

أسود قاتم منذ أن كانت في ظلمة الرّحم وحتّى صارت في ظلمة القبر، ترفّعت الأقدار بعنجهيّة فظّة عن منحها فسحة من البهجة تسرّي عنها ولو قليلاً بالقدر الّذي يجعلها تستعيد حيويّتها استعداداً للانطلاق من جديد في رحلة العذاب الّتي لا تنتهي، ولأنّها مشمولة برعاية خاصّة من القدر حتّى قبل أن تكون نطفة من منيّ تُمنى، فقد اختار لها هذا الأخير من بين كلّ رجال العالم أباً خاصّاً لا تكاد تغريه أرض بالمكوث فيها أكثر من يوم وليلة على أبعد تقدير: الحسن العطّار الّذي كان يركب حماره وهو يجوب مختلف القرى النّائية كرسول بعثه اللّه ليقوم، على قدر استطاعته، بالدّور الّذي تملّصت الدّولة عن القيام به في فكّ العزلة عن القرى المهمّشة ووصلها بالعالم، وكأنّها تتعمّد مع سبق إصرار وترصّد صنع برزخ بينهما كي لا يلتقيا كما لا تلتقي المياه العذبة والمالحة في البحار والمحيطات.

كان الحسن العطّار هو النّافذة الوحيدة الّتي تطلّ منها نسوة القرية بأعين مشدوهة على قطار الحياة الّذي كان يسير بسرعة جنونية على بعد مئات آلاف الأميال منهنّ مخلّفاً وراءه القرية ترزح تحت وطأة سكون قاتل وصمت مستفزّ، مثل ساعة حائطية توقّفت عقاربها عن الدّوران بعد أن نفدت بطّارياتها منذ زمن بعيد ولم تجد يداً مسؤولة تتكرّم وتمتدّ لتعيد إليها الحياة من جديد.

كانت كلّ زيارة له للقرية بمثابة عيد لهنّ. فقد كنّ يشعرن وكأنّ المدينة كلّها وبكلّ رونقها الّذي كان ينساب متدفّقاً في أخيلتهنّ كالحلم اللّذيذ قد حطّت رحالها في قريتهن، كنّ يتحلّقن حوله بوجوه تطفح بالفرحة وقلوب ترقص بالنّشوة وكأنّهنّ فراشات يحمن حول مصباح لاكتشاف ضوئه الوهّاج، وكان بدوره لا يترك الفرصة تمرّ دون أن يتمرّغ في

نشـوة غامـرة منحتهـا إيّـاه هـؤلاء النّسـوة بـبراءة حـين جعلنـه يشـعر وكأنـه أضحـى في غفلـة مـن الجميـع مركـزاً للكـون!

دون أيّ تخطيـط مسـبق نشـأت علاقـة وطيـدة لا واعيـة بينهـما جعلـت كلّ طـرف منهـما يديـن بالامتنـان للطّـرف الآخـر، فالحسـن العطّـار يمـدّ النّسـوة بالفرحـة اللاّزمـة الّتـي تجعلهّـن قـادرات عـلى الاسـتمرار في العيـش في أرض تنعـدم فيهـا أسـباب الحيـاة، والنّسـوة يمـددن العطّـار بشـعور بالرّفعـة لا يشـعر بـه إلاّ وهـو يقـف وسـطهنّ بتبـاهٍ وكأنّ أمـر إسـعادهنّ موكـول لـه وحـده دون سـواه، كـنّ يبتعـن منـه كلّ مـا يجلـب لهـن مـن بضائـع حقـيرة ورديئـة، ولم يكـنّ أبـداً في ذلـك مـن الزّاهـدات، فملابسـه الرّخيصـة كانـت في أعينهـنّ أنفـس مـن الملابـس المعروضـة في أرقـى محـلاّت لنـدن، وعطـوره الشّـعبية أفخـر في نظرهـنّ مـن أروع العطـور الباريسـية، والكحـل والسّـواك والغاسـول والصّابـون البلـدي وبعـض الزّيـوت التّافهـة كانـت عندهـنّ أجمـل مـن كلّ مـا وصـل إليـه العلـم في عـالم مسـاحيق التّجميـل. ومقابـل ذلـك، كان الحسـن العطّـار لا يتـورّع عـن مـلء خزائنـه بـكلّ مـا يجـدن بـه مـن بيـض ودجـاج وأرانـب وغيرهـا.

كـنّ راضيـات مبتهجـات حتّـى دون أن يعلمـن أنّ اللّـه أنعـم عليهـنّ إذ حرمهـنّ مـن مقارنـة بضائـع العطّـار بغيرهـا مـن البضائـع الّتـي تقتنيهـا غيرهـنّ مـن النّسـاء في مختلـف أصقـاع العـالم.

الجهل أحياناً قد يكون أرحم للإنسان من العلم...

تـزوّج الحسـن العطّـار كـما هـو حـظّ مـن يمتهـن مثـل مهنتـه بإحـدى زبوناتـه بعدمـا وقـع أسـيراً لجمالهـا الأخّـاذ ودلالهـا الفتّـان؛ سـحرته هنيّـة وقيّدتـه بأغلالهـا كـما قيّـد حـماره بحبـل، وحبـس نفسـه كـما لم يفعـل مـن قبـل وطفـق ينهـل مـن اللـّذة في حضـن زوجتـه الحسـناء الّتـي أينعـت مبكّـرا

وحملت في رحمها ثمرة هذا الزّواج. قطف الزّوجان بشغف ثمرة حبّهما الأولى، طفلة جميلة أسمياها الضّاوية. وبعد حوالي ثلاثة أشهر من ولادتها الأولى حملت الزّوجة ثانية، وما إن حان أوان القطاف هذه المرّة حتّى تعسّرت الولادة حتّى كادت تودي بحياة الأمّ وجنينها لولا العناية الإلهية الّتي أبت إلاّ أن تجعل وليدة العناء تبصر نور الحياة بعد عذاب شديد، لقد كانت هذه الولادة المتعسّرة كما لو أنّها نذير شؤم يوحي بأنّ العالم لا يرحبّ بالسّعدية بين ظهرانيه، أو أنّها إشارة توحي بأنّ هذه اللّحظة القصيرة لا تعدو أن تكون إلاّ بداية لحياة من الجحيم الطّويل.

فرح العطّار بنجاة زوجته وابنته فرحاً شديداً، ولكن ومع مرور الأيّام تلاشى هذا الفرح شيئاً فشيئاً كغمامة عبثت بها الرّياح.

تكدّر صفو العلاقة بين العطّار وزوجته، واستحال الحبّ كرهاً والسّكينة اضطراباً وكأنّ ولادة السّعدية كانت بمثابة الحجر الّذي أُلْقِيَ في بحيرة زواجهما الوادعة لتجعلها ترتجّ دافعة العطّار بكلّ قوة لامتطاء حماره والرّحيل بعيداً دون عودة مخلّفاً وراءه زوجاً قاصراً تحمل على عاتقها مسؤولية طفلتين.

أصاب رحيل الزّوج هنيّة بحرقة لاذعة وحزن شديد جعلها محلّ شماتة من طرف نساء القرية، ممّا جعلها تعتزلهنّ مكرّسة كلّ وقتها للاعتناء بطفلتيها، ولكن كان من الصّعب على أمّ شابّة ترسف في الفقر المدقع أن تعيل وحدها طفلتين، لذلك قبلت العرض الوحيد الّذي كان مقدَّماً لها بالزّواج من رجل في عمر جدّها، تزوّجت به وقلبها مفعم بآمال جمّة لعلّه يكون لها سنداً في تربية طفلتيها الصّغيرتين، ولكنّ آمالها العريضة سرعان ما تبخّرت بعدما أصبح الزّوج الكهل عالة إضافية على كاهلها بعدما أصبحت مُلزَمة بإعالة ثلاثة أشخاص عوض شخصين،

وكانت كلّما اعترضت أو فتحت فمها بالشّكوى إلاّ ويُشبعها ضرباً وينهال عليها بسيل شتائمه وإهاناته على مرأى ومسمع من ابنتيها اللّتين كبرتا في هذا الجوّ المشحون بالكراهية والعنف، وعندما بلغت الضّاوية الخامس عشرة من عمرها تزوّجت، وبعدها بعام تزوّجت السّعدية من رجل يكبرها بخمس وعشرين عاماً ينحدر من قريتها ولكنّه يعمل حارساً في إحدى الفيلاّت في المدينة.

لاذت السّعدية بهذا الزّواج لعلّه ينتشلها من براثن جحيم عاشت فيه مدّة طويلة وازداد استعاراً بعد زواج أختها، كانت في البداية راضية رغم غياب زوجها، ولكن بعد أن بدأ بطنها بالانتفاخ والتكوّر، ازداد رضاها وهي ترى نفسها على أعتاب أمومة ستكون كفيلة بتعويضها عن هذا الغياب.

لم ينغّص عليها فرحتها سوى مرض ألمّ بها سرعان ما شُفيت منه بعد أن ساقتها أمّها عند سي الحسين الّذي أوصاها بأن تسقيها شراباً من منقوع بعض الأعشاب...

ولأنّ الزّمان يأبى إلاّ أن يعيد نفسه، فقد تعسّرت ولادة السّعدية كما تعسّرت ولادة أمّها من قبل، ولكنّ الألطاف الإلهية تدخّلت مرّة أخرى لتنقذها من الموت وهي زوجة على أعتاب الأمومة كما أنقذتها من قبل وهي جنين على أعتاب الحياة. الفرق الوحيد بين المرّتين أن الألطاف الإلهية لم تَطَل هذه المرّة الوليد كما طالت الوليدة من قبل، فرغم أنّه نجا من الموت بأعجوبة، إلاّ أنّه وُلد بأطراف صغيرة مشوّهة سرعان ما تبيّن لاحقاً أنّه لا يستطيع تحريكها لأنّه كان كسيحاً.

غمّت السّعدية غمّا شديداً، وكيف لا يُصاب بالغمّ من رُزِق مولوداً كسيحاً في قرية جبلية كسيحة لا تملك أرجلاً تتعقّب بها عجلة التّطوّر ولا أيدٍ تتلمّس بها رغد العيش!

بلعت السّعدية لوعتها بمرارة وألم وهي لا تدري أنّ سبب فاجعتها هو سي الحسين الّذي وصف لها خلال شهور حملها الأولى وصفة من الأعشاب ما كان يجب أبداً على حامل مثلها أن تستعملها.

السّعدية المحزونة وابنها الكسيح ضحيّتان من ضحايا الجهل المنمّق الّذي يجعل الدّجال يرتدي بذلة الطّبيب بمباركة من المسؤولين عن هذا الوطن الجريح.

ولأنّ حكايتها كادت أن تكون نسخة طبق الأصل لحكاية أمّها، فإنّ السّعدية لم تجد من زوجها خلال محنتها سوى الإعراض والنّفور والهجر، فالزّوج الّذي كان مواظباً على زيارة أسرته مرّتين في السّنة في عيد الفطر وعيد الأضحى، لم يجد أدنى حرج في التّملّص من مسؤولياته والإلقاء بها على عاتقها قاطعاً الصّلة بأسرته بصفة نهائية تاركاً السّعدية تغوص في حزن بعمق المحيط.

هكذا وجدت السّعدية نفسها تجرّ ابنها لبيت جدّها لتتكوّم بجانب أمّها في انتظار نهاية تمنّتها أن تكون بنكهة الخلاص.

عندما لدغتها عقرب في تلك اللّيلة القائظة من ليالي ماي، ظنّت السّعدية أنّها بذلك تضع نقطة النّهاية لمأساتها، وأنّ الأوان قد حان لتهنأ بالرّاحة في مرقدها الأبديّ. ولكن يبدو أنّ الموت أيضاً أبى أن يُريحها قبل أن يحظى بنصيبه كاملاً من متعة تعذيبها، فقد رقدت لأكثر من أسبوعين تعاني من عذابات الحمّى وآلام السّموم الّتي لوّثت دماءها.

فاضت بعدها روح السّعدية لبارئها، وبقي جسدها متعة لسي الحسين ليمارس عليه شذوذه قبل أن يصير وجبة لديدان الأرض...

(٩)

حبّ منذ الحلوى الأولى

هـواء حزيـن تضـوع منـه رائحـة الكآبـة لتخنـق أنفـاس القريـة الّتـي اتّشـحت بـرداء الحـداد، كان قـرص الشّـمس يترنّـح في السّـماء في اتّجـاه المغيـب ساحباً خلفـه أشـعّته الباهتـة الّتـي أبت إلاّ أن تشـارك سـكّان القريـة مُصابهم، عندمـا كان عـادل يسـتعدّ لإدخـال المفتـاح في قفـل بـاب القسـم لإقفالـه تأهّبـاً للمغـادرة، غـزت سـمعه أصـوات صاخبـة قادمـة مـن بعيـد، أدخـل المفتـاح في القفـل عـلى عجـل وأداره ثـمّ أخرجـه ودسّـه في جيـب سروالـه وتجمّـد في مكانـه خاشـع الحـواسّ منتظـراً وصـول الموكـب الجنائـزي الّـذي كان يضـجّ بالتّكبـير والتّوحيـد وبأصـوات أخـرى لا يسـتطيع تمييزهـا، كادت الدّمـوع تفـرّ مـن عينيـه وهـو يـرى الرّجـال مهرولـين حاملـين النّعـش عـلى أكتافهـم وهـم في عجلـة مـن أمرهـم ليرمـوا جثّـة السّـعدية في حفـرة مظلمـة ويحثـوا عليهـا الـتّراب ثـمّ يعـودوا لديارهـم وأهليهـم بـرؤوس مرفوعـة وكأنّهـم تخلّصـوا مـن عـبء ثقيـل...

اقـترب الموكـب أكـثر فنكّـس عـادل رأسـه دون أن ينجـح هـذه المـرّة في منع دمعـة حـارّة مـن الانـزلاق عـلى خـدّه، مسـحها بظهـر كفّـه ثـمّ سـار في أثـر الموكـب وهـو يدخـل المقبرة مـن بابهـا المحـاذي لبـاب القسـم، أُنْزِل النّعـش عـلى حافّـة الحفـرة الّتـي كانـت مُهيّـأة سـلفاً، وتحلّـق الرّجـال حولـه متلاحمـة

أجسـادهم وكأنّهـم يحولـون دون تـرك أيّ فجـوة تتسـلّل منهـا السّـعدية هاربة مـن قدرهـا المحتـوم.

دون أن يضيعـوا الكثير مـن الوقـت، شـمّر بعـض الرّجـال عـن سـواعدهم وشرعـوا في مراسـيم الدّفـن.

كانـت الأجـواء مهيبـة والـرّؤوس منكّسـة، وكان عـادل قـد انفصـل عـن الدّنيـا تماماً وهـو يراقـب المشـهد بوجـه شـاحب وعينـين منطفئتـين وقلـب مرتعـش، حينـما ارتفـع صـوت فريـد الأطـرش الشـجيّ مـن جيـب سروالـه وهـو يصـدح:

الحياه حلوه بس نفهمها

الحياه غنوه ما احلى أنغامها

ارتبـك عـادل وشـعر بحـرج شـديد وقـد وضعـه مطربـه المفضّـل في ورطـة حقيقية .

شرع يفتّـش في جيوبـه بعصبيـة ظاهـرة وقـد أحـسّ بعـرق بـارد ينـزل مـن أعـلى رقبتـه وحتّـى أسـفل ظهـره بعدمـا أصبحـت كلّ النّظـرات عـلى حـين غرّة مسـلّطة عليـه. وعندمـا نجـح أخـيراً بيـد مرتجفـة في إخـراج هاتفـه المحمـول، كان فريـد الأطـرش لا يـزال يغنّـي منتشـيا بحـلاوة الدّنيـا:

ارقصوا وغنّوا وانسوا همومها

الحياه حلوه دي الحياه حلوه

ضغـط عـلى زرّ إنهـاء الاتّصـال، وتسـلّل مـن بين الجمهـور مبتعـداً بخطوات خجولـة وهـو يلتفـت في تحـرّز وكأنّـه فـارّ من مـسرح جريمة.

عندمـا أصبـح في منـأى عـن النّظـرات الموبِّخـة، سـحب نفسـاً عميقـاً وزفـر زفـرة سـجين تخلّـص مـن سـجنه. فكّـر في سرّه: كيـف يغنّـي فريـد الأطـرش للحيـاة وهـو ميّـت منـذ عقـود؟ أم تُـراه يغنّـي في حفلـة يقيمهـا المـوتى فرحـاً

بانضمام السّعدية إليهم؟! نظر في شاشة الهاتف ليتأكّد من هوية المتّصل، طفا على شفتيه شبح ابتسامة وهو يضغط على زرّ الاتّصال، قرّب الهاتف من أذنه وانتظر قليلاً حتّى جاءه من الطّرف الآخر للخطّ صوتها متهدّجا قلقاً :

ـ الو...عادل...ما الأمر؟!

قال بصوته النّاعس الّذي يجعل السّكينة تسري في أوصالها حتّى لو كانت في أوج اضطرابها:

ـ أنا بخير لا تقلقي، فقط مشغول قليلاً، بعد قليل سأعاود الاتّصال بك. اتّفقنا؟

قالت بصوتها الدّافئ:

ـ عادل! متأكّد أنّك بخير؟!

بعد ابتسامة خفيفة قال:

ـ طبعا طبعا، لا تقلقي، أنا الآن خارج البيت، عندما أدخل سأتّصل بك.

قالت في تسليم:

ـ حسنا سأنتظرك، اعتنِ بنفسك.

ـ اعتنِ بنفسكِ أيضا، مع السّلامة.

أدخل هاتفه إلى جيب سرواله بعد أن جعله على الوضع الصّامت، ثمّ عاد بخطى متثاقلة إلى مسرح الدّفن حيث وجد جثّة السّعدية أصبحت تحت التّراب، بينما على مقربة من قبرها تحلّق الجميع حول سي الحسين الّذي راح يدعو، في تأثّر بالغ، للفقيدة بالرّحمة والمغفرة!

في طريق عودته لبيته، لم يمنع عادل نفسه من التّفكير في مصير ذلك الابن الكسيح الّذي خلّفته السّعدية وراءها؛ لقد وجدت الهواجس، الّتي

كانـت تتربّـص بـه، في مـوت السّـعدية فرصـة مواتيـة للانقضـاض عليـه مـن جديـد بـلا هـوادة، أصبـح ينظـر بعـين الازدراء لمحاولتـه السّـابقة تسـليط الضّـوء عـلى مشـكلة زواج القـاصرات في القريـة عـن طريـق برنامـج تلفزيـوني، عـضّ عـلى شـفته السّـفلى مـن الغيـظ عندمـا تذكّـر ذلـك الإعلامـي المغـرور، وأحـسّ عـادل أنّ في جعبتـه الكثـير ليمنحـه لهـذه القريـة البائسـة. أومأ برأسـه عندمـا فكّـر في ذلـك. قـال في قـرارة نفسـه: نعـم أنـا قـادر عـلى مـدّ يـد العـون لهـؤلاء النّـاس المنسـيين، ولكـن كيـف...؟ كيـف...؟ كيـف...؟

هكـذا كان يتسـاءل وهـو يدخـل بيتـه الصّغـير. ألقـى بهاتفـه المحمـول فـوق سريـره في غرفـة النّـوم. بـدّل ثيابـه ثـمّ أعـدّ الشّـاي وجلـس في غرفتـه الأخـرى ليشربـه عـلى مهـل، نهـض بعدهـا وسـار بتخـاذل إلى غرفـة النّـوم، جلـس عـلى طـرف السّريـر وأخـذ هاتفـه المحمـول، ومـا إن نظـر في شاشـته حتّـى رفـع حاجبيـه، ووسّـع عينيـه، وزمّ شـفتيه، لقـد نـسي هاتفـه عـلى الوضـع الصّامـت فوجـد بذلـك ثـلاث مكالمـات غـير مـردود عليهـا. يسـتطيع الآن بسـهولة أن يخمّـن في أيّ حـال سـيّئة سـتكون نعيمـة.

ضغـط عـلى رقمهـا، ومـا كاد يرفـع هاتفـه حـذو أذنـه حتّـى جـاءه صوتهـا مرتعشاً:

ـ عادل، ماذا هناك؟ لماذا لا تردّ على مكالماتي؟

بنبرة واثقة قال:

ـ اهدئي حبيبتي. سأشرح لك كلّ شيء.

قالت بلهجة متوسّلة:

ـ عـادل، لقـد قلقـت عليـك كثـيراً.. أرجـوك أخـبرني مـاذا حـدث؟ قـل لي إنّـك بخـير.

ابتسم ابتسامة لطيفة قال بعدها:

ـ أنا بخير حبيبتي، كلّ ما في الأمر أنّك عندما اتّصلت بي في المرّة الأولى كنت في المقبرة.

لم يستطع بعدها أن يمنع نفسه من الضّحك ملء فمه عندما تذكّر ذلك الموقف.

قالت نعيمة في دهشة:

ـ حبيبي هل أنت بخير؟! ماذا كنت تفعل في المقبرة؟! ولِم تضحك؟!

قال بصوت متهدّج وهو يكافح ليمنع نفسه من الاستمرار في الضّحك:

ـ سأشرح لك كلّ شيء، فقط لا تستعجلي.

واصل بعدما أفلح أخيراً في السّيطرة على نوبة الضّحك المفاجئة الّتي اجتاحته:

ـ كنت في المقبرة لحضور جنازة إحدى نساء القرية توفّيت صباح اليوم، كانت هيبة الموت قد فرضت صمتاً رهيباً على المكان، وكان الجميع قد ارتدى قناعاً من خشوع، وفجأة رنّ هاتفي فانطلق فريد الأطرش يغنّي: الحياة حلوة...هل تتخيّلين الموقف يا حبيبتي؟ هل تتخيّلين...؟

قالت وهي تضحك:

ـ آه طبعا، أتخيّل ذلك جيّداً. لابدّ أنّ أمطاراً غزيرة من العرق انهمرت من جبينك حينها.

وهو يضحك أيضا:

ـ نعم كنت في قمّة الحرج، ولم أملك سوى الفرار بعيداً لأكلّمك، وبعدها جعلت هاتفي على الوضع الصّامت ونسيته كذلك إلى أن وصلت البيت ووجدت مكالماتك.

قالت في دلال:

ـ آه حبيبي، اعذرني أرجوك، تعلم أنّني أخاف عليك كثيراً.

بصوت مرهف قال:

ـ لا عليك حبيبتي، أنا أيضا أخاف عليك كثيراً وأحبّك كثيراً أيضاً.

ران الصمت للحظة.

تابع بعدها عادل كلامه ولكن بنبرة حزينة هذه المرّة:

ـ أتعلمين حبيبتي؟! كلّما حدث مكروه في هذه القرية إلاّ واستبدّ بيَ الحزن استبداد المال بقلب مُرابٍ شحيح، أشعر أنّني أتحمّل قسطاً من المسؤولية عمّا يحدث هنا من مآسي. لا أستطيع إخلاء نفسي من المسؤولية، لا أستطيع. أتفهمين ذلك؟

تنهّدت نعيمة في يأس وهي تقول:

ـ أووووه حبيبي، كفّ عن ذلك أرجوك، لقد قمت بما يجب عليك القيام به وأكثر، لا تُلقِ بالمسؤولية عليك وتُبرّئ ساحة الدّولة. الدّولة هي المسؤولة صدّقني، الدّولة ولست أنا ولا أنت.

قال بصوت تنخره الخيبة:

ـ إنّني بدأت أشكّ فعلاً في نوايا الدّولة، إنّ يد الدّولة الطّويلة الّتي تستطيع الوصول في رمشة عين إلى أدغال إفريقيا البعيدة لتحنوَ على أهلها لا تستطيع الوصول إلى قرية مقهورة كل ذنبها أنّ سكّانها ليست لهم بشرة سوداء.

ضحك في استهزاء وقال بنبرة تهكّم:

ـ أتساءل أحياناً إن كنت أستطيع الذّهاب إلى إحدى الدّول الإفريقية جنوب الصّحراء وأُحضر رجلاً أسود البشرة، طويل القامة، عريض المنكبين، أفطح الأنف، غليظ الشّفتين متهدّلَهما، أبيض الأسنان. وأجعله ينشر نسله في هذه القرية لعلّ ذلك يجعل مسؤولينا ينظرون إليها بعين العطف والشّفقة.

شرعت تضحك وهي تقول:

ـ فكرة جيّدة، شرّ البليّة ما يُضحك.

واصلت بعد أن اتّخذ صوتها نبرة جدّية:

ـ صدّعوا لنا رؤوسنا في وسائل إعلامهم العفنة بربط المسؤولية بالمحاسبة دون حتّى أن يستطيعوا النّهوض بمسؤولياتهم على الوجه الأكمل.

قال عادل:

ـ هذه العبارة لا تعنيهم هم، بل تعني الفقراء والمساكين ومن ليست لديهم ظهور يستندون إليها. ففي بلادنا لهم قانونهم ولنا قانوننا.

قالت مؤكّدة:

ـ اتركهم إذن يتحمّلون مسؤولياتهم كاملة.

قال بمرارة:

ـ لا أستطيع أن أرى من هو في حاجة لمساعدتي دون أن أحرّك ساكناً، هذا كلّ ما في الأمر.

قالت بصوت متّقد بالحماس وكأنّها عثرت فجأة على الحلّ:

ـ لماذا لا تكتب رواية؟

قال بصوت خامل:

ـ رواية؟!

سكت قليلا كأنّه يحاول استيعاب علاقة الرّواية بالموضوع ثمّ تساءل:

ـ ماذا تقصدين بالضّبط؟

قالت بنفس النّبرة المتحمّسة:

ـ أقصد أن تكتب رواية حول كلّ المآسي الّتي يعاني منها سكّان تلك القرية وأمثالهم في جميع ربوع البلاد.

واصلت شارحة محاولة إقناعه بالفكرة:

ـ صدّقني هذه هي الطّريقة الوحيدة الّتي تستطيع بواسطتها مساعدتهم ومساعدة نفسك أيضاً.

ـ نعيمة أنا لا أفهمك.

قالت في تحفّز:

ـ أليس هدفك هو أن تزيح السّتار عن مآسي هؤلاء المنكوبين وتجعل أكبر عدد ممكن من النّاس يطّلعون عليها؟ اكتب عنهم إذن وانشر ما كتبت، وهكذا ستساعدهم وترتاح نفسياً عندما تشعر أنّك أدّيت ما عليك.

قال بصوت خافت يملأه الشّكّ:

ـ ولكنّني لم أكن يوماً كاتباً.

قالت بنبرة محفّزة:

ـ حبيبي، أنت أعلم منّي أنّ المرء لا يخرج من رحم أمّه وفي يده ورقة وقلم، ثمّ إنّ أسلوبك رائع، كلّ كتاباتك في الفيس تعجبني.. ثمّ إنّك ستكتب لهدف نبيل وليس فقط هدراً للوقت. المهمّ أن تكتب حبيبي. اكتب أيّ شيء: رواية، يوميات، أو سيرة ذاتية، أيّ شيء...المهم أن تكتب.

قال مستهزئاً:

ـ من أنا حتّى أكتب سيرتي الذّاتية؟!

قالت بصوتها الواثق:

ـ لا تقلّل من شأنك حبيبي، إنّ الّذين كتبوا عن أنفسهم ليسوا أرفع قدراً منك.

واصلت:

ـ اسمع حبيبي، دعك من مسألة السّيرة الذّاتية، اكتب رواية وفرّغ فيها كلّ طاقاتك، إنّك لا تعدم المؤهّلات، ثمّ إنّ الموضوع يستحقّ أن تخوض المغامرة من أجله.

قال بذات الصّوت الخافت المليئ بالشّكّ:

ـ ولكنّني لا أملك كلّ الحقائق لأكتب رواية حقيقية.

ـ ومتى كانت هناك رواية حقيقية مائة في المائة؟ إنّ لكلّ شيء بهاراً، وبهار الرّواية هو الخيال. تكون الرّواية أجمل كلّما برع الكاتب في المزج بين الحقيقة والخيال، ثمّ إنّ الكاتب يكون مضطرّاً لاستعمال خياله محاولة منه لملء الخواء النّاجم عن عدم امتلاك الحقيقة الكاملة، المهمّ ألاّ يطغى الخيال على الحقيقة فيلقي بالرّواية في سراديب بعيدة كلّ البعد عن الغرض المنشود.

ضحك ضحكة ودودة وهو يقول:

ـ لديك إصرار عجيب.

ضحكت بدورها بلطف وهي تقول:

ـ عدني إذن أن تفكّر بالأمر.

ـ أعدك حبيبتي.

قالت بفرح طفولي:

ـ جيّد. لم تضع محاولاتي هباءً. آه... قبل أن أنسى، إنّك مدعوّ الأسبوع المقبل لحفل توقيع ديوان شعري لأحد الشّعراء الشّباب، سأرسل لك الدّعوة في الواتساب.

ـ سأحاول الحضور بالطّبع إن لم يكن من أجل الشّاعر فمن أجل عينيك الجميلتين.

قالت بصوت تنطّ منه البهجة:

ـ رائع! سأراك قريباً إذن. ولكن حذارِ أن تنسى شحن هاتفك المحمول هذه المرّة جيّداً.

ضحك ملء شدقيه ثمّ قال:

- اشتقت للحلوى الأولى.

قالت وهي تضحك:

- ألم تنسَ؟

ردّ بنبرة ذات مغزى:

- ولن أنسَ الحلوى الأولى ما حييت.

ثمّ تابع في استعجال:

ـ سأتركك الآن حبيبتي، عليّ أن أصلّ المغرب ثمّ أعدّ عشائي.

قالت بغنج:

ـ هكذا إذن، تريد التخلّص منّي.

قال ضاحكاً:

ـ أنت تعرفين أنّني لن أملّ أبداً ولو بقيت حياتي كلّها أكلّمك.

ـ اااه...سأتركك إذن بعد هذا الكلام الجميل.

ـ أحبّك.

ـ أحبّك أكثر.

ـ مع السّلامة.

ـ مع السّلامة.

استلقى على سريره في استرخاء كغريق لفظه البحر، تنهّد من أعماقه تنهيدة لذيذة جعلت كلّ أعضائه تتمطّط حتّى شعر بخفّة عجيبة جعلته يحسّ وكأنّه يسبح في الفضاء الشّاسع ممتطياً صهوة حلمه الورديّ. كان، قبل أن يعرف نعيمة، مؤمناً أنّ هناك برزخاً بين العالم الخيالي الزّاخر بالحبّ الطّاهر النّقيّ الّذي لطالما قرأ عنه في الرّوايات وسلك دروبه درباً درباً بروحه الطيّبة وقلبه الملائكي، والعالم الواقعي الأسود القاتم المثخن بالحقد والكره والمآسي الّتي لا تنتهي. وكان هو كأصحاب الأعراف يجلس

بـين جنّـة العـالم الأوّل ونـار العـالم الثّـاني في انتظـار أن يقـول فيـه اللّـه كلمتـه الحاسـمة الّتـي سـتجعله ينغمـس في سـعادة خالـدة أو في شـقاء سرمـديّ. كان يظـنّ أنّ قصـص الحـبّ النّاجحـة لا تولـد إلاّ في أخيلـة الرّوائيـين ولا تعيـش إلاّ وهـي حبيسـة في رواياتهـم وكأنّهـا خفافيـش تهـاب الضّـوء. لا يـدري لمـاذا كان يحلـو لـه أن يشـبّه الحـبّ بالخفّـاش، ربّمـا لأنّ كليهـما أعمـى!!!

ولكـنّ نعيمـة غـيّرت نظرتـه للحـبّ كـما غـيّر كوبرنيـك نظـرة العـالم لشـكل الأرض، علّمتـه أنّ قناعـات الإنسـان، الّتـي يسـتميت مـن أجـل الدّفـاع عنهـا بـكلّ مـا أوتيَ مـن جهـد، هشّـة بمـا يكفـي لتنهـار بسـهولة في أيّ لحظـة كـما ينهـار قـصر مـن الرّمـل. علّمتـه أن القناعـات لا تُبنـى إلاّ عـلى أنقـاض أخـرى...

يتذكّـر كيـف كانـت حياتـه قبـل أن يعـرف نعيمـة وبعـد أن عرفهـا فيتبسّـم، لـو جـاز لـه أن يُقسّـم حياتـه إلى حقبتـين لقسّـمها إلى حقبـة مـا قبـل نعيمـة وحقبـة مـا بعدهـا...

تبسّـم مـرّة أخـرى حينـما تذكّـر يـوم دعـاه صديقـه سـعيد لحضـور نشـاط ثقـافيّ بإحـدى ثانويـات المدينـة فـأبى، يشـعر الآن أنّـه مديـن لصديقـه بالكثـير، فلـولا إصراره العجيـب عـلى اصطحابـه لمـا عـرف نعيمـة ولمـا تـذوّق قلبـه طعـم السّـعادة الّتـي يطفـح بهـا الآن.

كان يجلـس مسـاء ذلـك اليـوم في خمـول في القاعـة الّتـي خيّـم عليهـا الصّمـت، كانـت الأبصـار معلّقـة بالشّـاعر الشّـابّ الّـذي كان يتنحنـح في توتّـر تأهّبـاً لإلقـاء قصيدتـه، بينـما كان عـادل منهـكاً ورازحـاً تحـت وطـأة ضجـر مريـع لا ينفـكّ يتجـرّع مرارتـه كلّـما قـدم إلى المدينـة. لقـد كان للسّـنوات الطّـوال الّتـي عاشـها في القريـة حيـث يعمـل تأثـير واضـح عـلى نمـط حياتـه، فقـد أصبحـت روحـه تجنـح لدعـة العيـش في القريـة وتأنـف مـن صخـب المدينـة الّـذي أضحـى يصيبـه بالاكتئـاب، كان شـارد الذّهـن وهـو يبحلـق

في الشّـاعر بعينـين متّسـعتين دون أن يفقـه كلمـة مـمّا يقـول وكأنّـه يحـاول بـذل أقـصى مـا يسـتطيع ليبـدو في غايـة الاهتـمام، لكـزه صديقـه في جانـب صـدره فاسـتفاق مـن شروده مفزوعـاً وانضـمّ لصفـوف المصفّقـين الّذيـن كانـوا يصفّقـون في انبهـار للشّـاعر الّـذي راح ينحنـي المـرّة تلـو الأخـرى للجمهـور في زهـو.

كانـا يتهامسـان وهـما يعاتبـان بعضهـما عندمـا سـمعا صوتـاً عذبـاً مـن فوقهـما:

- تفضّلا.

التفتـا نحـو مصـدر الصّـوت ليبصراهـا منحنيـة عليهـما ببشاشـة ويداهـا تحمـلان طبـق الحلـوى. مـدّ سـعيد يـده للطّبـق ولسـانه يتمتـم بعبـارات الشّـكر، بينـما تجمّـد عـادل في كرسـيّه مبتسـماً وهـو شـاخص ببـصره إليهـا وكأنّ شـللاً أصابـه عـلى حـين غـرّة.

عـادت الحيـاة فجـأة لتلـك العينـين المنطفئتـين ودبّ النّشـاط في ذلـك الوجـه الذّابـل!!!

أسـبلت جفنيهـا في خفـر وقرّبـت منـه الطّبـق أكـثر وهـي تقـول بصـوت خفيـض هـذه المـرّة:

- تفضّل.

قال ببلادة وقد بدا أنّه لم يسمع ما قالت:

- هاااه...ماذا؟!

لكزه سعيد ثانية وهو يقول في حزم:

- تفضّل خذ الحلوى.

قال عادل بارتباك وهو يمدّ يداً مرتعشة للطّبق:

- آه...نعم نعم...الحلوى...

ابتسمت في حياء وانصرفت بينما بقيت عينا عادل شاخصة إليها في وله...

شعر عادل بقشعريرة باردة تجتاح أوصاله، وأحسّ بنبضات قلبه تتسارع عندما تذكّر ذلك اليوم. ضحك بعدها عندما تذكّر أيضاً كيف طلب منها أن تلتقط لهما صورة بهاتفها المحمول مدّعياً أنّ هاتفه قد نفدت بطّاريته من الشّحن، وأنّ صديقه نسي هاتفه في المنزل. كان يعرف أنّ كذبته لم تنطلِ عليها يومذاك، ولكنّه ما كان أبداً ليترك الفرصة تمرّ دون أن يفتح قناة أخرى للتّواصل بينهما، أعطاها رقم هاتفه لكي تبعث له الصّورة وخرج من القاعة رفقة صديقه وعيناه على شاشة الهاتف، كانت أعصابه مشدودة طوال السّاعات الّتي تلت والّتي قضاها في ترقّب وخوف مريرين، وعندما كاد الإحباط أن ينال منه قبيل منتصف اللّيل بقليل، وصلته الصّورة فرقص قلبه من الفرحة كما لم يرقص من قبل.

لقد أحبّ عادل نعيمة منذ الحلوى الأولى، وأحبّته منذ النّظرة الأولى، ونما حبّهما وتسامى في ظرف وجيز حتّى بدا وكأنّهما ما خُلِقا إلاّ ليكونا حبيبين...

(١٠)

وهن الشّيطان

كان الظّلام الكثيف يبسط رداءه الأسود الحالك على الغابة باثّاً فيها صمتاً رهيباً وكأنّ الموت قد حطّ رحاله فيها ناشباً مخالبه الحادّة في رقاب كلّ الكائنات النّابضة بالحياة، وكان يحاول أن يجري بأقصى ما ملك من سرعة أتاحتها له جثّته الضّخمة المحتجَزة في جلبابه الضّيّق، تسبقه شفته المتهدّلة ولهاثه المتهدّج وقطرات العرق المتلألئة على جبينه وخدّيه، يتعثّر فيجثو على ركبتيه فينظر خلفه بعينين يملأهما الذّعر وقلب يختلج من فرط الوجل ليشرع في الحبو قبل أن يتماسك وينهض بتثاقل كطفل يتدرّب على الوقوف على قدميه ليطلق العنان مجدّداً لساقيه دون أن يمنعه ذلك من التّلفّت إلى الخلف ليقيس في كلّ مرّة المسافة الفاصلة بينه وبين المرأة الّتي كانت تتعقّبه رافلة في ثوبها الأبيض الفضفاض الطّويل المنسدل حتّى قدميها الحافيتين، كانت المرأة الّتي انحسر شعرها الأسود المتدلّي حتّى قارب أليتيها تسير بخطى واثقة ويداها الممدودتان أمامها معلّقتان في الهواء. كانت تبدو له كأنّها تحاول الإمساك برقبته، وخطواتها المنتظمة الرّصينة تبتلع المسافة بينهما شيئاً فشيئاً رغم أنّها تسير بإيقاع أبطأ من إيقاعه، كانت عيناها مثبّتتين عليه، بينما كلّما مال ببصره يمنة أو يسرة إلاّ وانقلب إليه بصره مرتاعاً من مرأى عدد لا حصر له من

النّساء مصطفّات على جانبي الطّريق كخرز سبحة الصّلاة. كانت النّساء ذوات ثياب وهيئات وأعمار مختلفة، وكنّ ينظرن إليه بشماتة تبوح بغلّ دفين، كنّ يقهقهن في جذل بالغ وهنّ يتمايلن على بعضهنّ في سلاسة وليونة وكأنّهنّ بلا أعمدة فقرية، كان واضحاً أنّهنّ في قمّة الانتشاء وهنّ يرونه في قمّة العذاب وكأنّ بينهنّ وبينه ثأراً قديماً.

وفجأة ودون سابق إنذار، شعر بثقل غريب يتسرّب إلى رجليه يحول بينه وبين المضيّ قدماً إلى الأمام. حاول بكلّ ما استطاع، ولكنّ الثّقل كان يزداد في كلّ لحظة حتّى شلّ حركته نهائياً فأصبح متسمّراً في مكانه كشجرة راسخة جذورها في الأرض، وبينما هو يحاول أن يرفع قدمه، أحسّ بكفّها تنزل على كتفه فصرخ صراخاً كجلجلة الرّعد في ليلة غائمة كئيبة.

فتح عينيه وأخذ يجيلهما مستكشفا المكان وأنفاسه اللّاهثة تكاد تتوقّف وقلبه المختلج يكاد يغادر صدره.

قالت فاطنة بنبرة باردة:

ـ لا تخف، أنت في بيتك.

وسّع عينيه وهو ينظر إليها مشدوهاً وكأنّه يتأكّد ممّا قالت. ثمّ تنهّد عميقا كأنّه بذلك يطرد كلّ هواجسه.

قال بصوت متهدّج وهو يبحث في حلقه الجافّ عن قطرة من الرّيق:

ـ الحمد لله...الحمد لله.

قالت فاطنة بلهجة تحمل في طيّاتها من العتاب أكثر ممّا تحمل من التّساؤل:

ـ نفس الكابوس الّذي يزورك كلّ ليلة؟!

اكتفى بهزّ رأسه علامة التّأكيد، وأطلق العنان لأنفاسه لتستعيد انتظامها.

قالت في استهجان:

ـ أتساءل إن كانت الكوابيس تسكن في صدور الملائكة! لا بدّ أنّ هناك خطأً ما!

نظر إليها نظرة مرتابة وهو يقول:

ـ إنّ اللّه إذا أحبّ عبداً ابتلاه.

قالت دون أن تتخلّى عن استهجانها:

ـ وكما تقول دائماً: كلّما قوي إيمان المرء كلّما اشتدّ بلاؤه.

حرّك رأسه موافقاً بحذر.

أردفت:

- أتعلم! إذا كان الأمر كذلك فإنّ السّعدية ستجاور النّبيئين والصّديقين والشّهداء والأبرار والصّالحين في الفردوس الأعلى.

نظر إليها في غرابة.

واصلت غير مكترثة:

ـ لا أظنّك تخالفني الرّأي في أنّها تستحقّ الفردوس الأعلى، لا يمكن أن تصبر على العيش في شقاء وتموت في شقاء لتُجازى بعدها بالخلود في النّار!

حدّق في وجهها كأنّه يبحث في ملامحها عن شيء ما.

واصلت رغم ذلك ثرثرتها:

ـ كثيراً ما ساورني سؤال.

حدجها ببصره في حنق محاولاً ردعها عن الكلام.

ألقت رغم ذلك بسؤالها في تحدٍّ:

ـ من أيّ صنف من الأصناف أنت؟ نبيّ؟! صدّيق؟! شهيد؟! أم تراك من الأبرار أو الصّالحين؟!

كان يمسك أعصابه المنقبضة بصعوبة بالغة، فقد كان يعي جيّداً أنّها

تخفـي وراء تسـاؤلاتها تهكّـمات لاذعـة، ولكنّـه رغـم ذلـك تماسـك وأظهـر رباطـة جـأش هائلـة.

قال وهو يرمقها بامتعاض:

ـ كأس ماء.

سحبت نفسها إلى المطبخ قبل أن تظهر من جديد.

ـ خذ.

أخذ الكأس وهو يتمتم بعبارات شكر باردة.

أفـرغ الـكأس في جوفـه ومـدّه إليهـا ثـمّ ولاّهـا ظهـره وأغمـض عينيـه وشـهر جميـع أسـلحته في وجـه الأرق...

زمّـت شـفتيها وحرّكـت رأسـها وهـي ترمقـه بـازدراء، وضعـت الـكأس جانبـاً واسـتلقت عـلى السّريـر.

كان سـيل مـن الـكلام عـلى طـرف لسـانها يتأهّـب للانطـلاق بـضراوة، ولكنّهـا بلعتـه بمـرارة، لشـدّ مـا سـعت جاهـدة لإيجـاد تفسـير لذلـك الكابـوس الفظيـع الّـذي يقـضّ مضجعـه كلّ ليلـة، ولمّـا لم تسـتطع ذلك، جنحت للتّسـليم بالتّفسـير الأسـهل الّـذي كان في متناولهـا: إنّهـا لا ريـب هـي تلـك المـرأة الّتـي تطـارده في كوابيسـه سـعياً للانتقـام...

قـال لهـا ذات ليلـة وهـو يـرزح تحـت وطـأة ضعـف شـديد بعـد أن قـام مـن نومـه مفزوعـاً كعادتـه:

ـ إنّها تطاردني!...اللّعينة لا تتركني أهنأ حتّى في منامي.

تساءلت في فضول وبسرعة وكأنّها تخشى أن يكفّ عن بوحه:

ـ من هي؟

قال وقد بدا جليّاً أنّ إجابته كانت جاهزة منذ مدّة:

ـ ومن غيرها ؟! زوجة أبي.

هيمن الصّمت لوهلة.

كسّرته وهي تسأل:

ـ ولكن لماذا هي بالذّات؟! لماذا تفعل بك ذلك؟!

تنهّد بعمق وزمّ شفتيه في ضيق وقال:

ـ لأنّها راودتني عن نفسي فاستعصمت.

رفعت حاجبيها فاتّسعت عيناها وتمتمت مستغربة تحثّه على المواصلة:

ـ هاه...!!

واصل بنبرة حرص على أن تبدو حزينة:

ـ لقد كانت لا تتورّع عن خيانة أبي في كلّ مرّة، بل تمادت في سفالتها حتّى انغمست في القذارة حتّى أذنيها عندما سوّلت لها نفسها الدّنيئة التّحرّش بي، وعندما صددتها وهدّدتها بإخبار أبي، أُصيبت بالهلع وانتابتها موجة عارمة من الغضب، فصرخت في وجهي والشّرر يتّقد في عينيها ككلب مسعور:

ـ أنا من ستخبر والدك أنّك تتحرّش بي ولننظر حينئذ من سيصدّق أنا أو أنت؟

تساءلت فاطنة في نفاد صبر:

ـ وماذا فعلَت بعد ذلك هل أخبرَته؟

ـ لا، عقدنا ما يشبه اتّفاقاً صامتاً على ألاّ يخبر أيّ منّا والدي مقابل أن تكفّ عن مراودتي عن نفسي وكذا عن خيانتها له.

ـ وهل وفى كلّ منكما بالتزامه؟

ـ نعم ولكن ليس لوقت طويل. لا أنكر أنّها تركتني وشأني ولكنّها لم تقدر على ترك الخيانة لأنّها سرعان ما عادت لتتدنّس بأوحالها من جديد.

ـ وماذا بعد؟

ـ لا أدري كيف تسرّب خبر خيانتها لوالدي.

ـ وماذا كانت ردّة فعل أبيك عندما بلغه الخبر؟

ـ لم يصدّق في البداية، المسكين كان يحبّها كثيراً.. ولكن عندما كثر القيل والقال وأصبحت سيرتها على كلّ لسان، اضطرّ إلى الاستقصاء والتحرّي بنفسه، ليس شكّاً، ولكن رغبة منه في إخراس الألسن المغتابة وتفنيد الإشاعات المغرضة كما كان يراها، ولكن صدمته كانت كبيرة جدّا عندما انتهى به الحال وهو يقف على رأس زوجته وهي في أحضان خليلها.

فغرت فاطنة فمها من الدّهشة وسألت وقد استبدّ بها الفضول:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

أجاب من فوره في برود:

ـ قتلها.

جحظت عينا فاطنة حتّى كادتا تغادران محجريهما بالتّزامن مع شهقة ملتاعة أخرجتها وكأنّها شهدت الجريمة بأم عينها.

سألت من جديد بصوت مبحوح وهي تغلق فمها براحة يدها:

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ بعد لحظات من العراك تمكّن خليلها من الفرار، بينما بقيت هي لقمة سائغة بين يديه، نشب أظفاره في عنقها بعنف حتّى فاضت روحها.

أضاف بصوت فيه رثاء:

ـ منذ ذلك الحين وهي تطاردني في منامي. لا شكّ أنّها تُلقي بمسؤولية قتلها عليّ وتسعى للانتقام منّي. ولكن ثقي أنّني بريء. لست أنا من أخبر والدي بأمر خيانتها.

كانت فاطنة تتقلّب في سريرها، كأنّها تنام على الشّوك، وهي تتذكّر

بحسرة بالغة هذه الرّواية الّتي حكاها لها زوجها تلك اللّيلة منذ أمد بعيد، تسخر الآن من نفسها لأنّها آنذاك صدّقته. ولكن منذ أن علمت بشذوذه الجنسيّ المثير للتّقزّز والمنافي للفطرة السّليمة، شرعت ثقتها فيه تضمحلّ شيئاً فشيئاً حتّى تلاشت نهائياً، أصبحت الآن موقنة أنّه يخفي خلف روايته تلك حقيقة مريعة، ولكنّها لا تستطيع أن تعرف ما هي، كانت دائما تقول في سرّها: من يستطيع ممارسة الجنس على الأموات بدم بارد يستطيع فعل أيّ شيء آخر، لطالما نهشتها الحيرة حيال هذا الرّجل، فرغم سطوته الظّاهرة الّتي جعلت القرية جميعها تخضع لسلطته في تسليم، إلاّ أنّ خلف ذلك كلّه كان يتراءى لها وهن وعجز شديدان، كان في عينيه ضعف غريب لا يستطيع قراءته سواها وهي الّتي عاشرته لسنوات.

أطفأت النّور وحاولت النّوم حتّى تستطيع النّهوض قبل الفجر لتقوم بإعداد الحساء وتسخين الوضوء للفقيه الّذي ينهض منسلخاً من ضعف اللّيل ومتأهّباً لبداية يوم جديد يخفي أثناءه وهنه خلف جبروت مزيَّف...

(١١)

مأساة الاختفاء

كانت نعيمة تتحرّك في خفّة ورشاقة مثل فراشة وهي تذرع المساحة بين المطبخ وغرفة المعيشة جيئة وذهاباً تضع أطباق العشاء على المائدة، وكان والداها يجلسان وسحابة من السّكينة تظلّلهما وهما يشاهدان التّلفاز.

افترّ ثغر نعيمة عن بسمة عذبة كالماء الرّقراق وهي تضع طبقاً على المائدة وتجلس وهي تقول:

- ألذّ عشاء لأجمل والدين في الكون.

نظر والداها إلى بعضهما في الآن ذاته نظرة ذات معنى وقد تألّقت في وجهيهما ابتسامة صافية تحمل في طيّاتها كلّ معاني الامتنان والرّضى، تحلّق الثلاثة حول المائدة وقد افترشوا الطّمأنينة، وحفّتهم السّكينة، وغشيتهم الدّعة، وتهاطلت عليهم أمطار السّعادة رحيمةً وحنونة.

من يعرف هذه الأسرة عن قرب ما كان ليصدّق أبداً أنّ السّعادة قد تطرق بابها يوماً مجدّداً بعد أن هجرتها لأكثر من عقد من الزّمن. ولكنّ اللّه الّذي خلق النّهار واللّيل، والشّروق والغروب، والشّمس والقمر ليخبر الإنسان أنّ دوام الحال من المحال، خلق أيضاً السّعادة والحزن، فلا سعادة تدوم ولا حزن يدوم إنّما هي أيّام يُداولها ربّ الأيّام بين النّاس.

وضع عمر لقمة في فمه وشرع يلوكها على مهل وهو يومئ برأسه دلالة الإعجاب.

مال على زوجته في حنوّ وهو يقول بعدما ابتلع لقمته وهو يتلمّظ في تلذّذ:

- يا اللّه ما ألذّ هذا الطّعام! سلمت يداك يا مليكة.

تهلّل وجه مليكة فرحاً ونظرت ناحية ابنتها في زهو وهي تقول:

- بل سلمت يدا نعيمة. فهي الّتي أعدّت العشاء.

أشرق وجه نعيمة وضمّت كفّ أمّها في كفّيها وطبعت على جبهتها قبلة في حبّ ظاهر وهي تقول:

- سلمتِ لنا يا أمّي. أنت الخير والبركة ونحن بدونك لا نساوي شيئاً.

كادت الدّموع تفرّ من عينَي الأمّ لولا أنّها حبستها بعد جهد جهيد وتجاسر شديد حتّى لا تنقلب السّعادة حزناً والفرح غمّاً.

صاح الأب بنبرة تشي بالحبور:

- حفظكما اللّه ورعاكما ومتّعكما بالصّحّة والعافية. وأدام علينا الأفراح والمسرّات.

تمتمت الأمّ:

- آمين.

ساد الصّمت بعدها غرفة المعيشة فلم يُسمع غير صوت اصطكاك الأسنان وهي تلوك الطّعام، تناول الأب جهاز التّحكّم عن بعد وصوّبه ناحية التّلفاز ليرفع من صوته لعلّه يمزّق صمت الغرفة، وكان التّلفاز حينذاك يعرض، في ملل، مقاطع إشهارية لمجموعة من المواد والمنتجات.

ظهرت على الشّاشة، وبدون سابق إنذار، فقرة «نداء»؛ وهي فقرة من البرنامج الشّهير «مختفون»، البرنامج الّذي يعمل على لمّ شتات الأسر،

والّـذي أعـاد العديـد مـن المختفـين إلى أحضـان ذويهـم بعـد سـنوات مـن الاختفـاء والغيـاب، وكانـت هـذه الفقـرة تُبَـثّ بـين الوصـلات الإشـهارية.

ظهـرت في جانـب الشّاشـة الأيمـن امـرأة تلتحـف بالـزّيّ الصحـراوي وعـلى وجههـا الحنطـي علامـات الأسى، وفي جانـب الشّاشـة الأيـسر ظهـرت صـورة فوتوغرافيـة لطفـل في الثّالثـة عـشرة مـن عمـره تقريبـاً. وكان تحـت صورتـه اسـمه ورقـم للهاتـف.

تكلّمـت المـرأة بلكنـة صحراويـة يقطـر منهـا الحزن وتـشي بحجـم الفجيعة الّتـي تجثـم عـلى صدرها:

- «اسـمي زهـراء سـهيل مـن مدينـة العيـون، أبحـث عـن ابنـي مصطفـى الفاطمـي الّـذي اختفـى منـذ حـوالي سـنتين في ظـروف غامضـة بعـد أن خـرج ذات صبـاح مـن المنـزل ولم يعـد إليـه. ومنـذ ذلـك اليـوم فقدنـا كلّ أثـر لـه. والآن أطلـب منـك يـا بنـيّ إن كنـت تشـاهدني وتسـمع نـدائي أن تعـود إليّ وإلى إخوتـك فنحـن جميعـاً في أمـسّ الحاجـة إليـك، كـما أطلـب مـن كلّ مـن يعـرف عنـه أيّ معلومـة مـن المشـاهدين الكـرام أن يتّصـل برقمـي الواضـح عـلى الشّاشـة أو يتّصـل برقـم القنـاة».

أطرقـت نعيمـة في وجـوم بينـما كان الأب يعبـث بأصابعـه المرتجفـة في أزرار جهـاز التّحكّـم عـن بعـد محـاولاً تغيـير القنـاة، ولمّـا نجـح أخـيرا في ذلـك بعـد أن اسـتعصى عليـه الأمـر لثـوانٍ مـرّت ثقيلـة كسـنوات، كان الأوان قـد فـات، فمليكـة كانـت قـد دخلـت في انتحـاب مريـر يقطـع أنيـاط القلـوب، دفنـت وجههـا بـين كفّيهـا وأطلقـت العنـان لشـلاّل مـن الدّمـوع الحـارّة لتسـيل بغـزارة عـلى خدّيهـا...

تبـادل الأب وابنتـه نظـرات حـيرى حبـلى باللّـوم والألم والعجـز الفظيـع، ألقـت نعيمـة بخدّهـا في حضـن أمّهـا وراحـت تهتـزّ عـلى إيقـاع النّشـيج.

ضرب الأب كفّاً بكف، ونهض وغادر على بساط الحزن وهو يحوقل في حسرة ظاهرة.

هكذا هي السّعادة، يكابد المرء المشاقّ من أجل الإمساك بها، وفي لمح البصر تنساب من بين أصابعه انسياب الماء في الوديان مخلّفة وراءها خيبة بطعم العلقم.

لو كان للأمراض سوق لقصدته مليكة دون تردّد لتبتاع منه مرض الزهايمر حتّى تفقد ذاكرةً تأبى إلاّ أن تكدّر عليها صفو هنائها، فهي أصبحت تشعر أنّها في حاجة ماسّة لعيش كلّ لحظة من حياتها وتحصينها منيعاً ضدّ الهجمات الشّرسة المباغتة لذكرياتها المفجعة.

النّقمة أحيانا قد تتزيّن حتّى تظهر في هيئة نعمة، والنّعمة أحيانا قد تستعير أسمالاً بالية تتنكّر فيها لتبدوَ في مظهر نقمة.

لطالما لعنت مليكة في سرّها ذاكرتها الّتي لا تتوانى في تنغيص حياتها كلّما سنحت لها الفرصة، فرغم أنّها كانت خير من يعرف أنّ للسعادة طعماً لا يخبره إلاّ من اغترف منها بعد عطش أو من صام عنها بعد شبع، إلاّ أنّه ربّما قد فاتها أنّ الإنسان لا يعدو أن يكون إلاّ كصدفة ملقاة على شاطئ البحر، ينحسر الماء فتغمره الشّمس بسعادة ضافية، ولكن سرعان ما تجرفه أمواج الشقاء من جديد.

وبين مدّ وجزر، تعيث الذّكريات فساداً في حياة مليكة الملقاة على شاطئ الحياة كصدفة مهينة.

قبل ثلاثين سنة، وفي ريعان شبابها، كانت مليكة ترقص ببراعة متناهية على إيقاع ألحان الحياة الشّجيّة، وكانت السّعادة تغازلها بكلّ ما قيل في الحبّ من الشّعر والنّثر، وصارت تداعبها أروع ممّا داعب حبيب حبيبته على مرّ العصور، وماذا بعد المغازلة والمداعبة سوى الزّواج؟ لذلك وجدت نفسها تتهيّأ لزواج كاثوليكي مع سعادة أبديّة.

لم يكـن القـدر ليخلـفَ موعـده المحفـوف بالسّـعادة مـع مليكة وهـو الّذي لم يتجـرّأ عـلى ذلـك مـن قبـل، لذلـك أرسـل لهـا زوجـاً غمرهـا بحبّـه حتّـى جعلهـا تشـعر أنّهـا تعيـش معـه في الجنّـة الّتـي وعـد اللّـه عبـاده المتّقـين. كادت أن تكفـر بالجنّـة الأخـرى وهـي تتمـرّغ في نعيـم جنّتهـا الدّنيويـة.

إنّ بعض السّعادة كفر...

لم يكـن عمـر غنيّـاً ولا فقـيراً، فقـد كان سـائق طاكـسي صغـير يكسـب قـوت يومـه بعـد سـاعات مـن العمـل المضنـي، لم يكـن جذّابـاً ولا قبيحـاً، فقـد كان رجـلا عربيّـاً يختـزن كلّ أسرار الرّجولـة، لم تكـن فيـه خصلـة تميّـزه عـن غـيره مـن الرّجـال أكـثر مـن حبّـه الجـارف لمليكـة، وهـذا بالضّبـط مـا جعلهـا تواصـل رقصهـا البـارع عـلى ألحـان الحيـاة الشّـجيّة عكـس العديـد مـن الزّوجـات اللّـواتي يتعـثّرن في رقصهـنّ بعـد الـزّواج ليسـقطن في جـبّ مظلـم مـن التّعاسـة لا عهـد لهـنّ بـه.

عندمـا علمـت مليكـة أنّهـا حبـلى، رفرفـت مـن فـرط سـعادتها بـلا أجنحـة، وبعدمـا فتحـت عينيهـا بعـد الـولادة ورأت وليدهـا بجانبهـا تخـدّرت أوصالهـا عـلى إثـر النّشـوة الّتـي سرت فيهـا، وعندمـا...

الإنسان لا يولد إلاّ ليموت، والسّعادة لا تأتي إلاّ لترحل.

وعندمـا فتحـت مليكـة عينيهـا فجـر اليـوم الثّـاني لولادتهـا في المستشـفى ولم تجـد وليدهـا بجانبهـا، علمـت أنّ دوام الحـال مـن المحـال، وأيقنـت أنّ السّـعادة شـقّت عصـا الطّاعـة عنهـا، وشرعـت تهيّـئ نفسـها لعـذاب جهنّـم بعدمـا ألفـت نعيـم الجنّـة.

ولولـت وانتحبـت، هاجـت وماجـت، قرّعـت ووبّخـت، لطمـت وندبـت، ضربـت ورفسـت، ثـمّ انهـارت مثـل جبـل جليـد...

عندمـا اسـتفاقت مـن إغماءتهـا، وجـدت فـوق رأسـها جيشـاً مـن النّـاس

ينظـرون إليهـا في رثـاء. نظـرت إلى زوجهـا في اسـتجداء ذي معنـى، ولكنّـه نكّس رأسـه في حـداد. جُـنّ جنونهـا وهـي تطلـب تفسـيراً لمـا حـدث، ولكنّهـا لم تعـرف أكـثر مـن كـون ممرّضـة اختفـت مـن المستشـفى بالتّزامـن مـع اختفـاء وليدهـا مـمّا لم يـدع مجـالاً للشّـكّ في كونهـا هـي الظالعـة في اختطافـه.

لكلّ شيء بداية، وبداية أحزان مليكة تبدأ من هنا...

انقلبـت حياتهـا رأسـاً عـلى عقـب، مـن قمّـة السّـعادة إلى قمّـة التّعاسـة، مـن الفـردوس الأعـلى إلى الـدّرك الأسـفل، ولأوّل مـرّة علمـت أنّ الجنّـة لا توجد هنـا عـلى الأرض، بـل هنـاك بعيـداً في العـالم الآخـر. العـالم الّـذي أصبحـت تتـوق إليـه لعلّهـا تحتضـن ولدهـا فيـه بعيـداً عـن نظـر ممرّضـة لا ترحـم.

إنّ بعض الحزن إيمان...

لم يـترك عمـر عمـلاً صغـيرا ولا كبـيرا إلاّ قـام بـه أمـلاً في العثـور عـلى ابنـه المختطـف: جـاب شـوارع المدينـة وأزقّتهـا ودروبهـا يتفحّـص في الوجـوه ويسـترق السّـمع ويسـتقصي مـن يعـرف ومـن لا يعـرف عـن امـرأة بدينـة تُدعـى فتيحـة في الأربعينـات مـن عمرهـا كانـت تشـتغل ممرّضة في المستشـفى قبـل أن تتركـه، سـأل عـن كلّ البيـوت الّتـي أُقيمـت فيهـا عقائـق في تلـك الفترة أو تلـك الّتـي ظهـر فيهـا مولـود جديـد. سـافر إلى مـدن عديـدة يبحـث فيهـا عـن فتيحـة كمـن يبحـث عـن خاتـم في صحـراء شاسـعة، نـشر إعلانـات في أكـثر مـن جريـدة، ولكنّـه لم يجـنِ مـن وراء ذلـك كلّـه أكـثر مـن تعاطـف النّـاس وأنهـار مـن دمـوع زوجتـه.

صامـت مليكـة عـن كلّ مباهـج الحيـاة، وفتحـت حضنهـا للهـمّ كي يرضـع مـن شـبابها حتّـى أفلـت وذوى عودهـا حتّـى بـدت كعجـوز عـلى حافّـة المـوت، في حـين انشـغل عمـر بزوجتـه عـمّا عداهـا حتّـى أنّـه لم يجـد وقتـاً كافيـاً للحـزن.

ولأنّ لـكلّ مجتهـد نصيـب، فقـد نجـح الـزّوج بعـض النّجـاح في أن يفتـح شـهيّة زوجتـه للحيـاة مـن جديـد بعـد أن أقنعهـا بالتّدريـج وعـلى مـدى ثـلاث سـنوات بـضرورة الإيمـان بقضـاء اللّـه وقـدره، وأنّ الصـبر مفتـاح الفـرج، وأنّ الصّابريـن يُوفَّـون أجورهـم بغـير حسـاب، وأنّ اللّـه الّـذي أخـذ منهـما ابنهـما لحكمـة يعرفهـا ويجهلانهـا قـادر عـلى أن يرزقهـما غـيره.

لولا الأمل لما انزاح الألم.

عـاش الزّوجـان عـلى أمـل الإنجـاب ثانيـة وكرّسـا كلّ طاقاتهـما لذلـك حتّى أضحـى ذلـك هدفهـما الأسـمى في الحيـاة، ومـرّت سـنة، فسـنتان، فثـلاث دون أن تحبـل مليكـة وكأنّ رحمهـا لا يـزال في موسـم الحـداد، وكان لابـدّ للوسـاوس والهواجـس أن تـشرع في النّهـش مـن شـهيّتها الفتيّـة في الحيـاة، لذلـك كان لزامـاً عـلى عمـر أن يبـادر للاسـتنجاد بطبيـبٍ للنّسـاء والتّوليـد والّـذي أخبرهـما بعـد تشـخيص دقيـق أنّ حالتهـا طبيعيـة جـدّاً وأن ليـس هنـاك أيّ مانـع عضـويّ يمنعهـا مـن الحمـل، عـاد لهـا الأمـل مـن جديـد وبـدأت تعـدّ الأيّـام وعينهـا عـلى بطنهـا لعلّهـا تلمـح انتفاخـاً يجلـب لهـا البـشرى والسّـلوى، بقيـت عـلى هـذه الحـال سـنتين دون أن تظهـر عليهـا أيّ علامـات للحمـل، لذلـك هبّـت لزيـارة طبيـب آخـر قلـن لهـا أنّـه مشـهود لـه بالكفـاءة. ولكـنّ تشـخيصه كان كتشـخيص سـابقه غـير أنّـه أضـاف أنّ المشـكل يمكـن أن يكـون نفسـيّاً، لم يعـر الزّوجـان كلام الطّبيـب أدنى اهتـمام وخرجـا مـن عيادتـه ليتوهـا لخمـس سـنوات في دروب العطّاريـن والعشّـابين والمشـعوذين والدّجّالـين، وكانـت دائمـا مسـاعيهما تخيـب بعـد أن كان قلباهـما يطفحـان بالأمـل، استسـلم الزّوجـان ليـأس قاتـل وشـعرا بعجـز فظيـع يحاصرهـما مـن كلّ جانـب، فشرعـت حالـة مليكـة تسـوء مـن جديـد بعـد أن رزحـت تحـت ثقـل إحبـاط مريـع حتّـى أنّ عمـر لم ينجـح إلاّ بشـق الأنفـس في إقناعهـا بزيـارة الطّبيـب النّفسي لعلّـه

يكـون هـو الملاذ الأخير مـع أنّـه هـو نفسـه غـير مقتنـع بجـدواه.

وبعـد خمـس جلسـات مـع الطّبيـب النّفـسي امتـدت عـلى مـدى حـوالي سـنة، حبلـت مليكـة لتضـع بعدهـا بنتـاً جميلـة أسـمتها نعيمـة. وكانـت نعيمـة هـي النّعمـة الجليلـة الّتـي أرسـلها اللّـه لهذيـن الزّوجـين لـكي تبعـث فيهـما الرّغبـة في الحيـاة بعدمـا كانـا عـلى شـفا حفـرة مـن الهـلاك.

عـاش بعدهـا أفـراد الأسرة في سـعادة لا يكـدّر صفوهـا سـوى حـزن الأمّ الّتـي تنهـار كلّـما حـدث مـا يذكّرهـا بابنهـا المفقـود ويقلّـب عليهـا المواجـع كـما حـدث هـذا اليـوم...

حـرّرت نعيمـة وجههـا مـن حضـن أمّهـا. تفرّسـت في وجههـا فـإذا هـو كالـح كأنّ قلبهـا يضـخّ الحـزن بـدل الدّمـاء.

قالت وهي تحاول أن تطفئ دموعها بابتسامة مصطنعة:

- ما رأيك يا أمّي أن نتّصل ببرنامج «مختفون»؟

قالت الأم بصوت مجروح:

- لا فائدة يا ابنتي. إحساسي...

قاطعتهـا نعيمـة وهـي تضـع راحتهـا عـلى فمهـا كي تمنعهـا مـن إتمـام كلامهـا وهـي تقـول:

- أرجـوك يـا أمّـي لا تعـودي لقـول هـذا الـكلام. مـا دامـت قلوبنـا تنبـض بالحيـاة فلنـدع الأمـل حيّـاً في دواخلنـا، مـن يـدري فقـد يعـود أخـي يومـاً، ليـس هـو الأوّل ولـن يكـون الأخير الّـذي يظهـر بعـد طـول غيـاب.

قالت الأمّ بحرقة:

- قلبـي ملفـوح بنـار لـن يخمـد أوارهـا إلاّ بعـودة ابنـي أو بالبـكاء عـلى قـبره حتّـى أسـتنفد كلّ الحـزن المتراكـم بداخـلي. لـن أسـتمرئ للسّـعادة طعـماً مـا لم أعـرف مصـيره، قـد أوهـم نفـسي بالفـرح أحيانـاً، ولكـنّ بـركان الحـزن

الخامد بداخلي متأهّب للانفجار في أيّ لحظة، أيّة حياة تلك الّتي أعيشها يا ابنتي! أيّة حياة تلك الّتي تعيشها أمّ فقدت قطعة من كبدها! أيّة حياة! أيّة حياة!...

شعرت نعيمة شعور من يحاول إخماد حريق مستعر في مخزن بنزين. كيف سمحت لنفسها بمواساة أمّ تحمل في قلبها حزناً لو وُزِّعَ على سعداء العالم لأصابهم جميعا بالكآبة!

زمّت شفتيها في يأس، وربّتت على كتف أمّها، ثمّ قبّلت جبينها قبل أن تنسحب إلى غرفتها في صمت.

(١٢)
شبع وجوع

في هـذه القريـة الموحشـة يتوقّـف كلّ شيء عـن الحركـة: تتوقّـف عقـارب السّـاعات عـن الـدّوران، يتوقّـف قلـب الحيـاة عـن النّبـض، وتتوقّـف الدّمـاء عـن السّريـان في أوردة الزّمـان، وحدهـا الشّـمس في صفحـة السّـماء كانـت تتحـرّك في ملـل وهـي تخـرج مـن مخبئهـا وكأنّ قـوّة قاهـرة تدفعهـا رغـما عنهـا.

لو كانت الشّمس سيّدة قرارها لعمهت هذه القرية في ظلام أبديّ...

تجنّـدت الطّبيعـة بـكلّ قواهـا منـذ بـدء الخليقـة مـن أجـل إحـكام الطّوق حـول القريـة، فالجبـال الشّـاهقة تقـف شـامخة عـلى أعتابهـا من جهـة كحرّاس غـلاظ شـداد، ومـن جهـة أخـرى يحفّهـا الـوادي السّـحيق كأخـدود متأهّـب لابتـلاع كلّ مـن يقـترب منهـا.

إنّ للقدر أحكامه الأبديّة الّتي يعجز الإنسان عن مخالفتها...

الزّمـان يعيـد نفسـه باسـتمرار، فبعـد كلّ ليلـة حبـلى بالظّـلام، وبعـد مخـاض سـاعات، يخـرج مـن رحمهـا صبـح جديـد يمـزّق السّـكون بصرختـه المدوّيـة الّتـي تـؤذن بيـوم مختلـف عـن سـابقه. ولكـن في هـذه القريـة، فهـذا الصّبـاح لا يختلـف عـن غيره مـن الصّباحـات، فالسّـكون يخنقهـا كـما يخنـق مـارد ضخـم قزمـاً مهينـاً.

النّساء تائهات في الحقول يقمن بأعمال الرّجال والنّساء على حدّ السّواء، ومن تبقّى حبيساً في القرية كرهاً من الرّجال فهم من الشّيوخ والمرضى الّذين انعدمت منهم الجدوى، كلّ واحد منهم أضحى كاللّبون لا ظهر له فيُركب ولا ضرع له فيُحلب.

في غمرة هذا السّكون توقّفت سيّارتان. سيّارة فارهة سوداء رباعية الدّفع، وسيّارة نقل بضائع محمّلة بمختلف أنواع الأثاث المنزليّ، ترجّلت حنان أوّلاً من السّيّارة الفارهة وهي تتمطّى في تكاسل، ثمّ تبعتها أمّها فأبوها بعد ذلك، ومن السّيّارة الأخرى ترجّل السّائق وهو رجل أربعيني ثمّ حذا حذوه الشّاب العشريني الّذي كان يجلس بجانبه.

كانت حنان تجيل بصرها في كلّ الاتّجاهات بعد أن بدأت تستعيد نشاطها شيئاً فشيئاً، في حين كان الأب يصلح من هندامه، أمّا الأمّ فقد كانت منهمكة في الشّرب من قنينة مياه معدنيّة.

قال عزيز وهو ينفض بذلته الأنيقة من غبار لا أثر له إلاّ في مخيّلته:

- يجب أن نذهب إلى المنزل كي نُرِيَ العاملين الطّريق.

هتفت حنان في حماس:

- هيّا بنا إذن، فلا وقت لدينا نهدره، سيكون يومنا شاقّاً وطويلاً.

أومأت سعاد برأسها وهي تبتسم موافقة دون أن تعلّق.

صاح عزيز موجّها كلامه للشّاب:

- هيّا اتبعنا يا مصطفى، ستذهب معنا لكي ترى المنزل ثمّ تعود بعد ذلك.

هزّ الشّابّ رأسه في تفهّم.

واصل عزيز ولكن هذه المرّة موجّها كلامه للسّائق:

- أمّا أنت يا أحمد فيجب أن تبقى هنا لحراسة السّيّارتين والأثاث إلى أن يعود مصطفى.

أومأ أحمد برأسه علامة الموافقة وهو يغمغم:

- حسنا.

قال الأب معزّزاً كلامه بإشارة من يده:

- هيّا بنا إذن.

وانطلق الأربعة في اتّجاه المنزل.

فتحت حنان باب المنزل ودخلت، وتبعها والداها في حين بقي مصطفى على الباب في انتظار الأوامر.

بادرت حنان لفتح نافذة الغرفة في رشاقة وهي تقول:

- المنزل يحتاج إلى كنس وتنظيف قبل أن نرتّب كلّ شيء في مكانه.

قالت سعاد موافقة:

- نعم نعم بالطّبع، نحتاج من يساعدنا في ذلك.

قال عزيز وهو يهرش رأسه بأصابعه في تفكير:

- إذن...يجب أن يوضع الأثاث خارج المنزل إلى أن تنتهي أعمال التّنظيف.

- تماماً يا أبي، أقترح أن نضعه في السّاحة الفارغة في مدخل المستوصف حتّى يكون في منأى عن أعين الفضوليين.

قالتها حنان وهي تخرج في اتّجاه الغرفة الأخرى.

تبعها والداها في حركة آلية، فتحت النّافذة واتّجهت نحو المطبخ لتفتح نافذته أيضاً.

وهو يخرج من الغرفة متعقّبا ابنته، تذكّر عزيز أنّ مصطفى لازال ينتظر في حديقة البيت، خرج ليجده متسمّرا في مكانه.

قال له:

- اذهب الآن وأحضر الأثاث أنت وأحمد، ولكن عليكما توخّي أقصى درجات الحذر فالطّريق كما رأيت وعرة جدّاً.

أومـأ مصطفـى برأسـه موافقـاً ثـمّ مـشى بضـع خطـوات قبـل أن يعـود ليصيـح:

- سيّد عزيز. سيّد عزيز.

خرج عزيز وهو يرفع حاجبيه مستفهما وهو يقول:

- ما الأمر؟

أجاب مصطفى:

- يلزمنا من يحرس السّيّارتين والأثاث إذا جئت أنا وأحمد إلى هنا.

قـال عزيـز بصـوت مرتبـك وهـو يحـدّق في شـخص قـادم مـن بعيـد في اتّجـاه البيـت:

- اه...نعم نعم...الأثاث. اذهب...انتظر...

تساءل مصطفى في استغراب:

- سيّدي، هل أذهب أم أنتظر؟

قال عزيز وهو يبتسم ابتسامة لم يفهم لها مصطفى معنى:

- إنّـه الشّـيخ محـمّاد. صـدق مـن قـال أنّ السّـلطة لهـا أعـين لا تنـام، عـلى العمـوم لقـد جـاء في وقتـه،

فتح عزيز حضنه للشّيخ محمّاد الّذي عانقه بحرارة.

قـال الشّـيخ محـمّاد بلهجـة معاتبـة ورأسـه مدفـون في حضـن عزيـز ويـداه تربّتـان عـلى كتفيه:

- ألم يكـن حريّـاً بـك أن تطـرق بـابي أوّلا؟! أم أنّـك تظـنّ أنّنـا لا نحسـن إكـرام الضّيـوف؟!

أجاب عزيز وهو يحرّر الشّيخ محمّاد من حضنه ويحدّق فيه مبتسما:

- حاشـا للّـه يـا رجـل، مـا هـذا الـكلام الّـذي تقولـه، أنـت الكريـم ابـن الكريـم.

نفش الشّيخ محمّاد ريشه بعد أن أرضى عزيز غروره بإطرائه وقال:

- عندما بلغ إلى علمي خبر وصولكم خشيت أن يسبقني سي الحسين أو الحاجّ عبد اللّه لاستضافتكم.

عقد عزيز حاجبيه في شكّ وكاد أن يسأله عن هذين الرّجلين اللّذين لا يكفّ عن إقحامهما في أيّ موضوع بمناسبة أومن دونها، ولكنّه أحجم.

قال عزيز عوض ذلك:

- لدينا أعمال كثيرة اليوم، فالأثاث لا يزال في السّيارة، والمنزل في حاجة إلى تنظيف، و...

قاطعه الشّيخ محمّاد وهو يهتف:

- عيب، أنتم ضيوفنا، لا تُجشّموا أنفسكم ما لا طاقة لكم به، أنا سأتدبّر كلّ شيء.

تابع الشّيخ محمّاد كلامه:

- سأذهب الآن للبحث عمّن ينقل الأثاث ومن تنظّف المنزل.

قال عزيز وهو يشير إلى مصطفى:

- بالنّسبة للأثاث سيتولّى مصطفى نقله بمساعدة السّائق أحمد، نحتاج فقط من يحرس السّيّارتين والأثاث في غيابهما.

قال الشّيخ محمّاد وهو يهمّ بالمغادرة:

- الحراسة هناك من يقوم بها، سأعود حالاً.

ثمّ استدار فجأة ليقول مؤكّداً:

- انتظروني وإيّاكم أن تذهبوا في ضيافة سي الحسين أو الحاجّ عبد اللّه.

ثمّ هرول مغادراً تاركاً عزيز يلعن في قرارة نفسه رجلين كرههما قبل حتّى أن يقابلهما أو يعرف عنهما أيّ شيء.

دخل عزيز تاركاً مصطفى في الحديقة.

بادرته سعاد بالسّؤال:

- مع من كنت تتحدّث كلّ هذا الوقت؟

أجاب في ضيق:

- الشّيخ محمّاد، هل تذكرينه؟

أجابت وهي تبتسم:

- آه طبعاً، وهل مثله يُنسى؟ إنّه رجل غريب: كريم، ثرثار، ولديه حلّ لكلّ مشكلة.

قال عزيز وهو يبتسم هو الآخر:

- آه فعلا لا يمكنك أن تنسي الدّجاجة طبعاً.

واصل في جدّيّة هذه المرّة:

- بالمناسبة لقد عرض عليّ المساعدة، لقد ذهب للتّوّ لإحضار من تتولّى تنظيف المنزل.

قالت سعاد:

- حسنا، جازاه اللّه خيراً على كلّ حال.

قهقه عزيز حتّى دمعت عيناه ممّا أثار استغراب سعاد وجعل حنان تُقبل مهرولة وهي تبتسم في دهشة.

قبل أن تسأله إحداهنّ، قال عزيز بصوت متهدّج من شدّة الضّحك وهو يشير بسبّابته:

- إيّاكم ثمّ إيّاكم أن تذهبوا...أن تذهبوا...في ضيافة سي الحسين أو الحاجّ عبد اللّه.

زفرت حنان في ضيق مصطنع وهي تقول:

- هذان الرّجلان مرّة أخرى.

واصلت بالفرنسية وهي تضغط على الحروف:

- هذا أمر لا يُصدَّق.

قالت سعاد مازحة:

- يبـدو أنّ أوّل مهمّـة مناطـة بـك في هـذه القريـة هـي تحـرّي حقيقـة هذيـن الرّجلـين، لابـدّ أنّ وراءهـما قصّـة عجيبـة.

- ما لهذا جئت يا أمّي.

استطردت وهي تغمز أمّها بعينها:

- على العموم إذا عرفتُ شيئاً ستكونين أوّل من يعلم به.

واصلت بالفرنسية:

- لا تقلقي يا حبيبتي.

وانخرط الثّلاثة في موجة ضحك.

تناهى إلى مسامعهم صوت الشّيخ محمّاد وهو ينادي:

- السّي عزيز. السّي عزيز.

خرجـوا جميعـا ليجـدوه قـرب البـاب وبجانبـه شـابّتان تحمـل كلّ واحـدة منهـما سـطلاً في يـد وأدوات تنظيـف في أخـرى.

صافح الشّيخ محمّاد حنان وأمّها في حفاوة وقال للشّابّتين بلهجة آمرة:

- وأنتما ماذا تنتظران؟! ادخلا واشرعا في العمل حالاً.

كانـت الشّـابّتان مطرقتـين وهـما تهـمّان بالدّخـول عندمـا اسـتوقفتهما حنـان وهـي تقـول للشّـيخ محـمّاد:

- ولكنّهما صغيرتان ولا تقدران على عمل شاقّ مثل هذا.

ضحـك الشّـيخ محـمّاد مـلء فيـه ثـمّ قـال ونظـرات الاسـتغراب مسـلّطة عليـه:

- صغيرتان؟! إنّهما امرأتان متزوّجتان وكلّ منهما لها أبناء.

كانت الدّهشة قد عقدت لسان حنان فلم تستطع قول أكثر من:

- ماذا؟!

أجاب الشّيخ محمّاد وهو يدفع بكلتا يديه الشّابّتين نحو الدّاخل:

- كما قلت لك يا دكتورة، إنهّما امرأتان قادرتان على زحزحة جبل من مكانه، هيّا ادخلا واشرعا في العمل فوراً.

انصاعت الشّابّتان لأمر الشّيخ محمّاد ودخلتا المنزل، بينما كانت حنان تنظر إلى أمّها مذهولة وفي عينيها نظرات استغاثة.

تمتمت سعاد وهي تمطّ شفتيها وترفع حاجبيها وتحرّك رأسها:

- غريب حقّا.

قال الشّيخ محمّاد في ثقة:

- والآن دعوا المرأتين تقومان بعملهما وتعالوا معي لنتناول الفطور في بيتي .

تبادل الثّلاثة نظرات حائرة دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة.

استدرك الشّيخ محمّاد:

- آه نسيت، لقد كلّفت أحدهم بحراسة السّيّارتين والأثاث، لا تقلق بشأنهم سي عزيز، يمكنكم الآن نقل الأثاث بأريحيّة.

نظر عزيز ناحية مصطفى الّذي كان يراقب الموقف عن كثب وقال له:

- هيّا يا مصطفى، يمكنك الآن الذّهاب لمساعدة أحمد في نقل الأثاث، خذا حذركما وضعاه في حديقة المستوصف، سأفتح لكما الباب، تعالوا.

خرج الجميع من حديقة المنزل واتّجهوا صوب البوّابة الرّئيسية للمستوصف.

فتح عزيز البوّابة وأشار بيده وهو يقول لمصطفى:

- ضعوه هناك. قرب ذلك الجدار وعلى تلك الأرضية المبلّطة، وحبّذا لو نظّفتم المكان أوّلا.

قال مصطفى:

- اطمئن، سيكون كلّ شيء كما تحبّون.

هتف الشّيخ محمّاد في إصرار:

- والآن هيّا بنا.

ومشى الجميع خلفه في تسليم...

عندما ولجوا البيت، استقبلتهم زوجة الشّيخ محمّاد بحفاوة كبيرة دون أن تستطيع إخفاء ارتباكها الشّديد.

صاح فيها زوجها بنبرة آمرة:

- هيّا يا امرأة، عجّلي بإعداد وجبة الفطور على شرف الضّيوف الكرام.

هرولت فاضمة إلى المطبخ في انصياع تامّ دون أن تنبس بحرف، في حين كان زوجها يتمتم في غيظ:

- النّساء لا يأتي من ورائهنّ إلاّ الشّرّ.

وعندما نظر حذو قدمه ولمح ابنته تتطلّع إليه في إشفاق وتشدّ ثوب جلبابه في إلحاح، نهرها في قسوة وهو يخلّص ثوبه من كفّها الصّغير:

- هيّا اغربي عن وجهي، اذهبي إلى أيّ مكان وإيّاكِ أن تقربي المسجد.

وانطلقت الصّغيرة تعدو بسرعة إلى خارج البيت بقدمين حافيتين مثل أرنب برّيّ.

كان الضّيوف يراقبون المشهد مبهوتين وأسئلة كثيرة تتفرّع في أذهانهم كأغصان شجرة عملاقة حول سرّ هذا السّلوك الفظّ الّذي بدر من الشّيخ محمّاد في حقّ زوجته وابنته على مرأى ومسمع منهم دون أدنى اكتراث منه .

وفي تحـوّل مفاجـئ مـن النّقيـض إلى النّقيـض، رسـم عـلى وجهـه ملامـح الوداعـة وهـو يقـول بلطـف:

- تفضّلـوا بالدّخـول إلى الغرفـة، اعتـبروا أنفسـكم أهـل البيـت، مرحبـاً مرحبـاً بالدّكتـورة ووالديهـا.

دخلـوا إلى الغرفـة يتعـثّرون في دهشـتهم، بينـما هـرول الشّـيخ محـمّاد إلى المطبـخ ليـشرف بنفسـه عـلى مراسـيم إكـرام ضيوفـه.

بعدمـا تناولـوا فطورهـم، عـادوا أدراجهـم إلى المسـتوصف حيـث وجـدوا مصطفـى وأحمـد منهمكـين في نقـل الأثـاث، ثـمّ دخلـوا المنـزل فوجـدوا الشّـابّتين قـد أنهتـا عملهـما.

نظـرت حنـان إلى أمّهـا في بهجـة وهـي تجيـل عينيهـا في المنـزل الّـذي بـدا في غايـة النّظافـة.

قالت وهي ترمق الشّابّتين بنظرة إعجاب:

- وااو. عمل رائع وفي ظرف وجيز.

أطرقت الشّابّتان في خجل ظاهر.

واصلت حنان بالفرنسية وهي تنظر إلى أمّها:

- مدهش فعلا.

أومأت الأمّ برأسها موافقة وهي تبتسم ابتسامة رضى.

قال الأب وهو يربّت على كتف ابنته في حنوّ:

- القرويّـات يـا ابنتـي يتمرّسـن عـلى الصّـبر والجلـد منـذ نعومـة أظفارهـنّ، يدمـنّ الأعـمال الشّـاقّة كـما يدمـن الرّضيـع ثـدي أمّـه، عـالم جديـد يـا ابنتـي يفتـح ذراعيـه لاحتضانـك، عـالم مختلـف تمامـاً عـمّا عشـته سـابقاً داخـل أو خـارج البـلاد، أتمنّـى أن تقـدري عـلى التّكيّـف سريعـاً مـع البيئـة الجديـدة.

قالت الأمّ بنبرة واثقة وكأنّها تحقن ابنتها بجرعات من الثّقة في النّفس:

- لا تخف على حنان يا عزيز، إنّها تحبّ عملها حدّ الجنون وستنجح بالتّأكيد.

هزّ عزيز رأسه دلالة الموافقة وهو يبتسم.

قال وهو ينقل بصره بين زوجته وابنته في حيرة:

- ماذا عنهما الآن؟ هل نصرفهما أم ماذا؟!

مطّت الأمّ شفتيها ورفعت حاجبيها في شكّ.

تكفّلت حنان بالجواب:

- أظنّ أنّنا سنحتاجهما بعد.

واصلت تسأل إحدى الشّابّتين برقّة وكأنّها تكلّم طفلة:

- ما اسمك؟

أجابت الشّابّة وهي مطرقة وقد تضرّج خدّاها بحمرة خجل:

- الضّاوية.

- كم عمرك؟

- خمس عشرة أو ستّ عشرة سنة.

همست حنان وكأنّها بصدد قول كلام تخشى أن يسمعه غيرها:

- أخبرنا الشّيخ محمّاد أنّك متزوّجة. هل هذا صحيح؟

امتقع وجه الضّاوية وقالت بصوت مجروح:

- نعم وعندي بنت صغيرة.

اكفهرّ وجه حنان فجأة وكأنّها كانت تتمنّى أن تسمع جواباً غير الّذي سمعته، ولكنّ أملها خاب.

زمّت شفتيها في حنق والتفتت ناحية الشّابّة الأخرى تسأل:

- وأنت ما اسمك؟

- عائشة.

- متزوّجة؟

- نعم.

- لديك أبناء؟

- نعم. اثنان.

اتّسعت عينا حنان دهشة وهي تحملق في والديها في بلادة، فقد كانت عائشة تبدو أصغر من الضّاوية. فكيف يكون لها طفلان وهي نفسها لا تزال طفلة بعد؟!

للتّوّ فقط بدأت تعي كلام والدها أنّ عالماً جديداً يفتح ذراعيه لاحتضانها.

تساءلت في سرّها: هل هي على أهبة الاستعداد لهذا العالم الجديد؟!

اللّه وحده يعلم ماذا يخبّئ لها القدر في هذا المكان الّذي أحبّته قبل حتّى أن تطأ ترابَه قدماها، فهل سيبادلها حبّا بحبّ؟ أم...؟

اجتاحتها موجة قلق عند هذا الخاطر وتمنّت أن تسير أمورها على خير ما يرام.

تناهى إلى مسامعهم طرق على الباب، خرج عزيز ليجد مصطفى يخبره أنّهما أنهيا نقل الأثاث من السّيّارة إلى حديقة المستوصف، دخل عزيز لينقل الخبر لزوجته وابنته قبل أن يتشمّر الجميع لما هو آت.

كان مصطفى وأحمد يذرعان المسافة بين حديقة المستوصف والمنزل جيئة وذهاباً وهما ينقلان الأثاث، وعزيز خلفهما تارة وأمامهما تارة أخرى يمدّهم بسيل من التّعليمات، بينما كانت سعاد وحنان والضّاوية وعائشة يرتّبن كلّ قطعة في مكانها ويضفين على المنزل لمسة أنثوية متأنّقة.

وبعد أكثر من ثلاث ساعات من العمل المضني، صار البيت في أبهى حلّة .

قال عزيز وهو ينفض يديه وبذلته:

- لقد أنهينا. بقي فقط أن نبحث عمّن يقوم بتركيب صوان الملابس والصّحن الهوائيّ وسخّان الماء.

في هذه الأثناء اخترق المنزل صوت الشّيخ محمّاد وهو يصيح بأعلى صوته:

- السّي عزيز، السّي عزيز.

تبادل عزيز وزوجته وابنته نظرات ذات معنى وابتسموا في الآن ذاته، كانوا يعلمون أنّ هذا الرّجل يحضر دائما في الوقت المناسب.

قالت حنان بصوت خافت مخافة أن يصل صوتها أبعد من والديها:

- يبدو أنّ دجاج الشّيخ محمّاد سيلعن اليوم الّذي وطئت فيه أقدامنا أرض هذه القرية.

ضحك الثّلاثة في مرح.

قال عزيز:

- هيّا بنا فصبر الشّيخ محمّاد قليل.

ثمّ همّ بالخروج قبل أن يتوقّف ويقول مستدركاً وهو يومئ برأسه في اتّجاه الشّابّتين الواقفتين في وقار:

- سعاد قومي معهما بالواجب.

لم يكن العالم الجديد الّذي يفتح ذراعيه لاحتضان حنان بذلك السّوء الّذي خمّنه أبوها، هذا على الأقلّ ما باحت به أساريرها الّتي انبسطت حينما لمحت عادل يدخل الغرفة حيث كانوا جلوساً في انتظار وجبة الغذاء، كان حضوره في هذا التّوقيت أشبه ما يكون بهديّة عيد ميلاد غير متوقّعة، لا تدري كيف بإمكانها ردّ الجميل للشّيخ محمّاد على هذه الهديّة بعدما أصرّ على دعوة عادل ليشاركهم طعام الغذاء. حمدت

اللّـه في سرّهـا لأنّ عليـاء غـير موجـودة وإلاّ احتاجـت جهـداً أكـبر مـن طاقتهـا لمـداراة لهفتهـا حتّـى تسـلم مـن تهكّماتهـا اللّاذعـة.

جلـس عـادل في احتشـام بعدمـا صافـح الجميـع، في حـين كان الشّـيخ محـمّاد واقفـاً في زهـو ولسـانه لا يكـفّ عـن النّطـق بعبـارات التّرحيـب، انسـحب بعدهـا لإحضـار الغـذاء مفسـحاً المجـال للغـة الأعـين لتسـيطر عـلى الغرفـة بـدل لغـة الألسـن.

تجرّأ عزيز بعدها على تمزيق الصّمت الّذي بدا ثقيلا:

- منذ متى وأنت تعمل في هذه القرية أستاذ عادل؟

رفع عادل بصره في اهتمام وأجاب:

- منذ حوالي تسع سنوات.

مطّ عزيز شفتيه ورفع حاجبيه وهزّ رأسه مستغرباً وهو يسأل:

- تسع سنوات؟! ولم تشعر بالملل طوال هذه المدّة؟!

ابتسم عادل في ثقة وقال موضّحاً:

- الملـل في قامـوسي مـرادف للفـراغ، أو لنقـل أنّ الملـل هـو نتيجـة مبـاشرة للفـراغ، وأنـا حاربـت الفـراغ فانقلـب الملـل خاسـئاً يتعـثّر في خيبـة مخزيـة.

كان واضحـا أنّ عـادل اسـتحوذ عـلى إعجـاب عزيـز كـما اسـتحوذ عـلى إعجـاب ابنتـه مـن قبـل.

كان عزيـز يهـمّ بالتّعقيـب حينـما دخـل الشّـيخ محـمّاد شـبه منحـنٍ يحمـل طاجينـاً بـين يديـه، وضـع الطّاجـين فـوق المائـدة ثـمّ اسـتدار عـلى عقبيـه خارجـاً وهـو لا يـزال يمطـر الضّيـوف بعبـارات التّرحيـب، سـاد الصّمـت مـن جديـد، مصطفـى وأحمـد منكمشـان في اسـتحياء. عزيـز وسـعاد جالسـان في وقـار. حنـان مسـتوية في جـذل، أمّـا عـادل فـكان قاعـدا في ارتبـاك.

دخـل الشّـيخ محـمّاد مـرّة أخـرى حامـلاً طبـق خبـز ومضفيـاً عـلى الغرفـة

صخباً كان الضّيـوف في أمـسّ الحاجـة إليـه ليُرفَـعَ عنهـم الحـرج، جلـس ودعاهـم للتّحلّـق حـول المائـدة.

صـاح في تفاخـر وهـو يرفـع الغطـاء عـن الطّاجـين الّـذي اندفعـت منـه في اتّجـاه السّـقف أبخـرة دخّـان حـارّة:

- تفضّلوا...بسـم اللّه...إنّهـا دجاجـة بلديّـة وليسـت مثـل الدّجـاج الأبيـض الّـذي تتناولونـه في المدينـة.

بذلـت حنـان جهـدا كبـيراً حتّـى لا تنفجـر ضاحكـة، ولكنّهـا رغـم ذلـك ضحكـت بعـد لَأْيٍ لتصيـب العـدوى الجميـع فتغـصّ الغرفـة بضحـك هسـتيريّ بعضهـم يعـرف لـه سـبباً والآخـرون يجهلـون.

بعـد الغـذاء، انتـاب حنـان شـعوران متناقضـان: شـعور بالشّـبع وشـعور بالجـوع، شـبع بعـد وجبـة دسـمة، وجـوع بعـد أن غـادر عـادل ولمّـا تشـحن بعـد مخزونهـا مـن حسـنه الّـذي يـأسر الألبـاب لـكي تجـترّه في غيابـه، سرت في جسـدها قشـعريرة لذيـذة وهـي تسـمع الشّـيخ محـمّاد يدعـوه لمـدّ يـد العـون لهـا في تركيـب صـوان الملابـس والصّحـن الهـوائيّ وسـخّان المـاء، ستراه غـدا إذن. ابتسـمت عنـد هـذا الخاطـر وهـي في عتبـة البـاب تهـمّ بالخـروج مـن منـزل الشّـيخ محـمّاد الّـذي أحسّـت أنّـه أغـدق عليهـا مـن هدايـاه مـن حيـث لا يـدري.

كانـت الشّـمس تتدحـرج في السّـماء ببطـء في اتّجـاه المغيـب. ركـب عزيـز سـيّارته بعـد أن ودّع زوجتـه وابنتـه وانطلـق في مسـيرة الإيـاب نحـو المدينـة تتبعـه سـيّارة نقـل البضائـع وعـلى متنهـا أحمـد ومصطفـى. كانـت سـعاد قـد حسـمت أمرهـا مـن قبـل بقضـاء الأيّـام الثّلاثـة الأولى صحبـة ابنتهـا، أصرّت عـلى مؤانسـتها حتّـى يطمـئنّ قلبهـا عليهـا، كانـت قـد رتّبـت جميـع أمورهـا حتّـى يسـير كلّ شيء عـلى مـا يـرام، وأوعـزت إلى زوجهـا في مهمّـة تقديـم

شهادة طبّيّة لمديرها في العمل تبرّر بها غيابها. وطلبت منه العودة بعد ثلاثة أيّام لاصطحابها بعد أن تكون سفينة حياة ابنتهما قد استقرّت بأمان في مرفئها الجديد.

عندما شرعتا تخطوان في اتّجاه البيت في إعياء، استرعى انتباههما ضيف غريب يفد على القرية، وقفتا تحدّقان فيه في فضول، كانت ثيابه مهملة وشعره مهوّشاً ولحيته كثّة، وكان يركب في استكانة على ظهر بغلة عجوز. رفعت حنان حاجبيها وهي تنظر إلى أمّها في تساؤل، مطّت الأمّ شفتيها وهزّت كتفيها دلالة عدم الاستيعاب، وواصلتا طريقهما...

(١٣)
زيارة أليمة

على الرّغم من كونه كان محشوراً وسط العشرات من القرويّين في سيّارة متهالكة أشبه ما تكون بحافلة متوسّطة الحجم خاصّة بنقل الأهالي من وإلى القرى الجبلية، وعلى الرّغم من أنّه بالكاد أسعفه الحظّ لإيجاد مقعد شاغر يتقاسمه مع شخص آخر على خلاف العديد من الرّكّاب الآخرين الّذين ظلّوا وقوفاً أو في وضعيات هجينة لا هي بالوقوف ولا هي بالجلوس، وعلى الرّغم من اللّغط الصّاخب الّذي يصمّ الآذان والرّوائح الكريهة الّتي تزكم الأنوف، إلاّ أنّ عادل كان يجلس في راحةِ واسترخاءِ سائحٍ مترفٍ يجلس في مقعد من مقاعد الدّرجة الأولى لطائرة بوينج ٧٧٧.

كان قلبه مفعماً بالرّضى لا تشوبه ذرّة سخط أو تذمّر، تذكّر نعيمة فارتسمت على وجهه ابتسامة حالمة، ولكنّ هذه الابتسامة سرعان ما تلاشت مثل سحابة صيف عابرة عندما تذكّر أمّه، لا يدري لماذا انقلب حبّها الجارف له كرهاً بغيضاً منذ بضع سنوات، أصبح كلّما سقاها برّا إلاّ وبادلته إعراضاً وجفاءً، تخلّى عن حلم حياته في الالتحاق بمدرسة المهندسين واختار بشهامة أن ينخرط سريعا في الوظيفة العمومية حتّى يتمكّن من إعالة أمّه وشقيقه نجيب بعدما توفّي أبوه عندما كان في آخر مرحلة من دراسته الثّانويّة، يحزّ في نفسه أن يرى ينابيع الحبّ والعطف

تتدفّق بغزارة من قلب أمّه لتصبّ في قلب نجيب دون أن يصيب قلبه منها شيء.

استأثر نجيب باهتمام أمّه كلّه منذ ولادته، كان عادل يحسب الأمر عادياً في البداية لأنّ الأطفال الصّغار يحتاجون جرعات زائدة من الودّ والحنان، ولكنّ الأمر لم يتغيّر حتّى اليوم رغم أنّ نجيب يبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة، ورغم أنّه لا يحمل من النّجابة إلاّ الاسم، جنى نجيب ثمار تدليل أمّه له مبكّراً، فقد كان عنيداً، متمرّداً، ومشاكساً منذ صغره، ممّا جعله يسير بخطى سريعة في طريق الفشل الدّراسي بعدما انغمس في حياة اللّهو، ممّا جعل الشّارع يحتضنه في عناق طويل.

تنهّد عادل في حسرة، وراح يستحث روحه المتفائلة للنّهوض على قدميها من جديد، لن يسمح أبداً للآخرين بقراءة عبارات الأسى على ملامحه، سيبقى دائماً وجهه متهلّلاً وضّاحاً ينثر البسمات المشرقة على غيره كما ينثر المضيف الزّهور على ضيفه، لم يكن يوماً أبداً انهزامياً ولن يكون. سيبقى متفائلاً إلى آخر رمق. هكذا عرفوه، وهكذا سيبقى...

لن يجد أفضل منها لتبثّ الانشراح في روحه، أخرج هاتفه وبحث عن اسمها في انتشاء.

ضغط على زرّ الاتّصال وجاءه صوتها العذب:

- عادل هل وصلت؟

أجاب بصوت عالٍ محاولاً اختراق الصّخب المحيط به:

- ليس بعد، أنا في الطّريق، سأصل قريباً، أراك مساءً في حفل التّوقيع.

- حسناً، طريق السّلامة.

- إلى اللّقاء.

حينما دخل المنزل بعد العصر بقليل، استقبلته أمّه بابتسامة فاترة:

- أهلا. كيف حالك؟!

ردّ بحنوّ وهو يقبّل يدها:

- الحمد لله يا أمّي بخير. وأنت؟

ردّت بجفاف:

- الحمد للّه.

استطردت شاكية:

- ولكنّ حياتنا تزداد كبداً يوما بعد يوم، الأسعار تلتهب في الأسواق بشكل خيالي، لا تكاد تضع يدك على بضاعة حتّى ترتدّ إليك متألّمة كأنّها لمست مقلاة ساخنة، أصبح المال الّذي تعطيني يتبخّر بسرعة تفوق سرعة انقضاء أيّام الشهر.

لم يكن كلامها غريباً على سمعه، فقد أصبحت تجدّ في انتقاء عبارات الشّكوى الّتي تهدهد قلبه الطّيّب الّذي لم يكن في حاجة إلى ذلك ليرفق بها ويعطف عليها، أدخل كفّه في جيبه وأخرج بعض المال ونفحها به وهي تتمتم بكلام غير مفهوم، استأذنته في الانصراف لإعداد الشّاي بينما تهاوى هو على الأريكة في إعياء.

وهما يشربان الشّاي قال عادل سائلا:

- أين نجيب؟

أجابت باقتضاب وبنبرة باردة:

- خرج.

أومأ برأسه متفهّماً، خيّم الصّمت لبرهة.

واصل بعدها:

- أتمنّى أن يكون بخير.

ارتسمت على وجهها مسحة من ضيق وهي تقول بصوت واهن:

- الحمد للّه بخير.

غيّرت مجرى الحديث بدهاء ليصبّ بعيداً عن نجيب:

- هل فكّرت في الموضوع الّذي كلّمتك فيه آخر مرّة؟

أجفل للحظة، وحملق فيها ببلادة. كان قد نسي الموضوع أو تناساه على الأقلّ. أو أنّه لم يحمل كلامها على محمل الجدّ، أو ربّما قرّر تأجيل الموضوع إلى وقت لاحق، كان قد أبدى لها رفضه بشكل قاطع، ولكنّها ألحّت عليه للتّفكير من جديد ووعدها بذلك دون أن يكون في نيّته احتمال العدول عن قراره، ولكن هاهي الآن تحاصره بالسّؤال وعليه أن يجد مخرجاً من هذا المأزق الّذي وجد نفسه فيه. قرّر أن يمنح نفسه هامشا للمناورة ويربح بعض الوقت حتّى يجد العبارات اللّبقة الّتي قد يجابه بها أمّه دون أن يستثير غضبها.

باغتها وهو ينتفض واقفاً:

- آه نسيت. لديّ موعد مهمّ الآن، سنتكلّم في الموضوع ليلاً، إلى اللّقاء.

ثمّ هرول في اتّجاه الباب مثل فارس فارّ من معركة.

بعد انتهاء حفل التّوقيع، اتّخذ عادل مجلسه على كرسيّ في مقهى هادئ في ضواحي المدينة، جلست قبالته نعيمة وقد لاحظ كلّ منهما أنّ الآخر لم يكن في مزاج رائق طيلة الحفل.

وجه المحبوب كحجر كريستال شفّاف يستطيع المحبّ الإبحار فيه واكتشاف ما يعتمل فيه بكلّ سلاسة...

سألت نعيمة في عتاب:

- أراك مغتمّاً! هل هناك ما يقلقك؟

احتاج جهداً كبيراً حتّى يرسم على ملامحه ابتسامة خاملة وردّ محاولاً الإنكار:

- لا. علـى الإطـلاق. أعـاني فقـط مـن القليـل مـن الإجهـاد مـن جـرّاء وعثـاء السّفر.

أومأت برأسها متفهّمة.

ابتسم في ظفر وقال بعدما أيقن أنّه نجح في تبديد شكوكها:

- الهجوم هو خير وسيلة للدّفاع.

همّت بالكلام عندما وقف النّادل قربهما باسماً.

حيّاهما بإيماءة من رأسه وتسمّر ينتظر طلباتهما.

- ماذا تشربين؟

سأل عادل بنبرة ودودة.

رفعت نعيمة حاجبيها في حيرة وهي تقول:

- ممممم...أظنّ عصير ليمون!

حدّقت في النّادل وهي تبتسم وتهزّ رأسها مؤكّدة:

- نعم نعم عصير ليمون.

قال عادل وهو ينظر إلى النّادل في امتنان:

- قهوة بالشّوكولا من فضلك.

هزّ النّادل رأسه دلالة الموافقة وانصرف.

شبّك عادل أصابع يديه وبسط ساعديه فوق الطّاولة وهو يقول:

- والآن أخبريـنـي مـا بـك؟ لاحظـت طـوال الحفـل أنّـك تحجبـين خلـف ابتسـامتك المُجامِلـة حزنـاً غريبـاً، ربّمـا تكونـين قـد نجحـتِ في إخفائـه عـن الآخريـن، ولكـن لم تنجحـي في إخفائـه عنّـي.

تنهّـدت بعمـق، وضعـت مرفقهـا عـلى الطّاولـة وأسـندت رأسـها بيدهـا وأوكلـت مهمّـة كـسر الصّمـت الّـذي سـاد المـكان لكوكـب الـشّرق الّتـي كان صوتهـا يصـدح:

رجّعوني عنيك لأيّامي اللّي راحوا
علّموني أندم على الماضي وجراحه
اللّي شفته قبل ما تشوفك عنيّه
عمر ضايع يحسبوه إزّاي عليّ

رنا إليها في إشفاق وقد هاله كمّ الكآبة الّذي طفح به وجهها حتّى بدا مثل سماء مثقلة بغيوم تنذر بمطر غزير، وكان يتوقّع أن تمطر عينا نعيمة دموعاً حارّة في أيّ لحظة.

همس يحدّث نفسه:

- يبدو أنّ الأمر أكبر ممّا توقّعت!

احتدمت في رأسه الأفكار، ومخرت به سفن الشّكوك كلّ البحار قبل أن يسأل:

- نعيمة ما الأمر؟!

ولمّا لم تحر جواباً استرسل متوسّلاً:

- تكلّمي أرجوك ولا تتركيني عرضة للوساوس تغرس خناجرها المسمومة في أحشائي.

رفعت رأسها بتثاقل وتطلّعت إليه بعينين متعبتين وقالت مطمئنة:

- لا تدع نفسك فريسة للهواجس يا عادل، ليس الأمر كما تظنّ.

هتف في عتاب:

- أنت من سمحتِ للهواجس كي تستحوذ عليّ بصمتك المريع.

أردف معتذراً:

- أرجو أن تغفري لي، فأنا لا أتحمّل رؤية الحزن في عينيك الجميلتين.

ضمّ كفّيها في كفّيه في حنان وثبّت عينيه في عينيها وهو يقول بنبرة ودودة:

- والآن أخبريني ما الّذي يشغل بال حبيبتي لهذه الدّرجة.

ابتسم وأومأ برأسه وهو يضغط على يديها في حبّ يشجّعها على الكلام.

قالت بعد تنهيدة عميقة:

- أخي يا عادل، أخي.

بحلق فيها في عدم استيعاب:

- أخوك؟! ما به؟

استدرك بعد أن تذكّر:

- ولكنّك وحيدة أبويك. لا أخ لك ولا أخت.

تابع في شكّ:

- هذا ما أعرفه على الأقلّ. أليس كذلك؟

وصل النّادل فراقباه في صمت وهو يضع طلباتهما على الطّاولة ثمّ يغادر.

طلب عادل في نفاد صبر:

- هيّا أخبريني بكلّ شيء رجاءً.

سحبت نعيمة نفساً عميقاً، واتّكأت على كرسيّها في إعياء وكأنّها تشفق على نفسها من رحلة شاقّة هي بصدد خوضها، وراحت تروي له بأسى حكاية اختفاء أخيها من الألف إلى الياء وهو ينصت إليها باهتمام بالغ ويقاطعها أحياناً مستفهماً إذا التبس عليه أمر ما.

بعدما أفرغت نعيمة ما في جعبتها، قال عادل بصوت ينزّ حسرةً:

- كان اللّه في عون أمّك المسكينة، هي بالفعل في وضع لا تُحسد عليه، لا هي وجدت ابنها فهنأ بلقائه بالها، ولا هي عرفت له قبراً كي تزوره لو هاجها الشّوق إليه، مثلها في ذلك مثل المحكوم بالإعدام الّذي لا يدري

أَيُـولّي وجهـه شـطر الأحيـاء أم شـطر الأمـوات، كلّـما دفعهـا الأمـل إلى الفـرح دعاهـا اليـأس إلى الحـزن، وهـي بينهـما كالكـرة تتدحـرج في حـيرة مـن أمرهـا دون أن تعـرف لهـا وجهـة محـدّدة، لا تتعقّبهـا الأقـدام إلاّ لتركلهـا بكلّ شراسـة، مـا أحـوج هـذه المـرأة لـيد رحيمـة تحنـو عليهـا يـا نعيمـة!

زمّت نعيمة شفتيها في حسرة وهي تقول بصوت ينخره الحزن:

- بـل هـي أحـوج مـا تكـون لممحـاة تمحـو ذكـرى تلـك الفاجعـة مـن ذاكرتهـا للأبـد، هـي كالمريـض الّـذي تلزمـه عمليّـة جراحيّـة لاسـتئصال المـرض القابـع في جسـمه لسـنوات، فاليـد الرّحيمـة لا تعـدو أن تكـون إلاّ كمسـكّن مؤقّـت لـلألم سرعـان مـا يـزول مفعولـه.

قال عادل مؤكّداً:

- أصبتِ عين الحقيقة يا نعيمة.

أردف يسأل بنبرة اليائس:

- وهـل هنـاك طـرق أخـرى يمكـن أن نسـلكها غـير الطّـرق الّتـي سـلكها أبـوك؟!

أطرقـت نعيمـة إطـراق مـن يمعـن في التّفكـير، ثـمّ قالـت في استسـلام بعـد أن رفعـت رأسـها:

- ليـس لدينـا خيـارات كثـيرة يـا عـادل، إمّـا أن نجـازف ونسـير عـلى صراط الأمـل ولـو كان أدقّ مـن الشّـعر وأحـدّ مـن السّـيف، أو نتفـرّج عـلى المسـكينة وهـي تمـوت ألـف مـرّة في اليـوم في انتظـار معجـزة قـد تجـود بهـا السّـماء وقـد لا تفعـل، منـذ مـدّة وأنـا أفكّـر في الاتّصـال ببرنامـج «مختفـون» دون أن أملـك الجـرأة عـلى الإقـدام عـلى هـذه الخطـوة لأنّنـي أعلـم أنّهـا قـد تكـون القطـرة الّتـي تفيـض الـكأس أو القشّـة الّتـي تقصـم ظهـر البعـير كـما يقولـون.

هزّ عادل رأسه دلالة التّفهّم وهو يقول:

- تقصدين أنّ أمّك قد تسقط في جبّ الإحباط بعد أن تتعلّق بأهذاب أمل واهٍ.

قالت بصوت يقطر مرارةً:

- سيكون سقوطاً مروّعاً يا عادل، قد لا تقوى على النّهوض بعده أبدا.

قال وهو يسند ظهره للكرسيّ ويزفر زفرة الحائر في أمره:

- فعلا أنت أمام خيارين أحلاهما مرّ.

استطرد مستدركاً بعد برهة من التّفكير:

- ولكنّني مع ذلك مع فكرة الاتّصال ببرنامج «مختفون». لا أحد يستطيع أن ينكر أن البرنامج نجح نجاحاً باهراً وأسدى خدمات جليلة لمجموعة من النّاس عبر ربوع الوطن، لذلك فلا ضير من المحاولة، فمادام هناك أمل فيجب التّشبّث به حتّى الرّمق الأخير، فلندع باب التّفاؤل مشرّعا على مصراعيه، ولنصفق باب التّشاؤم للأبد، ألا يقول ربّنا الجليل في الحديث القدسي: (أنا عند ظنّ عبدي بي، فليظنّ بي ما يشاء). فلتحسني الظنّ باللّه إذن ولتتوكّلي عليه، والتمسي الأسباب واتّصلي بالبرنامج، ودعي الأمر في يد اللّه عزّ وجلّ، فما خاب أبداً من كان في اللّه رجاؤُه.

انبسطت أسارير وجه نعيمة بعد سماع كلام عادل وكأنّ كلماته حملت بين حروفها سحراً من نوع خاصّ تسلّلت إلى أذنيها وسرت في سائر جسدها لتسرّيَ عنها ما كان يعتريها من همّ.

التمعت عيناها بنور التّفاؤل وقالت في حماس:

- أتعلم يا عادل أنّ كلامك نشر ظلالاً من السّكينة والطّمأنينة على ربوع قلبي الموجوع وبدّد في ثوانٍ معدودات حيرة استبدّت بي

لسنوات خلت، ما أحوجني لهذا الكلام حاجة اللّيلة الدّهماء لسنا قمر ينضو عنها رداء الظّلام.

قال عادل وابتسامة صافية تتلألأ على شفتيه:

- هاه! والآن ماذا قرّرتِ؟

صاحت في اندفاع:

- سأتّصل بالبرنامج طبعاً. العبد في التّفكير والرّبّ في التّدبير.

وكما أنّ التّوبة تغسل الحوبة، غسلت الفرحة أحزانهما فارتسمت على وجهيهما ضحكة بطعم التّفاؤل والحبّ.

رفع عادل فنجان قهوته بيده وهو يومئ برأسه بحركة مرحة يدعو نعيمة لترفع كأس العصير الّذي لم تلمسه يدها منذ وضعه النّادل أمامها.

حينما كانت تترشّف العصير في تلذذ، كان وجهها يأتلق بفرحة صافية صقلت ما كان يشينه من همّ وكآبة.

لكلّ حشرة من الحشرات مبيد يبيدها، ولكلّ جرح من الجروح بلسم يداويه، ولكلّ مرض من الأمراض دواء أو راق، ولكلّ سمّ زعاف ترياق. أمّا بالنّسبة لنعيمة، فإنّ عادل هو المبيد الّذي يبيد كلّ الكروب عن قلبها، والبلسم الّذي يداوي كلّ جروحها، والدّواء والرّاق لكلّ أمراضها، والتّرياق لكلّ السّموم الّتي تدسّها الأيّام في روحها.

تطلّعت إليه بعينين يتوهّجان حبّاً وهي تتملّى في وجهه الملائكي الأخّاذ الّذي تحفّه هالة من الجاذبيّة القادرة على استمالة كلّ القلوب دون إذن مسبق من أصحابها.

همست كما لو كانت تحدّث نفسها:

- لو لم يكتشف إسحاق نيوتن قانون الجاذبيّة لاكتشفه أحدهم على أديم وجهك الآسر.

حدّق فيها غير مصدّق لما سمعت أذناه قبل أن يطرق في خجل.

انتشلتها ردّة فعله من شرودها فاستفاقت كما يستفيق الغافي على صرخة مدوّية.

قالت مرتبكة وهي تحاول سحب سفن الكلام للإبحار بعيداً عن مرفأ الخجل الّذي رست عليه قبل قليل:

- كيف هي أمورك في تلك القرية؟

عاجلها بالجواب وكأنّه كان على طرف لسانه يوشك على الانفلات:

- أمور كثيرة تسير على النّحو الصّحيح بفضل اللّه، المركز الصّحّيّ مثلا سيفتح أبوابه هذا الأسبوع بعد أن التحقت الطّبيبة بمقرّ عملها، حطّت رحالها منذ أسبوع في القرية ولكنّها كانت منشغلة بترتيب بيتها وتجهيزه بما يلزم، زرتها ثلاث مرّات هذا الأسبوع، فقد كانت في حاجة ماسّة إلى من يقدّم لها يد العون من أجل تركيب صوان الملابس وسخّان الماء والصّحن الهوائيّ، تبدو في أوج حماستها لبدء العمل، وأنا أيضا لا تكاد الأرض تسعني من فرط الفرح وأنا أجدني واقفاً على تخوم حلم من أحلامي، وأخيراً سيستفيد سكّان القرية من خدمة صحّيّة لائقة تجعلهم يرتقون درجة أخرى على سلّم المواطنة! وأخيراً سيستنكفون عن علاجات الفقيه الّذي لا يفقه في شؤون الطّبّ إلاّ كما يفقه مسيلمة الكذّاب في شؤون النبوّة!

هتفت نعيمة في بهجة:

- خبر رائع يا عادل.

أردفت متسائلة:

- وماذا عن زواج القاصرات؟! هل برق نور في الأفق يبشّر بحل وشيك؟ أم أنّ المعضلة تستفحل أكثر فأكثر؟

قال عادل بنبرة مشوبة باليأس:

- وحتّى لو برق نور في الأفق يا نعيمة. فما كلّ بارقة تجود بمائها.

قالت مازحة:

- كلامك باطنه فيه الرّحمة وظاهره من قبله العذاب.

افترّ ثغره عن ابتسامة مشرقة وهو يقول في هزل:

- أعرف يا نعيمة أنّك أقدر من يستطيع إماطة السّتار عمّا يعتلج في دواخلي مهما بالغتُ في توخّي أقصى درجات الحرص، لذلك أفصحي عن قصدك دون مخاتلة.

ابتسمت ابتسامة شفّافة كالبلّور وهي تقول كمن تدفع تهمة عن نفسها:

- لا أخاتلك يا عادل، فقط أقصد أنّ كلامك يحمل في طيّاته من التّفاؤل بقدر ما يحمل من التّشاؤم.

تابعت في دهاء:

- كأنّك تقف على عتبة باب يفضي إلى مجازفة غير محسوبة العواقب. يضطرم الشّكّ والحيرة في عقلك. يدفعك التّفاؤل للدّخول لعلّك تبلغ مرادك وتجد ما يسرّك، ويثنيك عن عزمك التّشاؤم مخافة أن تجد ما يسوؤك. ولكنّني ما عهدتك إلاّ شجاعاً لا يُصطلى بنارك، فتوكّل على اللّه واقتحم الباب بقلب مفعم بالتّفاؤل، فما خاب أبداً من كان في اللّه رجاؤُه. هكذا نصحتني. ولا أجد نصحاً خيراً منه أسديه إليك.

قال مداعباً:

- بضاعتنا رُدّت إلينا إذن.

صاحت وهي تردّ له المداعبة بأحسن منها:

- لم أجد بضاعة أثمن من بضاعتك لأقدّمها لك.

استطردت في مكر:

- أخـبرني إذن عـن الأمـر بجـلاء، ماهـي الفكـرة الّتـي تـراودك دون أن تحسـم أمـرك بتنفيذهـا أو تسريحهـا سراحـاً جميـلاً؟

صاح بخبث:

- أخالك تعرفين ما يجول في خاطري دونما حاجة إلى سماع كلامي.

قالت بدهاء وابتسامة بهيّة تزيّن وجهها:

- عدنا للمراوغة من جديد.

قال وقد ارتسمت على ملامحه علامات الجدّيّة:

- لا أراوغـك البتّـة يـا نعيمـة. كلّ مـا أعنيـه أنّـك فعـلا عـلى درايـة بـكلّ مـا يـدور في خلـدي وكأنّنـا نفكّـر بعقـل واحـد، نعـم هنـاك فكـرة في ذهنـي تنضج عـلى مهـل ولا أدري إن كانـت قـد أينعـت وحـان قطافهـا أم أنّهـا لا تـزال فِجّـة. لا شـكّ أنّـك تعرفـين أنّ مشـكلة زواج القـاصرات تقـضّ مضجعـي وتسـلبني لـذّة النّـوم في كثير مـن اللّيـالي. وتشـعرني بعجـز فظيـع لا طاقـة لي لاحتمالـه. أتتخيّلـين ذلـك الشّـعور بالعجـز الّـذي يعتريـك عندمـا تشـاهدين مـن خلـف شاشـة التّلفـاز طفلـة بئيسـة مدفونـة تحـت أنقـاض بيـت مهـدّم في سـوريا أو غـزّة دون أن تسـتطيعي مسـاعدتها بأكـثر مـن ذرف الدّمـوع؟! ذلـك الشّـعور بالضّبـط هـو الّـذي يكبّلنـي كـما يكبّـل الأخطبـوط فريسـته، لذلـك فـلا خيـار لـديّ إلاّ السّـعي للتّخلّـص مـن هـذا الشّـعور البغيـض بـكلّ مـا أوتيـت مـن طاقـة دون أن أسـمح لـه بإحـكام قبضتـه عـليّ وتنغيـص حيـاتي.

تنفّست نعيمة بعمق وهي تنظر إليه في إعجاب وتقول:

- ولكنّـك حاولـت يـا عـادل، وشرف المحاولـة يكفيـك، وفـوق طاقتـك لا تُـلام، ولـك عـلى الأقـلّ أجـر الاجتهـاد.

قال في ثقة:

- ولكنّ محاولتي باءت بفشل ذريع. واجتهادي وإن كنت مأجوراً عليه فما الجدوى الّذي جنته أولئك الفتيات البئيسات من ورائه، لذلك لن أدع لليأس منفذاً ينفذ من خلاله لروحي ينفث فيها سموم الاستسلام المقيت الّذي يقود لذلك الشّعور المخزي بالعجز والضّعف والوهن، سأحارب على كلّ صعيد إذن ولن يحول بيني وبين النّجاح حائل إلاّ الموت.

راعتها عبارته الأخيرة عندما توهّمته في مخيّلتها لوهلة محارباً يحمل سيفاً ويمتطي صهوة فرسه يحارب بضراوة في ساحة الوغى.

صاحت مفزوعة:

- حفظك اللّه يا عادل.

ابتسم وقال في اعتذار حينما لمح الفزع في عينيها الجميلتين:

- لا تقلقي يا نعيمة، هو مجرّد كلام أقوله لاستنفار همّم ما أحوجني إليها حتّى لا يفتر عزمي ولا تخمد جذوة حماسي.

هتفت كأنّها تخشى نسيان ما تهمّ بقوله:

- أتعلم أنّك خضت بي بحراً شاسعاً من الكلام حتّى أصابني دوار البحر دون أن أظفر منك بجواب لسؤالي.

ضحك ضحكة ذات معنى وهو يقول:

- هي مجرّد فكرة يا نعيمة، عندما تختمر في ذهني سأخبرك بكلّ شيء وسأستجير بمشورتك لا محالة، هذا وعد منّي.

ولأنّها كانت ليّنة العريكة ولم تكن ملحاحا، فقد ضحكت بدورها وهي تبسط أمامه راحة يدها وتقول ممازحة:

- وعد عرقوب؟!

ضحك هو الآخر وهو يضع راحته في راحتها ويقول:

- وعد عرقوب.

أفرغت العصير في جوفها في استعجال، وانتفضت من مكانها وهي تنظر في شاشة هاتفها متوجّسة وتقول:

- عادل. لقد تأخّرت.

حدّق فيها وهو يومئ برأسه متفهّما ويقول:

- سنغادر حالا.

ثمّ لوّح للنّادل بإشارة من يده، وأفرغ ما تبقّى من قهوته في جوفه في رشفة واحدة قبل أن يُغْمِدَ أصابع يده في جيبه ليستلّ ورقة نقدية تأهّباً لدفع الحساب.

حينما ترجّلا من سيّارة الأجرة الّتي أقلّتهما إلى المدينة، صافح عادل نعيمة في حرارة وهو يقول مودّعاً:

- إلى اللّقاء. أتمنّى أن أراك قريباً.

ضيّقت عينيها ثمّ وسّعتهما وتساءلت في شكّ:

- سأراك غداً؟!

أجاب بنبرة تشي بمرارة فادحة:

- كنت أتمنّى ذلك ولكنّني لا أستطيع.

سألت في إحباط:

- ولكن لِمَ يا عادل؟

واصلت بنبرة توحي بأنّها توصّلت لدواء ناجع للقضاء على داء الإحباط الّذي استفشى في أوصالها:

- غداً الأحد!

قال وهو يبتسم في حسرة بادية:

- نعم أعرف ذلك. ولكنّ وسائل النّقل لا تكون متاحةً إلاّ صباحاً، وفي حالة لم أغادر إلى القرية في الصّباح، فلا حظّ لي في ذلك في المساء.

ممّا سيضطرّني للمبيت إلى يوم الاثنين ممّا يعني بالضّرورة غيابي عن العمل لأنّني لن أصل هناك إلاّ متأخّراً مهما استعجلت.

لوت شفتيها في ضيق وهي تقول في استسلام:

- الأمر للّه من قبل ومن بعد، أعرف حبّك الشّديد للعمل، وما كان لي أن أصدّك عنه.

ثمّ أردفت في توسّل:

- أتمنّى ألاّ تغيب طويلاً هذه المرّة، فأنا أشتاق إليك كثيراً.

قال في خفر:

- أنا أيضاً أشتاق إليك كثيراً.

صاحت مغتنمة الجوّ الشّاعريّ الّذي عبق أريجه في المكان:

- أراك في القريب العاجل إذن يا حبيبي.

تورّد خدّاه خجلا ولكنّه استنفر كلّ ما أمكنه استنفاره من جراءة ليقول بصوت مختلج:

- إن شاء اللّه حبيبتي.

صافحها مجدّدا وهو يقول:

- إلى اللّقاء.

شدّت على يده بقوّة وحبّ في آنٍ وكأنّها تمنعه من الرّحيل وهي تقول:

- إلى اللّقاء.

دخل عادل إلى البيت وهو يشعر أنّه على مشارف مواجهة لم يمنح نفسه ما يلزم من الوقت والتّفكير لخوض غمارها، هو في وضع لا يتمنّاه العدوّ لعدوّه اللّدود، عالق بين مطرقة أمّه وسندان قلبه. يحبّ أمّه حدّ الجنون رغم كرهها غير المبرّر له، ويحبّ نعيمة حدّ الثّمالة ويعلم أنّها

تحبّـه أضعـاف حبّـه لهـا، كان يحلـم أن يتّسـع قلبـه لحبيبتَيـه معـاً ويحتضنهما فيـه بـكلّ حـبّ، ولكنّـه لم يعـد واثقـاً تمامـاً أنّ حلمـه ذاك قابـل للتّحقّـق، فأمّه تدفعـه بقسـوة نحـو شـفير الإحـراج.

لـو كان لعـادل قلبـان لوهـب واحـداً لأمّـه تتبـوّأ عرشـه كـما تشـاء، ولشرّع الثّـاني في وجـه نعيمـة تتفيّـأ أشـجاره الوارفـة مثلـما تحـبّ، ولكنّـه لا يملـك إلاّ قلبـاً واحـداً. وكـما يُقـال: «مـا اجتمـع سـيفان في غمـد»...

تسـلّل كاللّـصّ إلى غرفتـه وأقفـل البـاب وراءه واسـتلقى عـلى السّريـر يُنعم في التّفكـير وهـو يعلـم أن لابـدّ مـمّا ليـس منـه بـدّ.

سـمع طرقـاً متشـنّجا عـلى البـاب، نهـض ومـشى مترنّحـاً ليفتـح ويجـد نجيـب واقفـاً في ارتبـاك ويـده اليمنـى مُغمَـدة في جيـب سروالـه واليـسرى تُربّـت عـلى فخـده في عصبيّـة.

فـرّج عـادل ذراعيـه، وضـمّ أخـاه إليـه في اشـتياق وهـو يهمـس بصـوت مختنـق:

- كيف حالك يا نجيب؟

خلّص نجيب جسده من ذراعَي أخيه وهو يجيب في جفاف:

- الحمد للّه.

تأمّلـه عـادل بنظـرة فاحصـة يملأهـا الاسـتغراب، كان مظهـره قـد تغـيّر كثـيراً عـن آخـر مـرّة شـاهده فيهـا. شـعره حليـق بالكامـل مـن جانبـي رأسـه، وغزيـر ومنتصـب في الأعـلى. عينـاه حمـراوان كأنّهـما جمرتـان متّقدتـان، كتفاه متهدّلتـان، يتسربـل بقميـص ريـاضيّ فضفـاض لنـادي كـرة سـلّة مشـهور في بـلاد العـمّ سـام. ويرتـدي سروالاً عريضـاً يبلـغ نصـف سـاقه، ويحتـذي حـذاءً رياضيّـاً. كان يبـدو في زيّـه ذاك كفزّاعـة تتوسّـط حقـلاً مـن الحقـول.

هتـف عـادل وهـو يشـير بيـده نحـو الدّاخـل ويحـاول مـداراة الدّهشـة الّتـي اسـتحوذت عليـه:

- تفضّل بالدّخول، اشتقت إليك.

تغلغـل نجيـب إلى الدّاخـل بخطـى متثاقلـة وسـار عـلى أثـره عـادل بعـد أن أوصـد البـاب.

جلـس عـادل عـلى حافّـة السّريـر وهـو يطلـب مـن أخيـه الجلـوس بإشـارة مـن يـده معـزّزا إيّاهـا بالقـول:

- تفضّل بالجلوس يا نجيب.

رفع نجيب كفّه أمامه وكأنّه بصدد أداء قسم في محكمة وقال معتذرا:

- لا داعي لذلك.

أردف وهو يُدخل يده في جيب سرواله ويسحب هاتفاً محمولاً:

- جئت فقط أعرض عليك هذا الهاتف لعلّ لك رغبة في ابتياعه.

تابـع وهـو يقلّـب الهاتـف بـين أصابعـه كتاجـر حـاذق يحـاول إغـراء زبـون محتمل :

- إنّـه في حالـة جيّـدة، وثمنـه أيضـاً مناسـب، فقـط يعـوزني بعـض المـال وأنـا مضطـرّ لبيعـه بعدمـا ضاقـت بيَ الحيـل و...

قاطعه عادل محاولاً رفع الإحراج عنه:

- كم ثمنه؟

أجاب نجيب بصوت خفيض:

- ثلاثمائة درهم.

دسّ عـادل أصابعـه في جيبـه وأخـرج أوراقـاً ماليـة، أبقـى عـلى بعضهـا في يـده وأعـاد الباقـي إلى الجيـب.

مدّ المال لأخيه وقال بنبرة ودودة وابتسامة مشرقة تكسو وجهه:

- تفضّل يا أخي، خمسمائة درهم. قم بتصريف أمورك وأمسك عليك هاتفك، ولا تبعه لأحد فتذهب نفسك عليه حسرات، فلا أرى للمرء غنى عن الهاتف اليوم.

امتقع وجه نجيب وقال في صرامة وإباء:

- ما قصدتك إلاّ لأبيعك الهاتف، ولو كنت أبتغي إحساناً لطلبت منك ذلك دونما حيلة ولا غيلة، ولو كنت أودّ بيعه لغيرك لفعلت دون اللّجوء إليك.

كان واضحاً بأنّ عادل شعر بالحنق الّذي اعترى أخاه، لذلك لم يملك إلاّ أن قال:

- هات الهاتف.

مدّ له نجيب الهاتف واستلم المال واستدار على عقبيه خارجاً من الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة.

زمّ عادل شفتيه ورفع حاجبيه في استغراب وهو يتفحّص الهاتف بعينين مُبَحْلَقتَيْن وذهن شارد.

انتبه من شروده على صوت نجيب وهو يصيح:

- أمّي تريدك.

عندما التفت عادل نحو مصدر الصّوت، كان نجيب قد اختفى.

رمى الهاتف على السّرير وقام في خمول وخرج من الغرفة يُقدّم قدماً ويُؤخّر أخرى كأعزلٍ منقادٍ إلى معركة يعلم أنّه لن يعود منها إلاّ خاسراً في جميع الأحوال.

تهاوى على الأريكة وتطلّع إلى وجه أمّه محاولاً استشفاف ما يغوص تحت قسماته الصّارمة. كان يأمل أن يلمح فيه ما يبدّد مخاوفه ويُشعره بالحبور، ولكنّ أمله خاب وانقلب إليه، إنّها عازمة لا محالة على أن تجعل

كلمتها هي العليا وكلمته السّفلى، تساءل في نفسه ما إذا كان يحقّ لها أن تفرض الحجر على حرّيّته في اختيار شريكة حياته كما يفرض القاضي الحجر على سفيه. هي أمّه...ثمّ أمّه...ثمّ أمّه...ثمّ قلبه، هكذا سيُفتيه أيّ فقيه لو استفتاه في أمره، ولكنّ للحبّ فتاواه الّتي تضرب فتاوى الفقهاء عرض الحائط بنبضة قلب مسدّدة بإحكام، قلبه، قلبه...ثمّ قلبه...ثمّ قلبه...ثمّ أمّه. هكذا سيُفتيه فقهاء الحبّ: عنترة، والمجنون، وروميو، وغيرهم من أساطير الحبّ المشهورين والمغمورين في كلّ زمان ومكان.

بدا له أنّ الصّمت قد شاع دهراً كاملاً قبل أن تسأل أمّه بنبرة حاسمة كمن يريد جواباً قاطعاً بدون لفّ ولا دوران:

- ماذا قرّرت؟

ابتلع ريقه بصعوبة بالغة كمن علق في بلعومه عظم سمك وأطرق وهو يقول متلعثماً:

- لم أقرّر بعد يا أمّي...ألتمس منك أن تمنحيني مزيداً من الوقت كي أُسهب في التّفكير.

رفع بصره بحذر ليلمح على وجهها سحابة قاتمة مثقلة بالغضب والسّخط.

بدل من الجهد ما يلزم لتسلّق جبل، وذلك حتّى يتمكّن من رسم ابتسامة خاملة على وجهه وهو يحاول أن يضفي على الأجواء المكفهرّة نفحة من الدّعابة، لذلك واصل:

- «زواج ليلة تدبيرو عام»!

لم تتزحزح ملامحها المتحجّرة عن كلوحها قيد أنملة، بل خال أنّ دعابته السّاذجة لم تزدها إلاّ غضباً على غضب.

وانتظَرَ الأسوأ...

وتمنّى لو يستطيع إحكام إغلاق أذنيه بكلتا يديه كمن يتأهّب متهيّباً لانفجار قنبلة مدوّية على بعد أمتار منه.

ولكنّ الأماني في هذه اللّحظة كانت بعيدة عنه بعد أمريكا عن الصّين.

وبدأ الانفجار وإن بدرجة متدنّيّة على سلّم ريختر:

- وما الّذي يعيب سناء حتّى تمنح نفسك كلّ هذا الوقت للتّفكير في الارتباط بها؟!

عضّ على شفته السّفلى وهو يتميّز من الغيظ الممزوج بالعجز.

لو كان في وسعه أن يجيب على سؤال أمّه بكلّ صراحة وجرأة لما تردّد في أن يقول:

- لا يعيب سناء أيّ شيء يا أمّاه. فهي في مضمار الجمال فرس جموح لا يُقهر، كلّ ما يعيبها هو أنّ والديها تركا لها الحبل على الغارب حتّى غدت لا تنقاد إلاّ لأهوائها، لا يعيبها سوى أنّها تُذيع من أسرار جسدها الفتّان أكثر ممّا تُسِرّ، فهي في التّبرّج مدرسة عليا متخصّصة لا تضاهيها مدرسة. لا يعيبها يا أمّاه سوى أنّها شجرة مُشاعة لكلّ رجال المدينة كلّ حسب نزواته وشهواته: من لم يتذوّق طعم ثمارها استظلّ بفيئها أو تنشّق عبق أريجها الفوّاح. لا يعيبها سوى أنّها تدبّر محلاً هو أقرب لوكر دعارة منه لصالون حلاقة. لا يعيبها شيء أبداً وهي القوّامة الصّوّامة الّتي تقوم اللّيالي وتصوم النّهارات، تقوم لياليها في الملاهي والبارات، وتصوم نهاراتها عن الصّلوات. لا يعيبها شيء سناء ابنة خالتي يا أمّي. منيفة هي كاملة الأوصاف...

لو كان عادل صفقاً ذرب اللّسان لقال هذا وأكثر، ولكنّ أدبه الجمّ واستحياءه الشّديد من أمّه جعلاه يقول بدلاً عن ذلك:

- أرجـو أن تتفهّمـي وجهـة نظـري في الموضـوع يـا أمّـي، سـناء بنـت نـاس ولا أرى فيهـا عيبـاً يُذكـر! المشـكلة كلّهـا متعلّقـة بي أنـا.

سألت محتدّة:

- يعني؟!

أحـسّ بضيـق شـديد في التّنفّـس بعـد أن ضيّقـت عليـه أمّـه الخنـاق حتّـى شـعر شـعور عفريـت محبـوس في قمقـم مُحكـم الإغـلاق.

نـدّت عنـه شـهقة فضحـت مـا نابـه مـن ضيـق وجعلـت صوتـه يخـرج عسـيراً وهـو يـردّد:

- أقصد أنّني لا أفكّر في الزّواج حالياً لا من سناء ولا من غيرها.

ألقى بكلماته تلك وانتظر الانفجار الأكبر...

لم يخب ظنّه لأنّ أمّه صرخت:

- ومتـى سـتفكّر في الـزّواج إذن؟! عندمـا يحـدودب ظهـرك وتتسـاقط أسـنانك ويشـيب شـعرك ويـذوي عـودك؟!

واصلت متهكّمة:

- وفي أيّ مقبرة يا ترى ستقيم حفل زفافك؟!

انتفضـت مـن مكانهـا كأنّ الأريكـة تحتهـا اسـتحالت جمـراً حارقـاً عـلى حـين غـرّة، ثبّتـت يديهـا عـلى خاصرتيهـا وهـي تقـول بلهجـة آمـرة وفظّـة:

- دع عنـك كلام الأطفـال الّـذي لا يسـمن ولا يغنـي مـن جـوع، سـتتزوّج سـناء شـئت أم أبيـت، ولا كلام يعلـو عـلى كلامـي أفهمـت؟

ولم تنتظر جواباً، بل انصرفت وهي تهمهم في غضب.

غـار عـادل في الأريكـة وشرع يضمحـلّ شـيئاً فشـيئاً ويتـلاشى حتّـى أحـسّ إحسـاس حفنـة مـن الـتّراب تذروهـا الرّيـاح.

جاهـد كي يقـف، وسـار يترنّـح ترنّـح المُثْخَـنِ بالجـراح حتّـى إذا دخـل غرفتـه وأغلـق عليـه البـاب انهـار عـلى سريـره مثـل عرجـون نخلـة.

إذا قرح الجنان بكت العينان...

بـكى عـادل ليلتهـا كـما لم يبـكِ مـن قبـل، بـكى بقهـر طفـلٍ صغير سُـلِبت منـه لعبتـه المحبّبـة إلى قلبـه.

صحـا صبـاح اليـوم المـوالي مكـدوداً وكأنّـه بـات يحـارب عـلى أكـثر مـن جبهـة، أينـما ولّى وجهـه كان ثمّـة مـا يعكّـر صفـو نومـه، تقلَّـب في سريـره تقلُّـب الرّاقـد عـلى الجمـر. إذا نـام عـلى جنبـه الأيمـن، تـراءت لـه مشـاكل القريـة كشـجرة عملاقـة جذورهـا تـضرب في عمـق الأرض وفروعهـا المتشـابكة الشّـائكة تعانـق أديـم السّـماء. وإذا تقلّـب عـلى جنبـه الأيـسر، بـرزت لـه في ثنايـا الظّـلام نعيمـة تسـتدرّ غوثـه بنظـرات ملتاعـة غمّمتهـا العبرات المنسـكبة عـلى مآقيهـا في صمـت، وإذا تمـدّد عـلى ظهـره، لاح لـه خيـال أمّـه في صـورة حيزبـون ذاويـة شـمطاء، بعينيهـا الواسـعتين المخيفتـين كعينـي بومـة، وأنفهـا الطّويـل المعقـوف كمـوزة متعفّنـة، وفمهـا الأدرد المـشروخ كفـم ضفدعـة، وبشرتهـا المجعّـدة كمنديـل ورقـيّ ألقـاه مزكـوم في سـلّة القمامـة بعـد أن مسـح بـه مخاطـه. لاحـت لـه أمّـه في هـذه الهيئـة البشـعة وهـي تطـارده محاولـة الإمسـاك بـه وهـو يجـري مفزوعـاً وصـدى ضحكاتهـا الشّريـرة يـدوي في أذنيـه كصريـر بـاب قديـم.

تسـاءل في سرّه في حـيرة لمـاذا ظهـرت لـه أمّـه في منامـه بهـذه الصّـورة البشـعة وكأنّهـا شرّ مسـتطير، ثـمّ ضحـك في اسـتخفاف رغـم الأسى عندمـا تذكّر قـاصرات القريـة ونعيمـة وهـنّ ينتظـرن منـه العـون، كـنّ كمـن يسـتجير مـن الرّمضـاء بالنّـار. هـو الآن أحـوج منهـنّ لمـن يسـاعده، تسـاءل في سرّه مجـدّدا هـل يحـقّ لـه أن يبـكي عـلى أحوالهـنّ أو عـلى حالـه.

كان الجـواب صادمـاً: إن بـكى عليهـنّ فهـنّ أهـل لذلـك لأنّ الظّلـم لحقهـنّ مـن الغربـاء، أمـا هـو فـما الّـذي يدعـوه للبـكاء طالما أنّ يـده (أمّـه) هـي الّتـي صفعتـه.

نفـض عـن جسـمه الكسـل الّـذي سرى فيـه بشـقّ الأنفـس، وقـام يجمـع أغراضـه اسـتعداداً لرحلـة العـودة إلى الجبـل سـاحباً وراءه كـمّاً مـن الهمـوم كـما تسـحب السّـيّارة خلفهـا أذيـالاً مـن الغبـار...

(١٤)

الغريب

دخل هـذا البائـس هـذه القريـة المقفـرة في ذلـك المسـاء كـما دخـل بائـس فيكتـور هيجـو جـان فالجـان مدينـة دينـي بعـد إطـلاق سراحـه مـن سـجن طولـون. وإذا كان الملـوك إذا دخلـوا قريـة أفسـدوها وجعلـوا أعـزّة أهلهـا أذلّـة، فـإنّ البؤسـاء إذا دخلـوا قريـة روّعوهـا وجعلـوا آمِنـي أهلهـا مذعوريـن محترِزيـن. وكـما يجـزع الزّيـت مـن المـاء ويـأبى الامتـزاج بـه، يجـزع أهـل هـذه القريـة مـن الغربـاء ويتحاشـون الاختـلاط بهـم، لذلـك انتشر خـبر وصول هـذا الغريـب في القريـة انتشـار فضيحـةٍ عـلى شـبكات التّواصـل الاجتماعـيّ، مـمّا حـدا بالشّـيخ محـمّاد إلى تصـدّر المشـهد باعتبـاره ظـلاًّ للسّـلطة في هـذه البقعـة النّائيـة مـن البـلاد.

ولأنّ مـن دخـل بيـت اللّـه فهـو آمـن، ارتـاد هـذا الغريـب مسجد القريـة يلتمـس الأمـن والكِـنّ ومـا يقـوّي بـه البـدن.

انفـرد بـه الشّـيخ محـمّاد، عـلى مـرأى ومسـمع مـن سي الحسـين، وذلـك بعـد انفـراط عقـد المصلّـين إثـر صـلاة المغـرب وصـاح بـه متسـائلاً بلهجـة تـشي بالسّلطة :

- مـن أيّ بـلاد اللّـه قدِمـت؟! ومـا الّـذي حملـك عـلى النّـزوح عـن بلـدك والإناخـة بقريتنـا؟!

تململ في مكانه الغريبُ، وقد كان مطرقاً ومتّكئاً على سارية من سواري المسجد، وأطمح ببصره إلى الشّيخ محمّاد، وقال بصوت خفيض وبنبرة توحي بالثّقة والتّحدّي:

- جئت من حيث جئت، وأنا حرّ أذهب إلى حيث شئت، مادام القانون يقف في صفّي ويكفل لي هذا الحقّ فلا شأن لك بي.

انكمش الشّيخ محمّاد على نفسه لوهلة انكماش القنفذ بعد أن أفحمه الغريب بردّه الجامع المانع، لكنّه سرعان ما استعاد هيبته وتَطاوَلَ تَطاوُلَ ديك وجد نفسه وحيداً وسط حشد من الدّجاج، وقال في خيلاء:

- أنا ممثّل القانون هنا، وهذا القانون نفسه يمنحني الحقّ في أن أسألك.

واصل وهو يرمق سي الحسين بنظرة ذات مغزى:

- وإذا لم أسألك أنا فمن سواي له الحقّ في أن يفعل؟! رحم اللّه عبداً عرف قدر نفسه ومدّ رجله على قدر لحافه.

سأل الغريب في ريبة:

- ومن فوّض إليك مهمّة تمثيل القانون؟!

قال الشّيخ محمّاد باعتداد:

- أنا شيخ القرية، هل يعوزني سبب آخر أقوى لكي أُعْنَى بأمور البلاد والعباد؟!

ردّ الغريب بدهاء:

- وأنا ضيف القرية، هل يعوزني سبب آخر أقوى لكي أجد عندك حسن القَراء كما يجد السّابلة حسن القَراء عند حاتم الطّائي؟!

تنحنح الشّيخ محمّاد وقد بدا أنّه لم يفهم ما يرمي إليه الغريب، لم

يسمع بطبيعة الحال بحاتم الطّائي من قبل، ولكنّه خمّن رغم ذلك أنّ الغريب يستضيفه. لذلك اشرأبّ مزهوّاً وهو يقول:

- وما رميت إذ رميت ولكنّ اللّه رمى، قادك اللّه إلى أكرم رجل في القرية.

حدّق إلى سي الحسين بنظرة تُفصِح عن ضغينة مكبوتة واستطرد:

- ولو قصدت غيري لعدت خائب الرّجاء، فالجود شيمة النّبلاء، أمّا الأنذال فيتنفّسون الخيانة تنفّس الهواء، ويجري البخل في عروقهم مجرى الدّماء.

جاشت مراجل سي الحسين، وامتقع وجهه بحمرة الغضب. اقترب من الرّجلين وهو يصيح في وجه الشّيخ محمّاد:

- خسئت أنت وضيفك هذا الّذي لا تبعث هيئته على الاطمئنان، ارحلا حالاً وإلاّ جمعت عليكما رجال القرية يطردونكما من هنا كما طرد اللّه الشّيطان من رحمته.

قهقه الشّيخ محمّاد حتّى كادت عيناه تدمعان، ثمّ قال مستهزئاً:

- لو أنّك لست الشّيطانَ نفسَه لكنت من سلالته ولا ريب.

ثمّ أردف وهو يرنو إلى الغريب يحاوره محاورة الخِلّ لخِلّه:

- اعتزلت المسجد منذ سنوات خلت، وما الصّلاة هي الّتي جاءت بي اليوم، فما جئت إلاّ لأستبينَ أمرك، فأنا في العادة لا أرتاد مكاناً يثوي به الشّيطان.

واصل وهو يربّت على كتف الغريب:

- الملائكة تكره الشّياطين أيّها الغريب.

تابع وهو يطوّق عنق الغريب بذراعه ويسحبه في اتّجاه الباب:

- أنت ضيفي لثلاثة أيّام، ولن يجرُؤَ أحد على أن يخزيني في ضيفي،

هيّا بنا نبرح هذا المكان قبل أن نهلك اختناقاً، حللت أهلاً ونزلت سهلاً أيّها الضّيف الغريب.

ثمّ انصرفا وتركا سي الحسين يكاد يتميّز من الغيظ...

نار أخرى للحرب أوقدها قدوم هذا الغريب إلى القرية، حرب لا تكاد تنطفئ جذوتها حتّى تستعر من جديد بين غريمين لا يعلم سرّ خصومتهما إلاّ اللّه. راح كلّ منهما يُجيّش مناصريه في معسكره وينفث فيهم أفكاره ويُؤلّبهم ضدّ المعسكر المناوئ. معسكران وإن اختلّت موازين قواهما لصالح الفقيه الّذي يمسك بزمام أمور القرية بيد من حديد، إلاّ أنّ معسكر الشّيخ يملك قوّة لا يُستهان بها تنجح في كثير من الأحيان في بثّ الرّعب في المعسكر الآخر وردع أطماعه الدّؤوبة لهيمنةٍ أحادية القطب على القرية، وكان الشّيخ يعوّض قلّة مناصريه في هذا الصّدد بمنصبه الّذي يتمترس خلفه مفتخراً بسلطته الّتي يفتقدها خصمه.

دون هدر وقت كثير، ودون تلكّؤ كبير، شرع سي الحسين في تحذير السّكّان من مخاطر تواجد هذا الغريب المجهول بين ظهرانيهم.

صاح في النّاس محذّراً بعد انقضاء صلاة العشاء:

- أيّها النّاس. إنّ الشّيخ الّذي يجدر به أن يكون المسؤول الأوّل عن استتباب الأمن في قريتنا هو نفسه الّذي يسعى جاهداً لبثّ الرّعب والخوف في نفوسنا مستغلاًّ في ذلك سلطته الّتي يزعم أنّها تمنحه هذا الحقّ.

ثمّ آثر الفقيه أن يصمت لبرهة ويتفرّس في الوجوه الّتي بدأت تكسوها أمارات الغضب والقلق.

واصل بعد أن سرت بين الرّجال همهمات تطالبه بالإفصاح عمّا يجول في خاطره من مخاوف:

- لقد حلّ اليوم بقريتنا غريب لا يُؤمَن جانبُه، وأغلب ظنّي أن تطالنا نوائبُه، هيئته تُفصِح عن شرّ مستطير، وعيناه تُنبئان بغدر خطير، لا أحسبه إلاّ سجيناً هارباً أو لصّاً سارباً. أردت طرده اتّقاءً لشرّه، ولكنّ الشّيخ استضافه في وكره، فلا تثريب عليّ ولا تبكيت إن نابكم شيء من خبثه ومكره. واللّهمّ إنّي قد بلّغت.

تعالت عقائر الرّجال بالصّراخ وهم يطالبون بشتّى العبارات بطرد الغريب من القرية.

صرخ رجل بأعلى صوته بعد أن عقد حاجبيه:

- اطردوا هذا الغريب عن قريتكم، وإلاّ فواللّه فلن تنعموا بالأمن بعد اليوم.

صاح آخر مؤيِّدا:

- لا يجب أن نسمح لغريب أن يُفَصِّمَ عروة الأمن الّتي نتمسّك بها بقوّة منذ زمن بعيد وإلاّ هلكنا جميعاً في رمشة عين.

انتفض سي الحسين وراح يعزف على الوتر الحسّاس بلغة الخطيب المحنّك:

- الأمن الأمن يا عباد اللّه، عضّوا عليه بالنّواجذ، إنّه عطيّة اللّه النّفيسة في هذا الزّمان، ولّوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب لتروا بأمّهات أعينكم الهلع يربض على الصّدور كما يربض الأسد على فريسته، أفبعد أن حبانا اللّه جلّ جلاله بنعمة الأمن والأمان نفرّط فيها بكلّ تقاعس؟!

صاح الجميع بصوت رجل واحد:

- لا نفرّط فيها، لا نفرّط فيها.

هتف سي الحسين بحماس:

- لقد حيزت لكم الدّنيا بأسرها يا عباد اللّه.

تطلّعت إليه الأعين مشدوهة قبل أن يضيف:

- إنّنا مؤمنون، ورسولنا الكريم يقول: (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزت له الدنيا بأسرها).

هتف الرّجال بعد أن اتّقدت فيهم شعلة الإيمان على حين غرّة:

- صدق رسول اللّه، صدق رسول اللّه.

تدخّل الحاجّ عبد اللّه في رزانة لا توافق حالة الحماسة الّتي استحوذت على بقيّة الرّجال:

- لا ريب أنّنا كلّنا متّفقون على أنّ هذا الغريب يجب أن يترك القرية اليوم قبل الغد غير مأسوف عليه، ولكن لو تحلّينا بقليل من الصّبر وكثير من الحكمة لجاز لنا أن نتركه يقضي ليلته هذه في ضيافة الشّيخ محمّاد، لا أرى ضيراً في ذلك على أن يغادر في الصّباح، فالوقت ليل كما تعلمون. والشّهامة لا تقتضي أبداً أن نطرد ضيفاً، مهما كان، في وقت مثل هذا ونضع أنفسنا موضع سخرية من جميع القرى من حولنا.

استدارت الأعناق جهة سي الحسين، ورشقه الرّجال بنظرات أشبه ما تكون بتفويض يخوّل له الإنابة عنهم في أمر مباركة اقتراح الحاجّ عبد اللّه أو معارضته.

هزّ سي الحسين رأسه دلالة الموافقة، وقال بعد أن منح نفسه برهة من التّفكير:

- لا بأس في ذلك لا بأس.

ثمّ استطرد بحزم وهو يمسّد ذقنه الحليقة بأصابعه:

- على أن تتجشّم مهمّة تبليغ الشّيخ بهذا القرار غداً فجراً، واعلم أنّه لا يحقّ لك أن تساوم في قرارنا الّذي صادقنا عليه بالإجماع.

أومأ الحاجّ عبد اللّه موافقاً وقال سي الحسين بنبرة المنتصر:

- والآن هيّـا احتمـوا ببيوتكـم وتوخّـوا أقـصى درجـات الحيطـة والحـذر، فالخطـر سـيظلّ محدقـاً بنـا مـادام هـذا الغريـب لم يبـارح تخـوم قريتنـا.

لم يكـن الحـاجّ عبـد اللّـه ليتخـاذل عـن المهمّـة الّتـي ألقاهـا عـلى كتفـه حليفـه سي الحسـين عـلى مـرأى ومسـمع مـن جـلّ رجـال القريـة، لذلـك هرول بعـد صلاة الفجـر دون إبطـاء إلى منـزل الشّـيخ محـمّاد وهـو عاقـد العـزم على أن يكـون عنـد حسـن الظّـن.

طـرق البـاب وانتظـر إلى أن فتـح لـه الشّـيخ الّـذي عقـدت المفاجـأة غـير المنتظـرة لسـانه فتخشّـب في مكانـه ذاهـلاً متفكّـراً في السّـبب الّـذي قـد يكـون وراء هـذه الزّيـارة، كانـت العلاقـة بـين الرّجلـين مكفهـرّة اكفهـرار سـماء ملبّـدة بغيـوم متراكمـة تنـذر بطوفـان مدمّـر، لذلـك كانـت هـذه الزّيـارة آخـر مـا كان يمكـن أن يتبـادر إلى ذهـن الشّـيخ.

تكلّـم الحـاجّ أخـيراً بعـد أن ضـاق ذرعـاً بالصّمـت الّـذي سـاد لأكـثر مـمّا ينبغـي:

- السّلام عليكم يا شيخ محمّاد.

تغاضى الشّيخ عن ردّ التّحيّة برعونة وتساءل بدل ذلك بفظاظة:

- أيّ شرّ ساقك إليّ يا نذير الشّؤم؟

تجاهل الحاجّ الإساءة بكياسة وأجاب ببرود وبنبرة مسالمة:

- ما أنا إلاّ رسول، وما عليّ إلاّ البلاغ.

تساءل الشّيخ في نفاد صبر:

- ومن أرسلك؟

ردّ الحاجّ بنبرة الواثق من نفسه:

- أرسلني سي الحسين أصالة عن نفسه ونيابة عن جلّ رجال القرية.

ندّت عن الشّيخ بسمة هازئة وهو يقول في استخفاف:

- ذليلٌ عاذ بقَرْمَلَة.

ثمّ أضاف متسائلا:

- وما رسالتك؟

ردّ الحاجّ بلباقة دون أن يسقط ضحيّة استفزازات الشّيخ المتكرّرة:

- الغريب يجب أن يرحل من فوره.

زمجر الشّيخ في غضب:

- قل لسيّدك إنّ شيخ القرية لا يتلقّى الأوامر من أحد، الغريب ضيفي وقد آويته في بيتي بمحض إرادتي ولا شأن لكم بي.

فكّر الحاجّ عبد اللّه أن يعود أدراجه، ولكنّه أشفق على نفسه أن يرجع بخفّي حنين بعد أن عُقِدَت عليه الآمال، لذلك آثر التريّث والمحاولة من جديد لعلّ مساعيه تؤتي أكلها لذلك قال موضّحاً:

- لم تقل عيباً ولم تقترف ذنباً يا شيخ، لم يتدخّل أحد في شأنك ولم يُخْزِك أحد في ضيفك، والقرية تشكرك على حسن صنيعك، ولكنّ الرّسول الكريم يقول: (لا ضرر ولا ضرار).

طفت على وجه الشّيخ ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- هذا ما علّمكم إيّاه مفتي النّساء ذاك، ألم يعلّمكم قول الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم: (الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ)؟!

ولم ينتظر جواباً بل أضاف:

- أم أنّ الخبيث لا يركب سفينة الدّين إلاّ إذا كان موقناً أنّها ستمخر به عباب أهوائه وملذّاته؟!

قال الحاجّ عبد اللّه بأدب جمّ:

- ما جئتك مناكفاً ولا مماحكاً ولكن جئتك ناصحاً أميناً.

قال الشّيخ في غلظة:

- وأنا في غنىً عن نصيحتك.

ثمّ استرسل وهو يستدير على عقبيه تأهّباً للدّخول ومرسلاً إشارة غير مشفّرة مفادها أنّ المقابلة انتهت:

- عد إلى فقيهك وأخبره أنّني شيخ القرية، وقل له أن يدّخر نصائحه لنفسه فهو أحوج منّي إليها.

ثمّ دخل وصفق الباب وراءه...

لم يبرح الغريب منزل الشّيخ محمّاد إلاّ بعد انصرام ثلاثة أيّام، ولكنّه خرج في تلك اللّيلة على غير هيئته الّتي دخل عليها أوّل مرّة، فقد استبدل أطماره الزّريّة بجلباب متأنّق من جلابيب الشّيخ محمّاد الّتي كان يخصّصها لصلاة العيدين والمناسبات البهيجة، ولولا عيناه البنّيّتان، وحاجباه الكثيفتان، وقدّه الفارع، ما كان أحد ليعرف أنّه الرّجل نفسه مادام أنّه قد حفّ لحيته وشاربه، فبدا وجهه نضراً بعد أن زال عنه شحوب السّفر ووعثاؤه.

دخل المسجد ووجد المصلّين منهمكين في صلاة العشاء. أسدل قبّ جلبابه على رأسه مخافة أن يتعرّف عليه أحد، ثمّ انضمّ إليهم وصلّى معهم حتّى إذا سلّم الإمام وسلّم الرّجال بعده، نهض الغريب وأدّى الرّكعة الّتي تنقصه. وبعد أن أنهى صلاته، سحب نفسه محاذراً إلى زاوية قصيّة في الخلف حيث جلس في جمود كنصبٍ تذكاريٍّ لجنديّ مجهول، لم يُلقِ بالاً للنّظرات المتوجّسة الّتي كان يرشقه بها الرّجال وهم يغادرون المسجد والّتي كان بمقدوره أن يحسّ بها دون أن يراها.

وعندما أصبح المسجد خاوياً على عروشه إلاّ من الفقيه الّذي جلس في محرابه في همّة وخشوع لم ينل منهما سوى وجود هذا المصلّي المجهول الّذي يزرع الرّيبة في النّفوس، نهض الغريب وسار بخطى رصينة صوب

الفقيه الّذي تحجّرت ملامحه وهو يرى هذا الشّبح يقترب منه اقتراب ريح صرصر عاتية لا أحد يستطيع التّنبّؤ إن كانت ستدمّر في طريقها الأخضر واليابس أم أنّها ستمرّ برداً وسلاماً.

قال الغريب وهو يجلس قبالة الفقيه ويرفع عن رأسه قبّ جلبابه:

- السّلام عليكم أيّها الفقيه.

أجاب الفقيه الّذي لم يتجشّم عناءً كبيرا حتّى يتعرّف على الغريب:

- وعليكم السّلام.

ثمّ استطرد وهو يتفحّص محاوره من أعلاه إلى أدناه بنظرة يمتزج فيها الذعر والحنق:

- كلّما غيّرت الحرباء لونها إلاّ ودلّ ذلك على أنّ فريسة ما من الحشرات أو الهوامّ توشك على أن تلقى حتفها.

تفرّس فيه الغريب بنظرة تنبض بالكراهية وقال:

- لا أرى أيّ ضير إن خلّصت حرباءُ البشريّةَ من هامّة مسمومة تنشر سمومها بين العباد، وتُشيع الفاحشة في البلاد، ولا تخشى يوم التّناد.

أحسّ الفقيه إحساس من انغرست مدية حادّة في صدره فمزّقته إرباً بلا رحمة، شعر أنّ الخطر يحيق به من كلّ جانب ولا قدرة له على تلافيه.

لذلك قال مغيّراً دفّة الحديث محاولاً الابتعاد عن الخطر قدر الإمكان والنّجاة قبل فوات الأوان:

- تفضّل بالمغادرة أرجوك، فبيت اللّه ليس المكان الأنسب للمشاحنة والمماحكة.

قال الغريب بلهجة حازمة:

- ما أتيتك مُشاحِناً ولا مُماحِكاً.

تساءل الفقيه بامتعاض ونفاد صبر:

- وما الّذي أتى بك إذن؟!

بانت على الغريب علامات الجدّ وهو يقول:

- رأيـت رؤيـا وأتيتـك أسـتفتيك فيهـا، فأفتنـي في رؤيـايَ إن كنـت ممّـن للرؤيـا يعـبرون.

هزّ الفقيه كتفيه استخفافاً وهو يقول:

- أضغاث أحلام، وما أنا بتفسير الأحلام من العالمين.

صاح الغريب في إصرار:

- ليس قبل أن تسمع منّي.

بـادره الفقيـه بالسّـؤال مسـتعجلاً وكأنّـه يهـمّ بإزاحـة ثقـل يجثـم عـلى صـدره:

- هه...! ماذا رأيت؟

مـال الغريـب برأسـه قليـلا إلى الأمـام، وقـال كأنـه يهمـس للفقيـه بـسرّ لا ينبغـي لغـيره أن يسـمعه:

- رأيـت في مـا يـرى النّائـم أنّنـي أذبـح رجـلاً كـما يُذبَـح الخـروف مـن الوريـد إلى الوريـد.

اتّسعت عينا الفقيه وتلألأ في حدقتيهما ذعر مريع.

واصل الغريب غير مكترث بالهلع الّذي اعترى الفقيه:

- ومـا أثـار اسـتغرابي أنّنـي لم أشـعر بـأيّ نـدم أو تبكيـت للضّمـير. بـل عـلى العكـس تمامـاً رحـت أترنّـم في حبـور وأرقـص في جـذل وكأنّنـي حقّقـت فـوزاً كابـدت الأمرّيـن قبـل الوصـول إليـه.

تساءل الفقيه في ارتباك لم يستطع مداراته:

- ومـن هـو الذّبيـح يـا تـرى؟! ومـا هـي الجريـرة الّتـي أخذتـه بهـا لتصنـع بـه هـذا الصّنيـع الشّـنيع دون أدنى إحسـاس بالشّـفقة والرّحمـة؟!

ضيّق الغريب عينيه ورمق الفقيه بنظرة حادة وأجاب شارحاً:

- أمّـا الذّبيـح فلـم أتبـيّن ملامحـه جيّـداً، ولكنّنـي رغـم ذلـك أسـتطيع الجـزم أنّـه بـدا أقـرب إلى الشّـيطان منـه إلى الإنسـان. وأمّـا الجريـرة الّتـي أخذتـه بهـا، فأظـنّ أنّ في جـوابي عـن سـؤالك الأوّل جوابـاً ضمنيّاً عنهـا، فالجرائر الّتـي تديـن الشّـيطان لا تُعـدّ ولا تُحـصى، لا تـكاد تحفظهـا دفّتـي كتـاب ولا تتحمّـل أوزارهـا أوراق صحيفـة. وإذا ظهـرت الجريـرة بطلـت الحـيرة، وإنّـه لمـن الحماقـة أن تسـأل شـخصاً لم قتلـت الشّـيطان.

قال الفقيه وقد ظهرت على ملامحه علامات الانزعاج:

- والآن بمـاذا يمكننـي مسـاعدتك أيّهـا الغريـب؟ أجـب مـن فضلـك ولا تطنـب.

مسّـد الغريـب ذقنـه في تـؤدة وهـو يقـول بتـأنٍّ وكأنّـه يتلـذذّ بانزعـاج الفقيـه:

- سبق وقلت لك أنّني جئتك أستفتيك في رؤياي.

صاح الفقيه من فوره في ضيق:

- وسبق وقلت لك ما أنا بتفسير الأحلام بعالم.

قال الغريب بدم بارد:

- هل لي بسؤال؟

ردّ الفقيه وهو يحاول كظم غيظه:

- تكلّم.

تساءل الغريب:

- هل للقاتل من توبة؟

أجاب الفقيه بعد أن أطرق وتقمّص شخصيّة مفتٍ ورع:

- اللّـه عـزّ وجـلّ يقـول:{إِنَّ اللّـهَ لَا يَغْفِـرُ أَنْ يُـشْرَكَ بِـه وَيَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذَلِـكَ لِمَـنْ يَشَـاء}.

رفع الغريب بصره إلى الفقيه محاولا دحض كلامه بالحجّة والدّليل:

- واللّـه عـزّ وجـلّ أيضـا يقول:{وَمَـن يَقْتُـلْ مُؤْمِنـاً مُّتَعَمِّـداً فَجَـزَاؤُهُ جَهَنَّـمُ خَالِـداً فِيهَـا وَغَضِـبَ اللّـهُ عَلَيْـهِ وَلَعَنَـهُ وَأَعَـدَّ لَـهُ عَذَابـاً عَظِيـماً}.

صاح الفقيه مستهزئاً:

- هـه...! لسـت في حاجـة إذن إلى فتـواي مادمـت قـادراً عـلى أن تُفتـي في الموضـوع بنفسـك، يبـدو أنّ لوثـةً مـا قـد أصابـت عقلـك بسـبب الأفـكار الخرقـاء الّتـي دسّـها فيـه ذلـك الشّـيخ البغيـض كـما يُـدَسّ السّـمّ في الطّعـام.

ثـمّ حمـل جسـمه الثّقيـل ووقـف وهـو يقـول بنـبرة تنطـوي عـلى تهديـد ووعيـد:

- هيّـا اغـرب عـن وجهـي ولا تعـد إلى هـذا المـكان مـرّة أخـرى وإلاّ فـلا تلومـنّ إلاّ نفسـك.

نهـض الغريـب في اطمئنـان عجيـب وكأنّـه لم يكـترث بتهديـد الفقيـه، وسـار بخطـى رصينـة صـوب بـاب المسـجد وهـو يـردّد الآيـة الكريمـة:

- {وَلَكُم فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلّكُم تَتَّقُون}.

ثمّ خرج تاركاً سي الحسين يغوص في حيرة لا قرار لها...

(١٥)

لحظة انكسار الملاك

عندما نفضت حنان عن أجفانها رداء النّوم بعد ليلة حالمة، هرعت إلى المركز الصّحّيّ في همّة فلاّح يهرع إلى حقله بعد أن منعه عنه المرض لشهور حتّى هاجه الشّوق إلى كلّ ذرّة تراب منه، كان قلبها مفعماً بيقين لا يساوره أدنى شكّ في أنّها ستجد على باب المركز أمّة من النّاس يشكون، طوابير من الرّجال والنّساء والشّيوخ والأطفال أقبلوا من كلّ فجّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويشكروا اللّه على نعمة الطّبيبة الّتى حطّت في قريتهم المنكوبة كما تحطّ طائرة محمّلة بالأدوية والأطعمة والأغطية في أرض ضربها زلزال أو أغرقها فيضان.

ولكن لو كان كلّ ما يتمنّاه المرء في هذه الدّنيا يدركه، لما كانت الجنّة الّتي وُعِد المتّقون لتُسيل لعاب أحد، فهاهي الشّمس تلملم خيوطها مؤذنة برحيل وشيك دون أن يطرق باب المركز أحد يشكو المرض وينشد العلاج، وهاهي الطّبيبة تجلس وحيدة إلى كرسيّها تنقر بقلمها على سطح مكتبها في عصبيّة تحاول تبديد السّكون الّذي يطوّق المكان، فلولا الشّيخ محمّاد الّذي يُقبل ويُدبر بين الحين والحين في خفّة زنبور، لحسبت حنان أنّها في جزيرة مهجورة أو أنّها في أرض لم يعرف المرض إليها سبيلاً.

في غمرة هذا السّكون الرّهيب، طرق سمع حنان قرع خفيف

علـى البـاب، رفعـت بصرهـا في اهتـمام مبالـغ فيـه فلمحـت عـادل يطـلّ برأسـه وابتسـامة صافيـة تتـلألأ عـلى شـفتيه.

رسـمت عـلى شـفتيها ابتسـامة جاهـدت كثـيراً حتّـى تجعلهـا بمقـدار صفاء ابتسـامته، ثـمّ قالـت مرحّبة:

- تفضلّ أستاذ عادل.

دلـف إلى الدّاخـل حتّـى إذا أضحـى عـلى مقربـة منهـا، وقفـت وصافحتـه بحـرارة وهـي تدعـوه إلى الجلـوس.

بعـد أن تمتـم بعبـارات الشـكر وهـو يجلـس، أردف عـادل بصـوت متهـدّج وكأنّـه مضطـرّ لتقديـم ذريعـة يـبرّر بهـا حضـوره:

- جئـت أطمـئنّ عليـك... أقصـد أطمـئنّ عـلى عملـك، أتمنّـى أن يكـون يومـك الأوّل في العمـل موفّقـاً.

ابتسـمت في اسـتخفاف وقالـت وهـي تنقـر عـلى سـطح المكتـب بقلمهـا في اضطـراب:

- عـن أيّ عمـل تتحـدّث؟! إنّنـي لم أرَ طـوال اليـوم سـوى الشّـيخ محـمّاد يظهـر ويختفـي بـين الحـين والحـين مثـل ثعلـب محمـد زفـزاف!

انفجر عادل ضاحكاً وتساءل ممازحاً:

- لا تحاولي إقناعي أنّك من عشّاق قراءة الرّوايات.

قهقهت بدورها وهي تحاول مجاراته في مزاحه قائلة:

- لا أبداً. لست من عشّاق قراءة الرّوايات.

ثمّ استطردت:

- بل أنا من مدمني قراءة الرّوايات.

هتف عادل في جذل:

- عظيم! عظيم! وأخيراً عثرت على من يشاطرني نفس الإدمان.

ضحكت ملء فمها وهي تقول:

- أتعلم أنّ الخلوة تُذكي نيران الإدمان كما يُذكي في النّفوس الضّعيفة الوساوسَ الشّيطانُ؟!

كشف عادل عن صدره في بطولة مصطنعة وقال في هزل وهو يربّت عليه بيده في تباهٍ:

- أخوك حاصل على ماجستير في الخلوة ودكتوراه في الإدمان.

ثمّ تابع متسائلاً في تحدٍّ ساخر:

- هه...! وأنت؟ أطلعينا على مؤهّلاتكِ ننظر أنقبلك في نادي الخلوة والإدمان أم تكونين من الّذين لا يُقبَلون.

ضحكت حنان كما لم تضحك من قبل بعد أن نسف عادل بروحه المداعبة جبل الإحباط الّذي كان جاثما على قلبها بعد يوم عمل أوّل للنّسيان.

قالت بصوت مختلج وهي تحاول الكفّ عن الضّحك وتمسح بكفّيها قطرات الدّموع الّتي سالت على وجنتيها في لحظة فرح شاذّة:

- أختك حاصلة على شهادة الباكالوريا في الإدمان. ولكنّني في الخلوة لم أتجاوز بعد المرحلة الابتدائية.

مطّ عادل شفتيه وهزّ رأسه وكأنّه مستغرق في تفكير عميق ثمّ قال:

- حسناً حسناً. سنقبلك في نادينا إذن، فنحن في أمسّ الحاجة إلى طاقات شابّة مثلك لتجدّد الدّماء فينا وتحمل اللّواء من بعدنا.

واصل عادل كلامه متسائلاً بعد أن تخلّى عن دعابته واتّسمت نبرته بالجدّيّة:

- هل حقّاً لم يزرك أيّ مريض اليوم؟!

قالت حنان مؤكّدة:

- رغم أنّ الشّيخ محمّاد أرغم «البرّاح» مراراً على أن يجوس القرية ليعلم السّكّان أن المركز قد فتح أبوابه ويدعو كلّ مريض للقدوم قصد العلاج. بل أرسل حتّى من يذيع الخبر في القرى المجاورة، ألا ترى أنّ الأمر غريب؟!

زمّ عادل شفتيه متحسّراً وهمّ بالجواب ولكنّه أحجم عندما تعالى رنين هاتف حنان معلناً عن مكالمة واردة.

حملت حنان هاتفها من على سطح المكتب ونظرت في شاشته وهي تقول في فرح:

- ماما.

ضغطت على زرّ قبول المكالمة وقالت في جذل:

- مرحباً ماما اشتقت إليك كثيراً.

قالت سعاد بنبرة كابدت حتّى تبدوَ طبيعيّة قدر الإمكان:

- وأنا أيضا يا ابنتي.

ثمّ أردفت متسائلة:

- كيف قضيتِ يومك الأوّل في المركز؟ أتمنّى ألاّ يكون الإرهاق قد نال منك، فأنا أعرف كم أنت مشتاقة للعمل.

كتمت حنان على شفتيها ضحكة ساخرة وقالت:

- سأتّصل بك ليلاً وأخبرك بكلّ شيء بالتّفصيل المملّ، فأنا أعرف أنّك تعشقين التّفاصيل، أنا الآن لازلت في المركز.

قالت سعاد معتذرة:

- آسفة أنّني اتّصلت بك في هذا الوقت غير المناسب، لم يخطر ببالي أنّ المركز سيكون غاصّاً بالمرضى لهذه الدّرجة وحتّى هذا الوقت المتأخّر،

على العموم أنا اتّصلت بك فقط كي أخبرك بأمر ما، ولكن من الأفضل أن نؤجّله إلى اللّيل فمن العيب أن تتركي مرضاكِ ينتظرون.

هتفت حنان في إصرار:

- لا يوجد مرضى الآن يا أمّي. كنت على وشك الانصراف عندما اتّصلت. هه...! ما الأمر الّذي تودّين إخباري به؟!

جاءها صوت أمّها حزيناً:

- أختك علياء...

قاطعتها حنان مذعورة:

- ما بها علياء؟! تكلّمي يا أمّي أرجوك!

قالت سعاد مطمئنة:

- لا داعي للهلع يا ابنتي، هي الآن بخير.

صرخت حنان:

- هي الآن بخير؟! يعني أنّها لم تكن كذلك! أرجوك يا أمّي أفصحي فالوقت ليس وقت أحاجي، وأعصابي لا تتحمّل المزيد من الضّغوط.

قالت سعاد وهي تحاول أن تنتقي بعناية المصطلحات الّتي من شأنها ألاّ تزرع الرّعب في قلب ابنتها:

- لعلّك تدركين يا ابنتي أنّ شوارعنا لم تعد آمنة كما كانت من قبل، تعرّضت أختك لسطو مسلّح وهي في طريق عودتها إلى البيت ليلة البارحة...

صرخت حنان مذعورة حتّى تزاحمت الأسئلة على طرف لسانها لا تدري بأيّ سؤال تبدأ وهي التّوّاقة لمعرفة كلّ التّفاصيل دفعة واحدة:

- يا إلهي...! سطو مسلح؟! كيف حدث ذلك؟! أين هي الآن؟! هل هي بخير؟!

أدركـت سـعاد أنّهـا فشـلت في انتقـاء المصطلحـات الكفيلـة بإيصـال الخـبر بأقـل جرعـة ممكنـة مـن الهلـع، لذلـك اسـتدركت قائلـة:

- لا تخـافي يـا ابنتـي، هـي الآن بخـير، لم يحـدث لهـا مكـروه سـوى جـرح بسـيط عـلى مسـتوى المعصـم. أُصيبـت بـه عندمـا حاولـت مقاومـة المعتـدي الّـذي حـاول سـلبها حقيبـة يدهـا وهاتفهـا المحمـول مسـتخدماً سـاطوراً بغرض بـثّ الرّعـب في نفسـها.

صاحت حنان مؤنّبة:

- لماذا لم تخبروني بالحادث قبل الآن؟!

واصلت في ريبة:

- أظـنّ أنّـك تخدعينـني يـا أمّـي. أشـعر أنّ الأمـر أخطـر مـمّا ذكـرتِ. هــه...! أيـن هـي عليـاء الآن؟!

أجابت سعاد في ثقة هذه المرّة:

- هـدّئي مـن روعـك يـا ابنتـي، عليـاء بجانبـي الآن في المنـزل، لم تمكـث في المستشـفى أكـثر مـن سـاعتين، الأمـر بسـيط كـما قلـت لـك، تفضّـلي كلّميهـا بنفسـك كي تطمئنّـي.

قالت حنان في حزم:

- طبعاً أودّ أن أكلّمها، ناوليها الهاتف رجاءً.

جاءها صوت واهن من الطّرف الآخر من الخطّ:

- أهلاً حنان، لا تقلقي عليّ أنا بخير.

هتفت حنان متسائلة في نفاد صبر:

- اصدقيني القول يا علياء، هل أنت بخير أم أنّ أمّي تكذب عليّ؟!

قالـت عليـاء وهـي تحـاول أن تبـدّد مخـاوف أختهـا بضحكتهـا العذبـة ونبرتهـا الواثقـة:

- القصّة تماماً كما روتها أمّي، الخسائر لا تتعدّى حقيبة يد وهاتف محمول وجرح بسيط وفزع مهول.

ثمّ استطردت وهي تضحك:

- سترسل لك ماما الصّور حتّى تطمئنّي أكثر.

قالت حنان وهي تسحب نفساً وتزفر بعمق وكأنّها للتّوّ خرجت من قبو خانق:

- حمداً للّه على سلامتك يا علياء، في وسعي تخيّل حجم الفزع الّذي أصابك. يا إلهي...! لشدّ ما كنت أخال أنّ مثل هذه الأخطار بعيدة عنّا بعد السّماء عن الأرض! كنت أظنّها لا تحدث إلاّ في الرّوايات والأفلام. ناولي الهاتف لماما.

قالت سعاد بنبرة هادئة:

- هه...! أظنّ الآن أنّك صدّقت كلامي!

قالت حنان في تسليم من لا يملك من الأمر شيئاً:

- أتمنّى ذلك يا ماما، أتمنّى ذلك من كلّ قلبي.

هتفت كأنّها خشيت أن تكون أمّها قد أنهت الاتّصال:

- ماما!

قالت الأم في ودّ:

- نعم يا ابنتي.

استدركت حنان متسائلة:

- ماذا عن المعتدي؟! هل تمكّنت منه يد العدالة؟!

أجابت سعاد متحسّرة:

- للأسف يا ابنتي، لقد لاذ الجبان بالفرار.

واصلت حنان تساؤلاتها كأنّها في مكتب تحقيق:

- هـل تعرّفـت عليـه؟! أقصـد هـل تسـتطيع التّعـرّف عليـه لـو حـدث ورأتـه مـرّة أخـرى؟!

أجابت الأمّ في شكّ:

- تقـول أنّهـا ربّمـا تسـتطيع التّعـرّف عليـه وربّمـا لا، لا شيء يميّـزه عـن غيره مـن الشّبّان سـوى تسريحـة شعره الغريبـة، إذا لم يغيّرهـا فستكون هـي الخطـام الّـذي سيقوده للاعتقـال.

صاحت حنان في تحمّس:

- لا تسـتهينوا بالأمـر، يجـب أن يلقـى الجـاني جـزاءه حتّـى يكـون عـبرة لمـن تسـوّل لـه نفسـه إلحـاق الأذى بالآخريـن.

ثمّ أردفت وكأنّها تذكّرت للتّوّ أنّها طبيبة:

- الجـروح العضويـة قـد تُشـفَى بعـد حـين، ولكـنّ الجـروح النّفسـيّة قـد لا تلتئـم بسرعـة، وقـد تـترك في أعماقنـا ندوبـاً لا يمحوهـا تعاقـب الشّـهور ولا تـوالي السّـنين.

تنهّدت سعاد بعمق وهي تقول:

- الحمـد للّـه عـلى ألطـاف اللّـه، لقـد أبانـت أختـك عـن رباطـة جـأش كبـيرة، وبسـالة مـا كنّـا نحسـب أنّ فتـاة مدلّلـة مثلهـا تمتلكهـا.

ثمّ استطردت بنبرة حازمة:

- أبـوك عـازم عـلى أن يتعقّـب الجـاني حتّـى يقـع في الأسر. فأنـت تعرفينـه جيّـدا، قـد يسـامح مـن يلحـق ضرراً بليغـاً بحدقـة عينـه، ولكنّـه لا يسـامح أبداً مـن يفكّـر، مجـرّد التّفكـير، في لمـس شـعرة واحـدة مـن ابنتـه المدلّلـة.

قالت حنان ضاحكة:

- آه يا أمّي لا تذكّريني! فأوار الغيرة يستعر في قلبي.

قالت سعاد في دلال:

- لا يكفيك حبّي إذن؟!

أجابت حنان في دلع:

- بـل يكفينـي ويزيـد يـا حبيبتـي. نكمـل كلامنـا ليـلاً، إلى اللّقـاء وبلّغـي سـلامي للجميـع.

قالت سعاد في نبرة تنزّ حبّاً وشوقاً:

- إلى اللّقاء يا حبيبتي.

كان عـادل يتابـع مجريـات الحـوار باهتـمام مبالـغ فيـه، وقـد بـدا أنّـه فهـم معظـم مـا قيـل، لذلـك لم يكـن في حاجـة لأن يسـأل، بـل اكتفـى بالقـول وملامحـه تكسـوها علامـات الحـسرة:

- حمداً للّه على سلامة أختك.

قالت حنان في امتنان:

- شـكرا لـك، لقـد كان كابوسـاً فظيعـاً، الحمـد للّـه أنّ الأمـور انتهـت بهـذا الشّـكل، وإلاّ لكانـت الخسـائر فادحـة.

تابعـت بصـوت مكتـوم وهـي تدفـن وجههـا بـين كفّيهـا وتخلّـل شـعرها بأصابعهـا:

- يا إلهي...! لا أستطيع تخيّل ذلك.

في هـذه الأثنـاء، ظهـر عـلى البـاب الشّـيخ محـمّاد وهـو يدفـع أمامـه الضّاويـة، كـما يدفـع فـلاّح بقـرة في سـوق المـواشي، وهـو يقـول بصوتـه الجهـوريّ:

- السّلام عليكـم، هاهـي الضّاويـة يـا دكتـورة، إنّها طـوع أمرك، ستسـاعدك في المنـزل وفي المركـز متـى احتجـتِ لذلـك، إنّهـا كالبغلـة: لا تـكلّ مـن العمـل ولا يصيبهـا الملـل. لا يتسـلّل إليهـا التّعـب ولا تعـرف معنـى النّصـب.

حدّقت فيه حنان في غضب وقد أصابها الذّهول ممّا سمعت وقالت بنبرة تحمل كلّ معاني الحنق والتّوبيخ:

- لا أسمح لك بأن تقول مثل هذا الكلام مرّة أخرى للضّاوية أسمعت؟! ولا شأن لك بها منذ اليوم، أنا سأتولّى أمرها.

أطرق الشّيخ وهو يتمتم بكلام غير مفهوم، في حين رنت حنان إلى الضّاوية في إشفاق وهي تدعوها للاقتراب وتقول بلهجة حانية:

- اقتربي يا الضّاوية، أخبريني هل لديك هاتف؟

صاح الشّيخ في ازدراء:

- وما حاجة جاهلة مثلها لهاتف؟!

رمقته حنان بنظرة شزراء دون أن تتفوّه بكلمة، فاضطرّ لتوديعهم على مضض وانصرف إلى حال سبيله.

قالت حنان وهي تربّت على كتف الضّاوية في حنوّ وترنو إلى عادل في إعجاب:

- لقد قضت معي الضّاوية أسبوعاً كاملاً تساعدني في أعباء البيت، تزورني كلّ يوم تقريباً، إنّها ربّة بيت ماهرة وتضطلع بمسؤولياتها بجدّ ومثابرة، إنّني أشعر أنّني لم أعد قادرة على الاستغناء عنها.

ثمّ واصلت متسائلة وهي تنظر في عيني الضّاوية في جذل:

- هه...! هل لديك هاتف؟

أجابت الضّاوية وهي تطرق في خجل لا مبرّر له:

- لا.

قالت حنان:

- عندما أذهب إلى المدينة سأحضر لك معي هاتفاً، أنا أعرف أنّك تنوئين بحمل ثقيل، ولديك بنت صغيرة تحتاج إليكِ أكثر من احتياجي

إليـك، لذلـك فالهاتـف ضروري، بفضلـه سـأتّصل بـك كلّـما كنـت في حاجـة ملحّـة إليـك.

هتـف عـادل وهـو يبتسـم كأنّـه اهتـدى إلى حـلّ معضلـة قضّـت مضجعـه لـردح مـن الزّمـن:

- لـديّ هاتـف إضـافيّ جلبتـه معـي مـن المدينـة أمـس، ولـديّ شريحـة إضافيّـة كذلـك لا حاجـة لي بهـا. هـما مـن نصيبـك يـا الضّاويـة، غـداً أحضرهـما لـك.

تهلّـل وجـه حنـان بالـرّضى، ونبـص قلبهـا بشـعور لم تعـد قـادرة عـلى إخفائـه. وقالـت في حبـور:

- شكرا لك يا عادل، أنت فعلاً إنسان رائع.

ابتسم عادل في امتنان وودّع حنان وخرج صحبة الضّاوية.

عندمـا اسـتلقى عـلى سريـره في إعيـاء، فكّـر أوّل مـا فكّـر في مهاتفـة نعيمـة، ودون تـردّد أجـرى الاتّصـال اليومـيّ الّـذي يطهّـر روحـه مـن الهمـوم كـما يطهّـر المـاء الثّـوب الأبيـض مـن الدّنـس.

ولكـن عندمـا طـرق أذنيـه صوتُهـا المكـدود، أدرك أنّهـا ليسـت بخـير، لذلك بادر بالسّـؤال:

- نعيمة! هل أنت بخير؟!

أجابت مطمئنة:

- لا تخف يا عادل أنا بخير.

قال غير مصدّق:

- ولكنّ صوتك يوحي بغير ذلك، هل أنت مريضة؟!

قالت نافية:

- لا يـا عـادل لسـت أنـا، إنّهـا صديقتـي، لقـد تعرّضـت مسـاء الأمـس

لاعتداء بالسّلاح الأبيض. والأدهى والأمرّ أنّني لم أعلم إلاّ قبل قليل، منذ الأمس وأنا أحاول مهاتفتها دون طائل، ولولا أنّ أمّها اتّصلت بي قبل قليل لتخبرني بالحادث الشّنيع لما عرفت.

زفر عادل في ضيق وهو يقول:

- يا إلهي...! هل تقصدين علياء؟!

تساءلت نعيمة في استغراب:

- وهل تعرفها؟! لا أظنّ أنّني ذكرت اسمها أمامك من قبل! غريب حقّا! كيف عرفت ذلك؟!

ردّ عادل:

- عرفت قبل قليل فقط. هل تذكرين الطّبيبة الّتي أخبرتك ليلة أمس أنّها ستشرع في العمل في المركز الصّحّي للقرية؟!

أجابت نعيمة من فورها:

- أجل أجل. أذكر ذلك جيّدا.

قال عادل شارحاً:

- إنّها حنان أخت علياء، لقد رأيتها قبل قليل وهي من أخبرتني بالحادث الّذي ألمّ بأختها.

صاحت نعيمة في استغراب:

- يا للمصادفة الغريبة! كيف لم يخطر ببالي ذلك؟!

ضحك عادل وهو يقول مداعباً:

- ربّما لأنّك لم تخبريني باسم صديقتك، ولم أخبرك باسم الطّبيبة.

ثمّ واصل كلامه بنبرة تتّسم بالجدّية:

- على العموم لا تقلقي فعلياء بخير، لحسن الحظّ لم يصبها مكروه سوى جرح بسيط سرعان ما سيندمل.

صاحت نعيمة مؤكّدة:

- أجل هذا ما أكّدته لي خالتي سعاد. ولكنّني لابدّ أن أزورها لأطمئنّ عليها. إنّها صديقتي الوحيدة يا عادل.

قال عادل دون تردّد:

طبعاً طبعاً، هذا واجب يا حبيبتي، متى ستذهبين لزيارتها؟

ردّت نعيمة:

- سأذهب الآن، لقد كنت على وشك الخروج عندما اتّصلت بي.

قال عادل في أدب جمّ:

- حسناً، سأتركك إذن تذهبين، قد أتّصل بك ليلاً. اعتنِ بنفسك أرجوك، وحاولي العودة قبل أن يخيّم الظّلام، فالأمن والأمان في بلادنا أصبحا في هذا الزّمان في ندرة المرجان والجمان.

ضحكت ضحكة صافية وهي تقول:

- لا تخشَ عليّ يا حبيبي، اعتن بنفسك أيضاً.

ثمّ استطردت هامسة:

- أحبّك.

قال في ودّ:

- أحبّك أكثر.

في مساء اليوم الموالي، عاد عادل من عمله متعباً، يشتاق جسمه المكدود إلى الرّاحة اشتياق الأسير إلى نسيم الحرّيّة، ولكنّه أبى إلاّ أن يكابد الإرهاق من أجل الوفاء بدين قطعه على نفسه. لقد نذر نفسه لخدمة هذه القرية الّتي تبدو وسط هذه البلاد الشّاسعة كجرو تخلّت عنه كلبة ضالّة في أرض فلاة، ترك بيته الصّغير وراءه، وسار يحثّ الخطى صوب المركز الصّحّي وهو يمنّي نفسه برؤية الحياة تدبّ فيه بعد أن تركه بالأمس أشبه برمس وسط المقابر.

وما أشبه اليوم بالبارحة! فهاهي حنان تجلس خلف مكتبها في جمود وكأنّ الزّمان قد توقّف منذ أن تركها مساء الأمس.

كان عادل متيقّناً أنّه لو سألها كم لبِثَتْ؟ لقالت: لبثت دقيقة أو بضع دقائق!

حيّاها ثمّ سأل وهو يتمنّى في قرارة نفسه أن يسمع جواباً غير ما كان يوحي به السّكون الّذي كان يغمر المكان والإحباط الّذي كان يعلو وجه الطّبيبة:

- هه...! هل من مرضى اليوم؟

أجابت بنبرة ساخرة:

- كما ترى. لا أحد! يبدو أنّ اللّه أنزل شآبيب رحمته على أهل هذه القرية مباشرة بعدما وطئت قدمايَ أرضها.

قال عادل هامساً كأنّه يحدّث نفسه:

- غريب! فقد صادفت في طريقي بعض النّساء متّجهات صوب سي الحسين، ولا أظنّهنّ يقصدنه إلاّ طلباً للعلاج.

رفعت حنان رأسها في اهتمام وهي تسأل:

- من يكون سي الحسين هذا؟! أعتقد أنّني سمعت هذا الاسم من قبل!

قال عادل وهو يهرش رأسه:

- لابدّ أنّك سمعتِ اسمه من الشّيخ محمّاد، فهو لا يلبث يلهج بذكره في كلّ حين.

صاحت حنان:

- آه صحيح. تذكّرت الآن، ولكن من يكون هذا الرّجل؟!

قال عادل ممازحاً:

- سي الحسين؟! إنّه «جوكر» القرية.

ضيّقت حنان عينيها تطلب المزيد من الإيضاح.

واصل عادل موضّحا بلهجة جادّة هذه المرّة:

- سي الحسين هو رجل القرية الأوّل، لا يجرؤ أحد على السّعال أو التّثاؤب إلاّ بعد إذنه. لا صوت يعلو فوق صوته، ولا قرار يُتَّخَذ دون استشارته. هو الإمام الّذي يؤمّ المصلّين، والفقيه الّذي يعلّم أطفال القرية القرآن وأمور الدّين، وهو الطّبيب الّذي يداوي المرضى الّذين أضناهم الأنين. إذا وُلِد الطّفل أعْذَره، وإذا مات الرّجل غسّله، يضمّ السّكّان في راحة يده مثل حبّات الفول، ولا يخرج عن طوعه سوى الشّيخ محمّاد وبعض الفلول.

فغرت حنان فاها في اندهاش وصاحت:

- لَعَمْري إنّك لأفصح من سمعت! لكأنّي بك تطوّع الحروف تطويعاً، قل لي بربّك واصدقني القول: أتكتب الشّعر أو الرّواية؟!

ابتسم عادل في زهو لم يستطع إخفاءه وقال:

- ذلك موضوع آخر قائم بذاته، سنخصّص له من الوقت ما يكفيه.

ثمّ استطرد متسائلاً وهو يعيد سحب الحديث إلى مجراه الطّبيعيّ:

- هه...! ما رأيك فيما سمعتِ عن سي الحسين؟

زمّت شفتيها وسكتت برهة ثمّ قالت مستفهمة:

- أتقصد أنّ سي الحسين هذا قد يكون ظالعاً في الموضوع؟!

زمّ عادل شفتيه وبسط ذراعيه وهزّ كتفيه وهو يقول:

- ربّما... من يدري؟! رجل بهذا النّفوذ قد نتوقّع منه أيّ شيء.

أردف محـاولاً التّقليـل مـن أهمّيـة الموضـوع حتّـى لا يثـير مخـاوف الطّبيبة ويثبّـط مـن عزائمها:

- دعينـا مـن هـذا الموضـوع الآن، فالأمـور سـتنحو منحـى طيّبـاً في الأيّـام القادمـة ولا ريـب، هـل زارتـك الضّاويـة اليـوم؟

تنهّدت في حسرة وقالت:

- نعـم لقـد زارتنـي صباحـاً، لشـدّما تأثَّـرْتُ وهـي تحـكي عـلى مسـامعي قصّـة والديهـا وأختهـا السّـعدية الّتـي خطفهـا المـوت في ريعـان شـبابها مخلّفـة وراءهـا ابنـاً كسـيحا، لا حـول لـه ولا قـوّة! النّـاس يعانـون هنـا يـا عـادل. يعانـون في صمـت وكأنّهـم يعيشـون في قمقـم مختـوم، لا أحـد يسـتطيع سـماع صراخهـم سـوى مـن نفـذ حبّـه إلى قلوبهـم الطّيّبـة وكسـب ثقتهـم.

ضحك عادل ضحكة صافية مثل الماء الزّلال وقال:

- أبعدمـا قضيـتِ تسعة أيّـام فقـط هنـا تقولـين هـذا الـكلام؟! ومـا عسـاي أقـول وأنـا الّـذي عشـت هنـا تسـعة أعـوام؟!

لاذت حنـان بالصّمـت، وشرعـت تتفـرّس في ملامـح هـذا الشّـابّ الجالـس أمامهـا كمـلاك لا يملـك المـرء إلاّ أن يحبّـه.

شـاع الصّمـت لأكـثر مـمّا ينبغـي حتّـى شـعر عـادل بالارتبـاك يعتريـه، لذلـك أردف بشـفتين مرتعشـتين وهـو يخمـد يـده في جيبـه ويسـتلّ هاتفـاً محمـولاً ويمـدّه لحنـان:

- الهاتف...الّـذي وعـدت بـه الضّاويـة البارحـة، إنّـه يحتـوي عـلى شريحـة، يمكنهـا البـدء باسـتعماله منـذ اليـوم، كـما يمكنهـا أن تتدبّـر أمـر الشّـاحن إلى أن أشـتري لهـا واحـداً.

أخـذت منـه الهاتـف دون أن تنبـس بكلمـة، ووضعتـه أمامهـا فـوق المكتـب دون أن تتفحّصـه طالمـا أنّهـا لم تسـتطع كبـح نفسـها عـن التّأمّـل في قسـمات حبيبهـا.

لمّا لاحظ شرودها الّذي أصابه بالتّيه، قام عادل من كرسيّه وهو يقول مودّعاً:

- إلى اللّقاء حنان.

سار بخطوات خاملة نحو الباب دون أن يسمع منها كلمة تدلّ على أنّها لا تزال معه في نفس المكتب. وعندما همّ بالخروج، جاءه صوتها ناعماً كأنّه صوت فيروز:

- عادل!

استدار على عقبيه وتطلّع إليها في فضول وهي تقول وابتسامة عذبة تزيّن شفتيها:

- شكرا لك.

ابتسم في امتنان ورحل تاركاً حنان تعبث في خصلات شعرها في حبّ.

تابت من شرودها اللّذيذ كما يتوب النّائم من حلم جميل، أخذت الهاتف بين أناملها وشرعت تتأمّله في اهتمام، جحظت عيناها وهي تقلّب الهاتف يمنة ويسرة.

هتفت تكلّم نفسها في عدم تصديق:

- يا إلهي...! كأنّه هو.

أردفت تناجي نفسها:

- بل أكاد أجزم أنّه هو.

أبعدت الهاتف عن عينيها وهي تمعن النّظر إليه وتقول في يقين يشوبه القليل من الشّكّ:

- إنّه هو. إنّني أستطيع التّعرّف عليه من بين الآلاف من الهواتف.

تابعت في حيرة:

- ولكن كيف؟! كيف؟! كيف وصل هاتف علياء إلى عادل؟! يا للهول!

لا أستطيع حتّى تخيّل ذلك. لابدّ أنّ في الأمر لبساً ما.

حملت هاتفها في توتّر وطلبت رقم أمّها.

- مرحباً ماما.

جاءها صوت أمّها رقيقاً:

- مرحبا حبيبتي. أتمنّى أن تكوني قد قضيتِ يوما مميّزاً.

قالت في قليل من المبالاة:

- جيّد جيّد يا أمّي.

واصلت في عجلة:

- هل لديك رقم علياء الجديد؟

ردّت سعاد بنبرة باسمة:

- أجل يا حبيبتي، فأنت تعرفين علياء، تستطيع أن تقضي يوماً كاملاً من دون أكل، ولكنّها لا تستطيع قضاء دقيقة واحدة من دون هاتف، لقد أجبرت أباك على أن يشتري لها هاتفاً جديداً ونحن في طريق عودتنا من المستشفى إلى البيت. هل تصدّقين ذلك يا ابنتي! ظننّا أنّها لو قضت ليلتها من دون هاتف لأصابها مسّ من الجنون.

قهقهت سعاد بينما قالت حنان:

- أرجو أن ترسلي لي رقمها الجديد حالاً.

قالت سعاد:

- حاضر يا ابنتي، سأرسله لك على الفور.

وماهي إلاّ لحظة حتّى رنّ هاتف حنان وأضاءت شاشته معلنة عن قدوم رسالة نصّيّة. فتحت حنان الرّسالة وسجّلت رقم أختها في ذاكرة هاتفها وأجرت الاتّصال دون تردّد:

- الو علياء حبيبتي، أتمنّى أن تكوني بخير.

قالت علياء بصوت ينضح قوّة وكأنّها تريد أن تثبت لأختها أنها على ما يرام:

- بخير يا حبيبتي وأنت؟

أجابت حنان على مضض:

- أنا أيضاً بخير. شكراً لاهتمامك.

أردفت متسائلة:

- أخبريني يا علياء، هل تستطيعين وصف الشّابّ الّذي اعتدى عليكِ؟!

أجابت علياء وقد استعادت نبرتها الهازئة من جديد:

- هل تخلّيتِ عن الطّبّ لتصبحي محقّقة؟!

صاحت فيها حنان معاتبة:

- أرجوك يا علياء تحلّي بالجدّية ولو لمرّة واحدة في حياتك.

تمتمت علياء:

- حسناً، أظنّ أنّني لو قابلته مرّة ثانية ربّما أتمكّن من التّعرّف عليه، إنّ له شعراً مميّزاً، كثيف ومنتصب من الأعلى كإبر حادّة، وحليق من الجانبين. وكان يرتدي قميصاً أحمر أشبه بتلك القمصان الّتي يرتديها لاعبو كرة السّلّة. هذا كلّ ما استطعت أن ألمحه في خضمّ الفزع الّذي انتابني حينها.

استطردت علياء متسائلة في فضول:

- ولكن لماذا هذا السّؤال يا حنان؟!

أجابت حنان وهي تحاول إبداء عدم الاهتمام:

- مجرّد سؤال تبادر إلى ذهني في هذه اللّحظة فأحببت أن أعرف الجواب، من يدري قد يفيدنا يوماً!

قالت علياء في عدم اقتناع:

- ربّما.

بعدما أنهت حنان اتّصالها، وجدت نفسها من جديد بين كفّي ذلك السّؤال المرعب الّذي يحاول افتراسها بكلّ وحشيّة: كيف وصل هاتف علياء إلى عادل؟!

لم تكن تملك من الطّاقة والصّبر ما يلزم لكي تبيت ليلتها تحاول الجواب عن سؤال تعلم يقيناً أنّها لن تجيب عنه ولو أمضت عمرها كلّه تبحث عن الإجابة، لم تكن تنوي أن تمضي ليلتها عرضة للوساوس وفريسة للهواجس، لذلك اغتبطت لمّا رأت الشّيخ محمّاد مقبلاً يجرّ قدميه ويمسح المكان بعينيه.

بادرته بطلبها قبل أن يخوض في كلام لا رغبة لها فيه:

- من فضلك يا شيخ محمّاد. هلاّ تكرّمت وذهبت لمناداة الأستاذ عادل، إنّني أحتاجه في أمر مهمّ.

تمتم الشّيخ:

- آه... الأستاذ عادل.

ثمّ استدار على عقبيه راجعاً من حيث أتى قبل أن يعود ويقول مقترحاً:

- إذا كنت ترغبين في رقم هاتفه فهو معي.

قالت وهي تبَشّ في وجهه في امتنان:

- سأكون ممتنّة لك. شكراً لك.

سجّلت الرّقم في ذاكرة هاتفها، وتشاغلت بترتيب بعض الأوراق أمامها حتّى يتسنّى للشّيخ المغادرة دون أن تمنحه فرصة لثرثرته الّتي لا تنتهي.

ما إن انصرف الشّيخ محمّاد حتّى أخذت هاتفها واتّصلت بعادل.

جاءها صوته العذب:

- الو من معي؟!

أجابت على الفور:

- أنا حنان.

أردفت في اعتذار:

- متأسّـفة، كنـت في حاجـة إليـك فاضطـررت لأطلـب رقمـك مـن الشّـيخ محـمّاد.

قال متفهّماً:

- لا مشكلة.

ثمّ واصل متسائلاً:

- كيف يمكنني مساعدتك؟

ردّت بلهجة تقطر أدباً:

- لـو كان بمقـدورك الحضـور إلى مكتبـي بعـد قليـل لشـكرتك عـلى حسـن صنيعـك.

قال بصوته الملائكي الّذي يجعل الدّماء تغلي في عروقها:

- حاضر. سأوافيك حالاً.

ومـا هـي إلاّ بضـع دقائـق، حتّـى كان عـادل جالسـاً أمـام حنـان ووجهـه يشـعّ نضـارة وبـشراً مـمّا أربـك حسـاباتها وجعلهـا تقـول:

- أعتذر على ما سبّبت لك من إزعاج.

رمقهـا بنظـرة لم تسـتطع مقاومـة سـحرها فأطرقـت في استسـلام، وقـال مبتسـماً:

- لا داعي للاعتذار يا حنان، أنا رهن إشارتك متى تشائين.

كان الارتبـاك قـد أحـاط بحنـان مـن كلّ جانـب، ولم تنتبـه إلى أنّهـا كانـت تبالـغ في إزاحـة بعـض خصـلات شـعرها المتمـرّدة خلـف أذنهـا في كلّ مـرّة. لم

تكـن تجهـل مـا تريـد قولـه، ولكـنّ الهاجـس الّـذي شـوّش أفكارهـا، الهادئـة عـادة، في هـذه اللّحظـة هـو الخـوف مـن أن يفهـم عـادل مـن كلامهـا أنّهـا تشـير إليـه بأصابـع الاتّهـام أو تضعـه موضـع شـبهة شـنيعة تعلـم يقينـاً أنّـه آخـر شـخص عـلى وجـه الأرض يمكـن أن تقـترن بـه.

اعتراهـا نـدم طفيـف جعلهـا تفكّـر للحظـة في التّغـاضي عـن الموضـوع، ولكـنّ فضـولاً عارمـاً اجتـاح كيانهـا اجتيـاح المغـول لأراضي المسـلمين جعلهـا تقـول:

- عـادل. لـديّ سـؤال قـد يبـدو منـذ الوهلـة الأولى تدخّلاً سـافراً في شـؤونك الخاصّـة، ولكـن صدّقنـي، عندمـا سـتعرف الحقيقة سـتعذرني لا محالة.

بدت عليه علامات الاهتمام وقال وهو يزمّ شفتيه ويبسط ذراعيه:

- تفضّلي اسألي كما تودّين، فليس لديّ أسرار أخفيها.

قالت حنان وهي تنقر على سطح مكتبها بقلمها في عصبيّة:

- شكراً على تفهّمك.

ثـمّ واصلـت وهـي تتأمّـل وقـع كلماتهـا عـلى قسـمات وجهـه وتشـير بيدهـا إلى الهاتـف الّـذي كان موضوعـاً فـوق المكتـب:

- هل يمكن أن أعرف من أين حصلت على هذا الهاتف؟!

ظهـرت عـلى ملامـح عـادل ومضـة مـن دهشـة ولكنّهـا سرعـان مـا تلاشـت حـين قـال:

- اشتريته.

سـألت حنـان في اسـتعجال وكأنّهـا خشـيت ألاّ يطاوعهـا لسـانها لطـرح السـؤال بعـد ذلـك إن لم تفعـل الآن:

- ممّن؟

لم يستطع عادل هذه المرّة إخفاء دهشته، فقد كان السّؤال غريباً غرابة الطّبيبة الجالسة أمامه في زيّ محقّقة.

قال في بلادة:

- اشتريته من أخي نجيب.

ثمّ أردف متسائلاً:

- هل من مشكلة؟!

زوت حنان ما بين حاجبيها وحدّقت في عادل في إشفاق. كانت الصّدمة قد عقدت لسانها ومنعتها من الاسترسال في كلام قد يكلّفها الخوض فيه خسائر فادحة قد لا يطيقها قلبها قريب العهد بالحبّ. ولكنّ الأوان قد فات. فقد تورّطت ولا سبيل أمامها للرّجوع إلى الوراء.

قالت بعد أن حملت الهاتف بين أصابعها:

- عادل. أنت وأخوك فوق مستوى الشّبهات. هذا لا جدال فيه. ولكنّ هذا الهاتف هو هاتف علياء. هل من تفسير لديك للأمر؟!

شعر عادل أنّه أُخِذَ على بغتة، انتابه شعورٌ كذلك الّذي ينتاب من ينفجر لغم تحت قدميه دون سابق إنذار، هو فوق مستوى الشّبهات لا جدال في ذلك. ولكن ماذا عن أخيه؟! لابدّ أنّ في الأمر جدالا كثيراً.

استعاد في ذهنه بسرعة البرق تلك اللّحظة المريبة الّتي وقف أمامه فيها نجيب يعرض عليه الهاتف للبيع، فلم يعد في حاجة إلى ذكاء خارق ليكتشف أنّ أخاه متورّط في الجريمة بطريقة ما.

شعر بالعجز يكبّله، ولم يملك إلاّ أن يتمنّى أن يكون نجيب مجرّد مشترٍ لهاتف مسروق، فذلك أخفّ الأضرار...

استجمع رباطة جأشه، وحاول أن يبحث لأخيه عن مخرج يخلّصه من هذه الورطة الّتي وقع فيها. لذلك قال متسائلاً يحذوه أمل واهٍ:

- حنان. هل أنت متأكّدة أنّ الهاتف يخصّ علياء؟

أردف شارحاً بصوت متلعثم:

- أقصد...أقصد أنّه يمكن أن يكون هاتفاً آخر يشبهه.

قالت حنان بنبرة واثقة أجهزت على كلّ أمل كان يجاهد من أجل الحياة في قلب عادل:

- لا يا عادل. ربّما لو كان هاتفاً آخر غيره لكنتَ على حقّ. ولكنّ هذا الهاتف بالضّبط له قصّة خاصّة نعرفها جميعا. إنّه هديّة بابا لعلياء في عيد ميلادها الماضي. نعرفه تماما كما نعرف بعضنا البعض.

همس عادل بصوت منكسر:

- إذا كنتِ متأكّدة فما عليكِ إلاّ أن تُبلغي الشّرطة إذن. الجاني لابدّ أن ينال العقاب.

اغرورقت عينا حنان بالدّموع لمّا شاهدت عادل في ذلك الموقف المهين، عادل الّذي لم تره يوماً إلاّ وهو شامخ أنوف كنخلة لا تركع إلاّ إذا انكسرت، يجلس أمامها الآن ذليلاً كما يجلس متّهم أمام قاضي تحقيق، لامت نفسها كثيراً ولعنت في سرّها ذلك الفضول الّذي داهمها بلا رحمة وجعلها تُفضي لحبيبها بسرّ كانت على يقين أنّه سيكْلِمُ كبرياءه المرهف، ويشجّ عزّة نفسه الشّفّافة.

قالت بصوت حاني:

- عادل. لا تلمني أرجوك، ما أبلغتك بالخبر إلاّ لنعرف الحقيقة. من يدري؟! قد يكون أخوك على شفير الهاوية وهو في حاجة إلى يد تعيده إلى جادّة الصّواب.

قال عادل بصوت خفيت ذليل وهو يقف:

- هـو كذلـك يـا حنـان، لقـد رابنـي أمـره عندمـا رأيتـه آخـر مـرّة، ولكـن لم يخطـر ببـالي أبـداً أنّ الأمـور قـد تكـون بهـذا السّـوء. لا تلومـي نفسـك عـلى تـصرّف نبيـل لـو لم تقومـي بـه لكنـتِ مخطئـة قطعـاً، أحيانـاً تحـدث أشـياء سـيّئة قـد تزعجنـا دون أن نعلـم أنّهـا ليسـت إلاّ مجـرّد صفّـارات إنـذار لمـا هـو أسـوأ، سـأتولّى الأمـر لا تقلقـي. شـكرا لـك عـلى التّنبيـه.

ثمّ ودّعها وانصرف...

كانـت حنـان تنصـت إليـه في انبهـار وقـد شـعرت أنّ كلّ مـا جـرى لم يـزده في قلبهـا إلاّ حبّـاً...

قبـل أن يـرفّ لهـا جفـن عـاد عـادل ومثـل أمامهـا وهـو يقـول بنـبرة مـن يعتـزم قطـع الشّـكّ باليقـين:

- لابدّ أنّ علياء قدّمت أوصافاً للشّخص الّذي اعتدى عليها.

قالـت حنـان وهـي تشـفق عـلى عـادل مـن هـذا الهـمّ المباغـت الّـذي أطبـق عـلى صـدره دون أن يحسـب لـه حسـاباً:

- كلّ مـا قالـت أنّـه شـابّ يـسرّح شـعره بطريقـة غريبـة، وكان يومهـا يرتـدي قميصـاً أحمـر مـن قمصـان لاعبـي كـرة السّـلّة.

هزّ رأسه في حسرة وألم وهو يقول:

- هـو نجيـب إذن. لا يمكـن حجـب الشّـمس بالغربـال، الشّـابّ فعـلاً يسـير في طريـق محفـوف بالمخاطـر سـيقوده حتـماً إلى الثّبـور إذا لم يجـد مـن ينقـذه، الخـوف كلّ الخـوف أن يكـون مـا يُخفـي أعظـم مـمّا يُظهِـر.

عضّـت حنـان عـلى شـفتها السّـفلى في أسى وهـي تتعقّـب بنظراتهـا العطوفـة عـادل وهـو يغـادر المكتـب في امتهـان بعـد أن اسـتعاد منهـا الهاتـف المسروق...

(١٦)
الملاك في جحر الشّيطان

عائشة بنت حادّة تغادر دار الفناء لتلتحق بدار البقاء. ليست هي الفتاة الأولى من فتيات هذه القرية الّتي تخبو روحها ويأفل بريقها وهي في ريعان شبابها، ولن تكون الأخيرة بكلّ تأكيد، كثيرات قضين نحبهنّ وكثيرات ينتظرن وكأنّ الموت عريس لا يرضى بغير العذراوات العفيفات زوجات له تاركاً وراءه الشّمطاوات ينعمن بحياة طويلة، كانت بنات هذه القرية البائسة أشبه بجواري يعشن في قصر يحكمه سلطان متقلّب المزاج، وكان الموت هو ذلك السّلطان الجائر الّذي ينتقي كلّ مرّة ضحيّته حسب هواه دون أدنى شفقة ولا رحمة.

تردّدت عائشة كثيراً على سي الحسين قبل وفاتها باعتباره المعالج الفذّ الّذي تتهشّم على بابه كلّ العلل كما لو أنّه يملك عصا سحريّة تقول للمرض ارحل فيرحل دون إبطاء، ولم تكن تلك العصا السّحريّة سوى ذلك المنقوع المرّ لأعشاب مختلفة لا يعلم كنهها سوى اللّه، شعرت عائشة في البداية بتحسّن طفيف عزاه الجميع لحنكة الفقيه ومهارته اللّتين لا يشكّ فيهما أحد، ولكنّ ماهي إلاّ أيّام حتّى فاضت روحها إلى بارئها كما فاضت أرواح الكثيرات قبلها.

لم يكـن مخالفـاً للفطـرة السّـليمة، الّتـي جَبَـلَ اللّـه عليهـا مخلوقاتـه، أن يكـون أكـثر النّـاس كمـداً بعـد وفـاة عائشـة هـي أمّهـا حـادّة، ولم يكـن أحـد ليلومهـا عـلى ذلـك، ولم يكـن أيضـا موافقـاً لهـذه الفطـرة السّـليمة أن ينتـشي إنسـان بمـوت إنسـان كـما ينتـشي سي الحسـين في كلّ مـرّة يصلـه نبـأ مـوت فتـاة مـن فتيـات القريـة، كان أوّل الأمـر ينجـح بدهـاء ومكـر في قمـع فرحتـه حتّـى لا تطفـو عـلى ملامحـه وتفضـح سرّه الدّفـين، وكان يسـتطيع أن يتصنّـع حزنـاً مفتعـلاً يجعـل كلّ مـن يـراه يظـنّ أنّـه غـارق في يـمّ مـن الأسى، ولكنّـه الآن، وإن كان لازال بإمكانـه أن يخـدع كلّ العـالم، إلاّ أنّـه لا يقـدر عـلى خـداع زوجتـه فاطنـة الّتـي أصبحـت نظراتهـا قـادرة عـلى اخـتراق قوقعـة حزنـه المفتعـل والوصـول إلى أغـوار فرحـه المخبـوء، كـما اخترقـت أسـوار سرّه ذات يـوم وهـو لاهٍ في لحظـة نشـوة مقـزّزة.

وحدهـا فاطنـة تعلـم سرّه كلّـه، أو هكـذا تعتقـد عـلى الأقـلّ، ووحـده عـادل تسـلّل إليـه الشّـكّ بعـد أن وصلـه خـبر وفـاة عائشـة.

ربّمـا كانـت نـيران الشّـكّ قـد شرعـت تسـتعر في قلـب عـادل منـذ مـدّة طويلـة، ولكنّـه كان يفلـح في إخمادهـا في كلّ مـرّة. فهـو لا يملـك دليـلاً واحـداً، ولا حتّـى نصـف دليـل، عـلى أنّ مـوت فتيـات القريـة قـد يكـون بفعـل فاعـل. عـلاوة عـلى ذلـك، فإنّـه لا يملـك الجـرأة ليبـوح بشـكوكه لأيّ شـخص مـن القريـة، كان يعلـم أنّـه سيُرمَى لا محالـة بالجنـون إن هـو صرّح بمـا يعتلـج في صـدره مـن شـكّ، ومـن ذا الّـذي يصـدّق أن سي الحسـين قـد يكـون ظالعـاً في سلسـلة جرائـم قتـل العـشرات مـن فتيـات القريـة عـلى امتـداد سـنوات. إنّ الّـذي يصـدّق ذلـك قـد يصـدّق، ولا ريـب، أنّ جنّـة الخلـد قـد تسـتحيل يومـاً مـا نـاراً لافحـة تسـلخ جلـود أهلهـا مـن المؤمنـين!

كان ذلـك في المـاضي، أمّـا الآن، فتحـت سـماء القريـة يوجـد مـن قـد يُفـضي

إليـه عـادل بشـكوكه دون حـرج. هنـاك مـن يتنفّـس مثلـه نفـس الأفـكار، ويحمـل مثلـه نفـس الهمـوم. هنـاك حنـان...

حمـل إليهـا شـكوكه عـصر اليـوم الّـذي ماتـت فيـه عائشـة وقـال بنـبرة حزينـة:

- لقد ماتت عائشة.

ردّت بقليل من الاهتمام:

- اه. لقـد أخبرتنـي بذلـك الضّاويـة، رحمهـا اللّـه ورحـم جميـع مـوتى المسـلمين.

هزّ رأسه في أسى وقال محاولاً إثارة اهتمامها أكثر:

- إنّها ليست الفتاة الأولى من فتيات القرية الّتي تموت في هذا العمر.

ابتسمت حنان في براءة وهي تقول:

- ولـن تكـون الأخـيرة أكيـد يـا عـادل، المـوت قـدر، والأقـدار لا تراعـي الأعـمار.

أومأ برأسه متفهّماً وهو يقول:

- ونعم باللّه، لا اعتراض على قدر اللّه.

ثمّ واصل في إصرار:

- قـد لا تفهمـين قصـدي ولكن...أظـنّ أنّ الأمـر ليـس طبيعيّـاً، ليـس طبيعيّاً عـلى الإطلاق.

سألت وقد بدت عليها علامات الاهتمام:

- ماذا تقصد يا عادل؟!

أخمـد يـده في جيـب مـن جيـوب محفظتـه وسـحب مفكّـرة، ثـم طفـق يقلّـب صفحاتهـا وهـو يقـول:

- سأريك شيئاً.

تابع عندما وصل إلى الصّفحة الّتي يريد وهو يطالع بعض الإحصائيات بحماسة:

- لقد ماتت عائشة اليوم، وقبلها ماتت السّعدية أخت الضّاوية. وقبلهما أمينة، وقبلهنّ كثيرات. لقد ماتت أربع وثلاثون فتاة أعمارهنّ بين الثّانية عشرة والثّامنة عشرة في هذه القرية في غضون تسع سنوات الّتي قضيتها هنا، هل تتصوّرين ذلك؟! أيّ معدّل يقارب وفاة فتاة واحدة في كلّ ثلاثة أشهر، هل تعتقدين أنّ الأمر طبيعيّ؟!

ودون أن ينتظر منها أيّ جواب استطرد:

- أربع وثلاثون فتاة في تسع سنوات مقابل عشر نساء فقط وسبعة رجال وخمسة أطفال. هه...! ما رأيك؟!

كانت حنان تنصت إليه في تركيز وهي مشدوهة من دقّة وخطورة المعلومات الّتي سردها على مسامعها.

قالت بعد تردّد:

- لا يبدو الأمر طبيعيّاً على الإطلاق، ولكن ماذا يعني ذلك في نظرك؟!

رفع حاجبيه ووسّع عينيه وهو يقول:

- أظنّ أنّ هناك يداً خفيّة في القرية تقبض أرواح الفتيات قبل الأوان. قبل حتّى أن تطالها يد عزرائيل نفسه.

تساءلت في هلع:

- هل تظنّ ذلك حقّاً؟!

مطّ شفتيه وهو يقول:

- مجرّد شكوك قد تكون في محلّها وقد لا تكون.

قالت حنان في خبث وهي تومئ برأسها في اتّجاه المفكّرة:

- مفكّرتك تشي أنّ شكوكك ليست وليدة اليوم.

هزّ عادل رأسه دلالة الموافقة وهو يقول:

- لا أخفيـك سرّاً أنّ الأمـر أثـار اسـتغرابي منـذ سـنين، ولكنّنـي لم أسـتطع أن أفـشي شـكوكي أمـام أيّ شـخص. لسـت طبيبـاً، ولكنّنـي أظـنّ أنّ الأمـر لا يحتـاج إلى دراسـة الطّـبّ حتّـى يثـير الاهتـمام.

قالت حنان مؤكّدة:

- فعـلاً، الأمـر مثير للاهتـمام ومحـرّض عـلى الشّـكوك، ولكـن هـل تتّهـم شـخصاً بعينـه أم أنّ سـلّة الاتّهـام تسـع الـكلّ؟!

أجاب عادل في دهاء:

- صراحـة لا أدري، أنـا بسـطت أمامـك شـكوكي لـكي نفكّـر معـاً ونصـل إلى نتيجـة مـا.

قالت حنان في مكر:

- ولكـن لا مجـال للمقارنـة بـين تسـع سـنوات وتسـعة أيّـام، لا شـكّ أنّ أقدميتـك الكبـيرة في القريـة تخـوّل لـك الاطّـلاع عـلى أسرار أجهلهـا، وبالتّـالي فأنـا أعتقـد أنّـك تملـك مـن المعلومـات مـا يكفـي لتوجيـه أصابـع الاتّهـام لشـخص معـيّن دون سـواه.

صاح عادل في نبرة حذرة:

- الأمـر أخطـر مـمّا قـد نعتقـد، مـن الصّعـب اتّهـام شـخص مـا بجرائـم قتـل دون دليـل، الأحاسـيس لا تكفـي في مثـل هـذه الأمـور.

قالت حنان في تفهّم:

- آه صحيح.

ثـمّ اسـتطردت مسـتدركة في إلحـاح كأنّهـا تسـتحثّ عـادل عـلى إفـراغ كلّ مـا في جعبتـه:

- ولكـن لا يمكـن تجاهـل دور الأحاسـيس. عـلى الأقـلّ يمكـن اسـتغلالها على

سبيل الاستئناس، يبدو لي أنّ إحساسك يتّهم شخصاً معيّناً. هه...! من هو هذا الشّخص يا ترى؟!

ردّ عادل بعفوية كأنّه يريد أن يزيح سرّاً ثقيلاً من على صدره:

- لا أعرف لماذا كنت دائما أعتقد أنّ لسي الحسين يداً في الأمر، ربّما لأنّه هو الّذي يضطلع بعلاج النّاس هنا، قد يكون الأمر عن قصد أو عن جهل، لا أدري، وقد يكون الأمر برمّته مجرّد إحساس مخاتل، إنّ بعض الظّنّ إثم كما تعلمين.

قالت حنان في ثقة:

- يقول ديكارت: «الإنسان يجب أن يشكّ ولو لمرّة واحدة في حياته» الشّكّ هو نقطة البداية للوصول إلى اليقين يا عادل.

قال عادل مؤكّداً:

- أتّفق معك تماماً.

ثمّ أردف متسائلاً:

- ولكن كيف أجعل شكوكي تقودني إلى اليقين دون أن أتورّط في اتّهامات قد تكون باطلة وتجرّني إلى ما لا يحمد عقباه؟!

صمتت برهة تمنح نفسها وقتاً للتّفكير، ثمّ قالت على حين بغتة:

- بالزّواج يا عادل بالزّواج.

حملق فيها في عدم استيعاب وتمتم ببلادة:

- الزّواج؟!!!

قالت بنبرة جادّة وهي تضع سبّابتها حذو أذنها:

- نعم يا عادل، إنّ زواج التّفكير بالإصرار قادر على أن يكشف كلّ الأسرار، وأن يجعل الشّكوك تنهار انهيار اللّيل أمام سلطة النّهار.

نظر إليها في انبهار وهو يقول بنبرة مازحة:

- سـمعت كثـيراً عـن زواج السّـلطة بالمـال، ولكنّنـي للمـرّة الأولى أسـمع عـن زواج التّفكـير بـالإصرار، وأرى بـأمّ عينـي فتـاة تترسّـخ فيهـا فكـرة زواج الأدب بالعلـم.

أطرقـت حنـان في خفـر، ثـمّ هتفـت بعـد ذلـك وهـي تمـدّ لـه يدهـا دلالـة التّعاضد:

- اتّفقنا؟

أجاب وهو يبتسم ويضع كفّه في كفّها مصافحاً:

- اتّفقنا.

لم تهـدر حنـان الكثـير مـن الوقـت في التّفكـير، فقـد كانـت التّضحيـة بلـذّة النّـوم لليلـة واحـدة كافيـة لتتبلـور الفكـرة في ذهنهـا بجـلاء.

فكّـرت، وخطّـطـت، وقـرّرت، ووضعـت جميـع الاحتمالات والسّـيناريوهات، وعندمـا أزفـت سـاعة الصّفـر وحـان وقـت التّنفيـذ، جـاءت تعـرض فكرتهـا عـلى عـادل طالبـة استشـارته.

علّق وهو يضحك بعدما سمع جزءً من خطّتها:

- إنّ كيدكنّ عظيم.

ضحكت أيضا وهي تقول:

- إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفاً.

قالتهـا وهـي تعلـم كـما يعلـم عـادل أنّ الشّـيطان قـد يكـون مـن ذرّيّـة إبليـس كـما قـد يكـون أيضـاً مـن ذرّيّـة آدم.

بهمّـة عاليـة ودقّـة خياليـة مضـت حنـان تنفّـذ بنـود خطّتهـا بحذافيرهـا كـما لـو كانـت ممثّلـة تشـقّ طريقهـا باحترافيـة في طريـق السّـينما أو المـسرح.، هجـرت مسـاحيق التّجميـل الّتـي تُضفـي عـلى وجههـا رونقـاً خاصّـاً يميّزهـا عن نسـاء القريـة، واسـتعارت مـن الضّاويـة طقـم ملابسـها كامـلاً وارتدتـه حتّـى

بـدا مـن المسـتحيل تمييزهـا عـن أيّ امـرأة قرويّـة مـا اكتحلـت عيناهـا برؤيـة الحضـارة مـن قبـل.

ألحّـت الضّاويـة كثـيراً مـن أجـل مرافقـة حنـان لزيـارة سي الحسـين، ولكـنّ الأخـيرة رفضـت بحـزم دون أن تُطلعهـا عـلى مـا كان يجـول في خلدهـا.

حنان في جحر الشّيطان...

جلسـت حنـان أمـام سي الحسـين في اسـتحياء وراحـت تشـكو إليـه مغصـاً ألمّ بهـا عـلى حـين فجـأة.

سألها وبريق الاشتهاء يتلألأ في عينيه كحبّات الكريستال:

- لم يسبق لي أن رأيتك في القرية، أنت غريبة أليس كذلك؟

أجابـت حنـان بلهجـة أمازيغيـة خالصـة لا يسـاور مـن يسـمعها أدنى شـكّ في أنّ صاحبهـا أمازيغـيّ أصيـل:

- أنـا مـن قريبـات عائشـة رحمهـا اللّـه. أقطـن في قريـة مجـاورة، وجئـت لحضـور مراسـيم العـزاء.

ثـمّ اسـتطردت حتّـى تسـدّ عليـه الطّريـق الّـذي قـد يقـوده إلى فضـح أمرهـا:

- شعرت بمغص حادّ في بطني.

أكملـت بعـد أن تنبّهـت إلى أنّهـا يجـب أن تضـع يدهـا عـلى بطنهـا تظاهراً بـالألم حتّـى تتقـن دورهـا كلّ الإتقان:

- أشـعر وكأنّ مقصّـاً حـادّاً يجـوس خـلال أمعـائي يعيـث فيهـا تقطيعـاً دون رحمة.

قـال بنـبرة افتخـار وهـو يتفـرّس في ملامحهـا كأنّـه نحّـات منهمـك في إبـداع تمثـال لهـا ويخـشى أن يفوتـه أيّ تفصيـل مهـما كان صغـيراً:

- لا شعر بالوصب ولا أحسّ بالنّصب من كان سي الحسين هو طبيبه، لا بأس عليك يا ابنتي لا بأس. خيراً فعلت أنّك لم تزوري تلك الطّبيبة الفاجرة الّتي تسير على منوال الكفّار من اليهود والنّصارى في العلاج.

شهقت حنان كالمصعوقة، وكانت تتمنّى لو استطاعت أن تبصق في وجهه وتزعق فيه بأعلى صوتها:

- الفاجر هو من يتاجر بآلام النّاس من أجل منفعته الشّخصيّة، والكافر هو من يكفر بالعلم ويُسْلِم عقله للخرافات والخزعبلات.

ولكنّها بالطبع ما كانت قادرة على أن تقول ذلك وتُنفّس بالتّالي عن موجة غضب عارم اعترتها وجعلتها تشعر بالإهانة والحقارة لأوّل مرّة في حيا تها.

بدل قول ذلك، وجدت نفسها تنسجم بكلّ حواسّها مع دورها، فقالت متوسّلة وهي تدّعي ألماً فظيعاً كانت تعرف أنّ الفقيه سيعزو إليه شهقتها المكتومة:

- أرجوك يا سيّدي الفقيه، خلّصني من هذا الوجع الّذي يكاد يفتك بي، لا مخلّص لي منه بعد اللّه سواك. كنت سأستغيث بك على كلّ حال حتّى لو أنّ المرض أدركني وأنا في قريتي، فسمعتك تعدّت كلّ الآفاق، وتضلّعك في الطّبّ يشهد به الأعداء قبل الرّفاق.

اشرأبّ الفقيه في زهو، ونفخه الإطراء والمديح حتّى ضاقت به الحجرة بما رحبت حتّى بدا مثل وحيد قرن يستعرض عضلاته أمام ضبع حقير.

ضمّ كفّيها في كفّيه في حنان مغالى فيه وهو يقول بصوت مختلج من أثر الشّهوة:

- أبشري يا بنيّتي، ستكونين بخير بإذن اللّه، ستكونين بخير.

وضع كفّه الأيمن على رأسها، وطوّق رسغ يدها اليمنى بأصابعه،

وراح يتلو تراتيله بصوت خفيض وحدقتاه تدوران في محجريهما نصف مغمضتين وكأنّ أوصاله قد تخدّرت وهو على مشارف غيبوبة لذيذة.

وما كاد ينهي رقيته العجيبة الّتي جعلت بعض الخوف يتسرّب إلى قلب حنان، حتّى كانت أنفاسه تتهدّج، وصدره يعلو ويهبط، واللّعاب يكاد يندلق من فمه المفتوح على اتّساعه حتّى بدا مثل أبله ينتشي بتناول بعض الحلوى بعد أن أهلكه الجوع وأضناه التّسكّع في الشّوارع والطّرقات.

كان واضحاً أنّ الفقيه في هذه اللّحظة كان يتمنّى لو تسقط من الجبل صخرة فتُطبق عليهما باب الغرفة كما أطبقت صخرة ذات يوم فوهة غار في جبل من الجبال على أولئك الرّجال الثّلاثة الّذين لاذوا به خوفاً من المطر، وإذا كان هؤلاء الرّجال قد دعوا اللّه بأفضل ما عملوه في حياتهم حتّى يخلّصهم من محبسهم ذاك وينجوا من ورطتهم، فإن الفقيه ما كان أبداً ليورّط نفسه في الدّعاء أملا في البقاء لأطول فترة ممكنة بجوار تلك الحسناء حتّى لو قضى نحبه تحت رجليها.

كاد الشّيطان أن يهمّ بحنان...وكادت حنان أن تبصق في وجه الشّيطان...

ناولها قنّينة تحتوي على مشروب: هو مستخلص من نباتات طبّية طبيعية كما شرح لها، ثمّ طلب منها أن تتناول منه ملعقة صغيرة كلّ ليلة قبل النّوم، ونصحها بالعودة بعد أسبوع بلهجة أقرب إلى الرّجاء، ثمّ ودّعها وقلبه يكاد ينفطر حناناً...

خرجت حنان من جحر الشّيطان بأمان، تترنّح مشاعرها بين جوانحها ترنّح السّكران، أصابها الهلع واستبدّت بها الوساوس بعدما أظهر الفقيه من الشّر ما يثير الشّكوك ويستفزّ الهواجس، ثمّ انتابها الفرح والسّرور

بعـد أن تحسّسـت بأصابعهـا قنّينـة الـدّواء وأحسّـت إحسـاس جنـديّ غنـم غنائـم لا حـصر لهـا بعـد حـرب شرسـة دامـت لشـهور.

هل انطلت الحيلة على الشّيطان؟!

لم تكن حنان تشكّ في ذلك، على الأقلّ حتّى الآن.

- وماذا بعد؟! ألم يئن الأوان بعد لتطلعيني على بقيّة الخطّة؟

سألها عادل بعدما أخبرته خبر بعض ما جرى لها مع الفقيه.

أجابت وهي تبتسم:

- سترى بعينيك، وستسمع بأذنيك.

أخرجت هاتفها واتّصلت بأبيها.

قالت بعد أن اطمأنّت على حالة علياء، واستفسرت عن أحوال أمّها:

- هه...! ألا زلت على استعداد للتّعاون معي؟!

صاح الأب في استنكار:

- لا تخبرينـي أنّـك ستنسـاقين وراء شـكوك ذلـك الأسـتاذ وسـتخوضين تلـك اللّعبـة الخطرة.

هتفت في عتاب:

- ليست لعبة يا أبي.

قال محذّرا:

- ربّمـا ليسـت لعبـة، ولكنّهـا مغامـرة عـلى أيّ حـال، مغامـرة تنطـوي عـلى الكثـير مـن المخاطـرة.

سألت بلهجة حاسمة لم تدع له مجالا للتّلكّؤ

- هل ستساعدني أم لا؟

سـكت برهـة، كان يـدرك أنّهـا سـتلجأ لأمّهـا لـو رفـض هـو مـدّ يـد

العـون لهـا، كان يـدرك أيضـاً أنّهـا لم تـترك والدتهـا وتلجـأ إليـه إلاّ لأنّ ذلـك يدخـل في مجـال عملـه.

ردّ في استسلام:

- سأسـاعدك يـا حنـان، أعـرف أنّـك عنيـدة وسـتمضين في طريقـك إلى نهايتهـا في جميـع الأحـوال.

ثمّ أضاف كمن يحاول أن يتملّص من مسؤولية لا طاقة له بها:

- على أن تخبري أمّك بالأمر، لقد حذّرتك وقد أعذر من أنذر.

هتفت في فرح طفولي:

- أنـت أروع أب في الدّنيـا، كنـت أعـرف أنّـك لـن تتخلّى عـن حبيبتـك في مثـل هـذه الظّـروف، شـكراً لـك.

قال مداعباً:

- أكره المتزلّفين على كلّ حال.

قالت مؤنّبة:

- بابا!

ثمّ استطردت بلهجة حماسيّة:

- ستفخر بابنتك بكلّ تأكيد، أعدك.

سألها متجاهلاً كلامها:

- كيف أساعدك؟! هل حصلت منه على شيء؟

ردّت وهي ترفع قنّينة الدّواء كأنّه يمكن أن يراها:

- نعم قنّينة الدّواء بين يديّ، أريدها أن تخضع لتحليل مختبريّ دقيق.

قال في افتخار:

- حسناً. لا ضير في أن يستغلّ المرء أحياناً نفوذه.

شكرته حنان ووعدته أن ترسل له قنّينة الدّواء في أقرب فرصة.

حدّق فيها عادل بإعجاب وقال:

- أظنّني فهمت الأمر، تريدين التّأكّد من محتويات الدّواء الّذي يصفه الفقيه لمرضاه، فعلاً أعتقد أنّ هذا هو طرف الخيط الّذي قد يقودنا إلى الحقيقة، الحلقة الأولى من مسلسل شديد التّشويق لا يستطيع أحد التّنبّؤ بأحداث حلقاته القادمة.

قالت حنان موضّحة:

- المسلسل في بدايته يا عادل، كاتب السّيناريو نفسه لا فكرة لديه عمّا ستؤول إليه الأحداث فيما بعد. المسلسل سيُكتَب حلقة حلقة، كلّ واحدة تُبنى استناداً على سابقتها، نحن كاتبا السّيناريو، والمخرجان، والجمهور.

صاح عادل وقد بدا أنّ الفكرة راقته أكثر:

- ونحن جزء أيضا من فريق التّمثيل.

لم تستطع أن تمسك نفسها عن الضّحك فقالت وهي تقهقه:

- بل نحن أبطال المسلسل.

لم يتمالك عادل نفسه فأطلق العنان للضّحك أيضا.

سألها بعد أن هدأت نوبة ضحكه:

- قولي لي، ما هو انطباعك بعد أن قابلت المتّهم وجهاً لوجه؟

قالت بنبرة المعترف:

- سأصدقك القول يا عادل، انتابني في البداية شعور بأنّ الفقيه قد يكون بريء الأديم، ظننتك تحدس الكلام على عواهنه. لاحظت في عينيك من الإصرار الكثير، لذلك قرّرت أن أقرن الإصرار بالتّفكير، ولكن بعد أن جهرت لي بما تكنّه في نفسك من شكوك، وشرحت لي الأمر واستفضت في شرحك، صدّقت حدسك، وسلكت معك طريقك. أمّا بعد أن زرته في جحره، فأظنّ أنّه شيطان في صورة إنسان.

واصلت مستدركة بنبرة لم يغب مغزاها عن عادل:

- نحتاج الآن إلى من يقوم بإيصال هذا الدّواء لأبي، لا مجال أمامنا لهدر المزيد من الوقت.

قال عادل بلهجة مطمئنة:

- لا عليك. سأتولّى الأمر بنفسي، في جميع الأحوال كنت قد قرّرت زيارة المدينة غداً.

ثمّ استطرد بصوت خفيض وهو ينكّس رأسه:

- لابدّ أن ألحق نجيب.

أومأت برأسها في تفهّم ثمّ أسرعت تقول مغيّرة دفّة الحديث حتّى لا تتسبّب له في المزيد من الإحراج:

- آه...نسيت أن أخبرك، في كلّ الأحوال زيارتي للفقيه لن تذهب هباءً منثوراً.

تفرّس فيها دون أن ينجح في الوصول إلى ما ترمي إليه.

ولمّا بدا عليه الاستغراب وعدم الفهم، تابعت بنبرة مازحة:

- وصلت إلى حلّ اللّغز.

كلامها لم يفعل أكثر من كونه زاد من منسوب الاستغراب في وجهه، لذلك سأل:

- عن أيّ لغز تتحدّثين يا حنان؟!!

أجابت على الفور وكأن الكلام كان مثل نيران مضطرمة على طرف لسانها وتتوق للتّخلص منه بأقصى سرعة ممكنة:

- عرفت السّبب الّذي جعل المرضى يعزفون عن زيارتي في المركز طلباً للعلاج، هو لم يصرّح بذلك بشكل مباشر، ولكنّني استشففت من فحوى كلامه أنّه قام بحرب شرسة ضدّي، قام في خضمّها بتأليب النّاس عليّ

بدعـوى أنّ طريقتـي في العـلاج محرّمـة أو شيء مـن هـذا القبيـل، قـال كلاماً عـن الكفّـار مـن اليهـود والنّصـارى يصـبّ في هـذا الاتّجـاه.

صرخ عادل مذعورا:

- يـا إلهـي...! مـا هـذا الهـراء؟! أظـنّ أنّنـا عندمـا تركنـا ديارنـا وراءنـا وحططنـا الرّحـال في هـذه القريـة النّائيـة لم نسـافر في المـكان فقـط، بل سـافرنا في الزّمـان أيضـا. لابـدّ أنّنـا سـافرنا سـفراً طويـلاً أعادنـا قرونـاً إلى الـوراء.

شرّ البليّة ما يضحك...

واصل بلهجته المازحة الّتي يجيد استخدامها في مثل هذه المواقف:

- تهمـة أخـرى تنضـاف إلى لائحـة تهـم الفقيـه العريضـة، الشّـطط في اسـتغلال المنصـب.

تابع وهو يلتقف قنّينة الدّواء من يد حنان في خفّة ويرفعها في الهواء:

- واسـتغلال الدّيـن مـن أجـل التّرويـج لبضاعـة فاسـدة مـضرّة بصحّـة المواطنـين قـد تُفـضي إلى المـوت، وذلـك مـن أجـل أغـراض دنيئـة لا يعلمهـا سـوى اللّـه.

ثمّ هتف بصوت عالٍ وهو يتقمّص دور محامٍ:

- مع سبق الإصرار والتّرصّد.

وقفـت حنـان مبهـورة أمـام هـذا الشّـابّ الّـذي يقـف قبالتهـا، لا تسـتطيع تخيّـل كيـف يمكنـه أن يحافـظ عـلى روحـه المرحـة، الّتـي تـأسر الألبـاب، في شـتّى المواقـف، صادفـت في حياتهـا الكثـير مـن المتحذلقـين الّذيـن يدّعـون الظّـرف ويتصنّعـون اللّطـف دون أن تنجـذب إلى أيّ أحـد منهـم، ولكـن هاهـي تنجـذب إلى عـادل كـما لم تخطّـط يومـاً للانجـذاب إلى أيّ أحـد. ولكـن متـى كان عـادل متحذلقـا يدّعـي الظّـرف ويتصنّـع اللّطـف؟! لـو كان كذلـك لمـرّ مـن حياتهـا كـما مـرّ الكثـيرون غـيره دون أن يجعلـوا قلبهـا ينفـض عنـه غبـار

الكسل عن الحبّ. عادل ليس كغيره، إنّه يمارس المرح بسجيّة مثلما يتنفّس النّاس الهواء بسجيّة، هو في غنى عن كلّ تصنّع أو كلفة، لذلك أحبّته دون تصنّع أو كلفة أيضاً.

نظرت إليه في وله وقالت في انتشاء وكأنّها تتلذّذ بنطق حروف اسمه على لسانها:

- عادل.

قال والابتسامة تعلو محيّاه:

- نعم.

قالت بنبرة صادقة:

- أشكرك على كلّ ما قمت به وكلّ ما تقوم به.

قال وهو يطرق في حياء:

- لا داعي للشّكر يا حنان، لم أقم سوى بالواجب.

أعطته رقم والدها وتمنّت له طريق السّلامة في رحلة الغد، وودّعته...

عندما دخلت إلى منزلها واستلقت على سريرها، أطلقت لخيالها اللّجام ليستقلّ قطار الزّمان ويعود بها سنوات كثيرة إلى الوراء. لم تدرِ كيف خطر لها خاطر جعلها تجزم بوجود مؤامرة شارك فيها أطراف عديدون من أجل الإيقاع بها في الحبّ، تخيّلت أنّ عزيز لم يتزوّج سعاد إلاّ لينجباها. وأنّها لم تختر مهنة الطّب إلاّ لتعمل في هذه القرية، وأنّ علياء لم تبتسم تلك الابتسامة اللّئيمة وتغمز بعينها مشيرة إلى عادل في أوّل يوم رأوه فيه إلاّ لتُشعل شرارة الحبّ في قلبها.

لقد تخيّلت أنّ الظّروف جميعها تعاضدت من أجل أن تحبّ حنان عادل.

لا يسعها إلاّ أن تشكر الظّروف...

(١٧)

انهيار التّمثال المقدّس

إنّ بعد العسر يسرا، إنّ بعد العسر يسرا، هكذا قال ربّ العباد الّذي يعلم ما يجول في قلوب العباد. ولكن هل هناك ماهو أكثر عسراً على قلب إنسان من الاحتفاظ بسرّ مدى الحياة؟ إنّ قلوب البشر تميل إلى الإيثار إذا تعلّق الأمر بكتمان الأسرار، فالقلوب لا تنعم بالرّاحة والرّضى إلاّ إذا شاركت أسرارها مع الغير. فكلّما ظلّ السّرّ حبيس القلب إلاّ وزاد وجعه مثل القيح لا يبرأ الجرح إلاّ بإخراجه.

البوح دواء، البوح شفاء، وفاطنة تحتاج إلى الدّواء حتّى تُشفَى...

عندما مارس زوجها شذوذه القذر مرّة أخرى على جثّة عائشة هذه المرّة، شعرت فاطنة بالغثيان والتّقزّز. واجتاحتها رغبة عارمة في تحرير سرّها الّذي ضاق به صدرها حتّى خنقها وكتم أنفاسها بعدما أصبح يجثم عليها كما كانت تجثم الصّخرة على صدر بلال بن رباح وهو يصيح بصوت مخنوق: أحد أحد. هي أيضا تصيح مثله: أحد أحد ولا يسمعها أحد. تريد أحدا ليخلّصها من سرّها. تريد من يرفع الصّخرة عن صدرها حتّى تتنفّس بيسر، كان بإمكانها أن تقاوم ألمها وتجاهد وجعها كما قاومتهما وجاهدتهما لسنين، ولكنّها أحسّت أنّ مخزونها من الصّبر

قد نفد عندما سامها من العذاب ما لا تطيق وهو يخبرها مجدّداً برغبته القديمة في الزّواج عليها بفتاة بالكاد بلغت الحلم أو تكاد.

قد تصبر على كلّ شيء، إلاّ أن تصير زوجة ثانية. أن تصير لا شيء بعدما كانت كلّ شيء...

التفتت بوجهها يمنة ويسرة تستغيث بمن تأتمنه على أسرارها، فلم تجد غير ابنها الأصغر الّذي كان الأقرب إلى قلبها.

غريب أمر الإنسان! يعجز عن الاحتفاظ بأسراره ويطلب من غيره أن يفعل ما عجز هو نفسه عن فعله.

اتّصلت به وباحت له بكلّ شيء، باحت له بكلّ ما كان يؤرّقها ويقضّ مضجعها لسنوات طوال. لا تدري كيف امتلكت الشّجاعة والجرأة على الخوض مع ولدها في مواضيع شديدة الحساسيّة كتلك. لا تعرف لماذا أخبرته ولا ماذا يمكنه أن يفعل من أجلها. ولا تذكر حتّى الكلمات والعبارات الّتي استخدمتها وهي تُفشي له بأسرارها. لا تذكر أيّ شيء. لا تذكر سوى أنّها أخبرته بكلّ شيء. أخبرته بكلّ شيء وانتهى الأمر.

هل انتهى الأمر فعلا هنا؟ لا تدري...

أخبرته في لحظة ضعف. ولكن ليس أيّ ضعف. بل ذلك الضّعف الّذي يجعل المرء يكتسب قوًى خارقة لم يكن يتخيّل أبداً أنّه يمتلكها.

ضعف المرء هو الشّرارة الأولى لاشتعال قواه الخامدة تحت الرّماد.

عندما أفضت لولدها بسوءات والده، حاول إبداء التّماسك والاتّزان، ولكنّها لمست في صوته الخيبة والخذلان. خاب أمله في والده، خاب أمله في قدوته، خذله الرّجل الّذي كان دائما يعتبره مثله الأعلى في الحياة، انهار أمامه في رمشة عين ذلك التّمثال المقدّس الّذي كان يبجّله ويمجّده كما ينهار تمثال حاكم مخلوع.

وعدها أنّه سيتصرّف وأنّه سيعيد الأمور إلى نصابها دون أن يقول متى ولا كيف، طلب منها ألاّ تحزن دون أن يصف لها دواءً فعّالا للحزن...

دخل سي الحسين إلى بيته بعد أن صلّى بالنّاس صلاة العشاء، وجد زوجته تتخبّط في غضب شديد، وتتمرّغ في حنق كبير بعدما تشاجرا قبيل الصّلاة بقليل.

قال بلهجة حاسمة:

- لقد تكلّمت مع الحاجّ علي قبل قليل، اتّفقنا على أن يكون مساء الغد هو موعد إعلان الخطبة، على أن نحدّد موعد الزّفاف بعد ذلك.

نظرت إليه شزراً وقالت بلهجة غاضبة:

- ولكنّني لست موافقة على هذا الزّواج.

قال متهكّماً:

- وهل تظنّين أنّني سأقضي عمري كلّه أنتظر موافقتك؟! لقد أصبحت عاجزة على الإنجاب وأنا أريد ذرّيّة أساهم بها في تكثير سواد الأمّة، المال والبنون زينة الحياة الدّنيا، فلماذا نحرّم ما أحلّ اللّه؟!

شعرت بالغيظ. كانت ترى أمامها النّفاق يقف على رجليه ويحرّك شفتيه، ماذا عساها تقول له؟! هل تقول له أنّه منافق من درجة شيطان؟! هل تقول له أنّ عورته منكشفة أمامها ولا جدوى من محاولاته لسترها مهما فعل؟!

لا، لن تقول ذلك الآن. فلكلّ شيء أوانه.

بلعت كلّ ذلك الكلام في جوفها بصعوبة وألم، وقالت بدل ذلك بصوت مجروح:

- أمّا البنون فلك ولدان، وأمّا المال فلا أرى في القرية من هو أكثر

منك مالا رغم بخلك الشّديد، فماذا تريد أكثر؟! أم أنّ لهاثك خلف شهواتك أنساك كلّ ذلك؟!

نهرها قائلاً:

- اسكتي يا امرأة، ولا تجادليني فيما ليس لك به علم، متى كان للمرأة رأي يُعتَدّ به؟! النّساء ناقصات عقل ودين.

قالت مستهزئة:

- صدقت. النّساء ناقصات عقل ودين. وماذا يا ترى يكون الرّجل الّذي يلهث وراءهنّ؟! لابدّ أنّه أرجح منهنّ عقلا وأقوم منهنّ ديناً. أليس كذلك؟

شعر بالذّلّ والهوان، لطالما أفحمته هذه المرأة في جدالاتهما الّتي لا تنتهي.

اشتدّ غضبه، وانتفخت أوداجه، وقال بنبرة بدل فيها جهداً كبيراً حتّى يجعلها تشي بالحزم:

- لا تثريب عليكِ إذ تناقشينني في موضوع لا يُقدّم رأيُك فيه شيئاً ولا يؤخّر، اللّوم والعتاب كلّهما عليّ، لن أعدل عن قراري وأنكث عهدي مع صهري بسبب امرأة جاهلة، لقد حزمت قراري وانتهى الأمر.

كانت تعرف أنّه لن يعدل عن قرار كان قد اتّخذه منذ مدّة طويلة، كانت تعرف أيضاً أنّ الحظّ لن يقف بجانبها مرّة أخرى كما وقف معها أوّل مرّة حين توفيّت زوجته رقيّة إثر سكتة قلبيّة ليلة زفافها، ليس لديها شكّ أنّ ما حدث لرقيّة قد لا يحدث ربّما إلاّ لعروس واحدة من أصل مليون، أيّ حظّ ذلك الّذي ساندها ليلتها وخلّصها من ضرّتها وأجّل ضررها إلى حين؟! ومن أين لها بحظّ مثله؟!

كانت كلّما اشتدّ حنقها من زوجها إلاّ واستدعت خاطراً غريباً يسرّي

عنها ويشفي غليلها، كانت تعتقد في قرارة نفسها أنّ قلب رقيّة لم يتوقّف عن النّبض إلاّ اشمئزازاً من أسنان الفقيه الصّفراء، وكانت تسأل نفسها: لِمَ لم يتوقّف قلبها هي في ليلة زفافها؟ لو حدث ذلك لكانت قد ماتت بشرف بدل هذا الموت البطيء الّذي يتسلّى كلّ يوم بقتل جزء منها.

لم تكن فاطنة تعرف البيت الشّعريّ الشّهير:

ومن لم يمت بالسّيف مات بغيره

تعدّدت الأسباب والموت واحد

ولا تعرف طبعا قائله، ولكنّها تعرف بكلّ تأكيد أنّ أحدهما يجب أن يموت؛ هي أو سي الحسين...

لذلك لم تملك غير أن تقول بنبرة من يقدّم عزاءً:

- مبروك...

(١٨)
كيس الملاكمة

شدّ عادل رحاله صوب المدينة وقد وضع نصب عينيه أهدافاً دقيقة يروم تحقيقها، يعرف أنّ مهمّته ازدادت صعوبة مع ظهور مشكلة أخيه الّتي لم تكن أبداً في حسبانه، إلاّ أنّه ليس من النّوع الّذي يُولّي المعاركَ دبرَه مهما حمِيَ وطيسها، وليس من النّوع الّذي يتنصّل من مسؤولياته لأسباب واهية. كان يعشق مجابهة الصّعاب الّتي تعترض سبيله بكلّ بسالة، ويؤثر السّير على طريق التّضحية ونكران الذّات، وكان يحبّ الخير لغيره كما يحبّه لنفسه. وهذا هو سرّ سعادته...

كانت السّماء قد شرعت تصطبغ بحمرة الشّفق حينما وصل عادل إلى المنزل، سلّم على أمّه الّتي لم تستطع إخفاء مظاهر الدّهشة الّتي اكتست بها ملامحها، لم يجد صعوبة بالغة في حلّ لغز دهشتها تلك، فقد كانت زيارته غير متوقّعة مادام أنّه لم يرحل إلاّ قبل أيّام قليلة وهو الّذي أصبح يقلّص من زياراته مؤخّراً حتّى أصبح الفاصل بين الزّيارة والأخرى قد يصل إلى شهرين كاملين خصوصاً بعد تفاقم شدّة الخلاف بينه وبين أمّه بسبب إصرارها على تزويجه ببنت أختها سناء.

بعد أن اطمأنّ على أحوالها وأحوال أخيه، بادرها بالسّؤال دون تردّد

حتّى بدا وكأنّه لم يقطع تلك المسافة الكبيرة بين القرية والمدينة إلاّ ليطرحه:

- أين نجيب؟

لم تكد تنقشع غيوم الدّهشة الّتي تلبّد بها وجهها بسبب زيارته المفاجئة، حتّى تراكمت على ملامحها غيوم أخرى بسبب سؤاله الغريب.

أجابت باقتضاب محاولة إبداء اللاّمبالاة:

- خرج.

كان يعلم أنّ الخبر الّذي يحمل إلى أمّه أشبه ما يكون بقنبلة موقوتة ستنفجر في وجهه بمجرّد أن يرميها، ولكنّه ما جاء إلاّ ليفعلها. ربّما تكون الخسائر فادحة، ولكنّ الأكيد أنّها ستكون أكثر فداحة لو لم يرمها الآن، لو تركها إلى أن يفوت الأوان. أن تنفجر الآن في وجهه وتصيبه بجروح أو حتّى دماميل قابلة للاندمال، خير من أن تنفجر بعد ذلك في وجه نجيب وتؤدّي به إلى السّجن أو القتل، سيرميها ولكن على مراحل، ليس ضعفاً ولا خوفاً، ولكن رفقاً بأمّه الّتي يعرف مدى حبّها لأخيه.

سألها أوّلاً:

- ماذا يعمل نجيب؟

عندما لاحظ أنّها ضيّقت عينيها وقطّبت حاجبيها في عدم استيعاب، واصل شارحاً سؤاله:

- أقصد هل يزاول مهنة معيّنة؟

بدت غير متحمّسة للجواب، ولكنّها رغم ذلك قالت بنبرة المُرغَم على الكلام:

- أخوك رجل يكسب قوت يومه بعرق جبينه وهذا هو الأهمّ.

بـدا عـادل غـير مقتنـع بجـواب أمّـه الّـذي كانـت تفـوح منـه رائحـة الغمـوض المحـيّر، لذلـك فقـد كان في حاجـة إلى مزيـد مـن الـشّرح:

- مـاذا تقصديـن يـا أمّـي؟! هـل تعرفـين مـا هـي مهنـة نجيـب بالضّبـط أم لا؟

ردّت بحزم وكأنّها تضع نقطة النّهاية للموضوع:

- لا أعـرف، ولا أريـد أن أعـرف. قلـت لـك أنّ أخـاك رجـل يكـدّ مـن أجـل كسـب رزقـه وانتهـى الأمـر.

قال في عزم وتصميم:

- لا يا أمّي، لم ينته الأمر بعد.

حدّقت إليه في دهشة ما كان ليجزم إن كانت صادقة أو مزيّفة.

سألت في حنق:

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟

أيقـن الآن أنّ وقـت إلقـاء القنبلـة قـد حـان، وقـد كان متأهّبـاً لهـذه اللّحظـة، لذلـك قـال في شـجاعة وإقـدام مـن هيّـأ نفسـه جيّـداً لتحمّـل كلّ الخسـائر المحتملـة:

- أتمنّـى ألاّ يكـون نجيـب نشّـالاً يـا أمّـي، لقـد بلـغ إلى علمـي أنّـه سـبق وسرق هاتفـاً لإحـدى الفتيـات، كلّ مـا أتمنّـاه أن يكـون هـذا الحـادث عارضـاً وألاّ يكـون قـد اتّخـذ السرقـة مهنـة لـه.

استشاطت غضباً وانفجرت في وجهه:

- مـا هـذا الـكلام السّـخيف الّـذي تقولـه؟! كيف تسـمح لنفسـك بـأن تتّهم نجيـب بتهمـة شـنيعة كتلـك! هـل تملـك دليـلا عـلى كلامـك التّافـه هـذا أم أنّك تفـتري عليـه إفـكاً وتلقـي الـكلام عـلى عواهنه؟!

قال بنبرة واثقة محاولاً تهدئة روعها قدر الإمكان:

- أنـا متأكّـد مـمّا أقـول يـا أمّـي، نجيـب قـام بجريمـة سرقـة بنـت أعرفهـا باسـتعمال السّـلاح الأبيـض، اعـترض سـبيلها ونهبهـا هاتفهـا وحقيبـة يدهـا وتسـبّب لهـا في جـرح عـلى مسـتوى المعصـم، الأمـر في منتهـى الخطـورة يـا أمّـي، هـذه الجريمـة قـد تصـل عقوبتهـا إلى السّـجن المؤبّـد.

سألت الأمّ في ضجر:

- من تكون هذه البنت؟

أجاب عادل برزانة:

- أعـرف البنـت وأعـرف أختهـا كذلـك، ولكـن هـذا ليـس مهـمّاً يـا أمّـي، المهـمّ الآن أن نلحـق نجيـب قبـل أن يرمـي بنفسـه إلى التّهلكـة.

واصل مستدركاً وهو يخرج الهاتف من حقيبته ويريه لأمّه:

- اه نسـيت. الهاتـف المـسروق معـي. ولكـن هـذا ليـس مهـمّاً أيضـاً، المهـمّ الآن هـو أن يعيـد نجيـب الهاتـف والحقيبـة لصاحبتهـا. الحقيبـة تحتـوي عـلى أوراق شـخصيّة مهمّـة، لا يجـب أن يظهـر نجيـب في الصّـورة بـأيّ حـال مـن الأحـوال، فليرسـل الأغـراض في البريـد مثـلاً أو مـا شـابه.

تابع وهو يدسّ يده في محفظته ويستلّ ورقة ويمدّها لأمّه:

- هاهـو عنـوان المنـزل، الحمـد للّـه أن الأمـور انتهـت عنـد هـذا الحـدّ ولم تتفاقـم إلى ماهـو أسـوأ، ولكـن كـما تعلمـين وكـما يقولـون: ليـس كلّ مـرّة تسـلم الجـرّة. عليـه أن يبتعـد عـن هـذا الطّريـق المحفـوف بالمخاطـر والّـذي لا يقـود إلاّ إلى الهاويـة مهـما طـال الزّمـان. كلّميـه يـا أمّـي وسـأكلّمه بـدوري عندمـا أعـود ليـلاً.

دون أن ينتظـر منهـا جوابـاً سـلّمها الهاتـف وغـادر متحاشـياً النّظـر إلى وجههـا.

لقد آثر الفرار على أن يشهد لحظة انكسار من يحبّ.

ولكـن هـل عاشـت أمّـه لحظـة انكسـار فعـلا أم أنّ ذلـك كان في خيالـه فقـط؟!

لم يكن متأكّداً...

كلّ مـا أصبـح متأكّـداً منـه هـو أنّهـا عـلى درايـة بـكلّ مـا تجترحـه يـدا ابنهـا، ربّمـا ليـس كلّ شيء، ولكـن عـلى الأقـلّ تعـرف أنّـه يكسـب رزقـه بطـرق مشـبوهة، ولكـن لمـاذا تتسـتّر عليـه؟! ربّمـا لأنّهـا تحبّـه أكـثر مـمّا ينبغـي. أو ربّمـا لأنّهـا تجنـي نفعـاً مـا مـن وراء أفعالـه. ولكـن هـل كلّ هـذه المـبرّرات تعطيهـا الحـقّ في التّسـتّر عليـه؟ أكيـد لا، هكـذا كان يفكّـر عـادل وهـو يغـادر المنـزل...

اتّصل بعزيـز لـكي يخبره بأنّـه أحـضر لـه قنّينـة الـدّواء الّتـي أرسـلتها لـه ابنتـه حنـان، فطلـب منـه أن يـأتي لزيارتـه في صيدليتـه. لذلـك أوقـف سـيّارة أجـرة وطلـب مـن سـائقها أن يوصلـه لعـين المـكان.

دخل الصّيدلية وألقى التّحيّة فبادره عزيز مرحّبا:

- أهلا أستاذ عادل. كيف حالك؟

أجاب عادل بوجه بشوش:

- الحمد للّه سي عزيز. وأنت؟

ردّ عزيز مبتسما:

- الحمد للّه أستاذ. كلّ شيء على ما يرام.

استطرد بلهجة يمتزج فيها الجدّ بالمزاح:

- هـه...! مـا هـي أخبـار حنـان؟ أنـا عـلى يقـين أنّنـا أودعناهـا في أيـادٍ أمينـة. أليـس كذلـك؟!

أجاب عادل مبتسما:

- الدّكتورة حنان بألف خير، تبلغك السّلام.

أخـرج مـن جيـب محفظتـه قنّينـة الـدّواء في حـين أشـار إليه عزيـز بيده أن يُرجعهـا وهـو مرتبـك تزامنـاً مـع دخـول فتاتـين إلى الصّيدليـة وهـما تضحـكان، أرجـع عـادل القنّينـة إلى المحفظـة واسـتدار محـاولاً اكتشـاف الـسّرّ الّـذي زرع الارتبـاك في نفـس عزيـز، فلمـح عليـاء ونعيمـة مقبلتـين وهـما تثرثـران في فرح، بـدت الدّهشـة عـلى وجهـي الفتاتـين.

همست نعيمة بصوت خافت بالكاد سمعته علياء:

- عادل!

حدّقت إليها علياء في عدم تصديق وقالت متسائلة:

- هل تعرفينه؟!

واصلت مستدركة وكأنّها تذكّرت شيئا للتّوّ:

- هل هذا هو عادل الّذي...؟!

قبل أن تكمل سؤالها أجابتها نعيمة بإيماءة من رأسها دلالة الإيجاب.

كانـت عليـاء تعلـم أنّ عـادل هـو حبيـب نعيمـة، أو بتعبـير أدقّ كانـت تعلـم أنّ اسـم حبيـب نعيمـة هـو عـادل، ولكـن لم يخطـر ببالهـا أبـدا أنّ عـادل هـذا هـو نفـس الشّـابّ الوسـيم الّـذي أثـار إعجابهـا عندمـا رأتـه يـوم زيارتهـا رفقـة أفـراد أسرتهـا لتلـك القريـة المقفـرة الّتـي سـتعمل في مركزهـا الصّحّـي أختهـا حنـان.

حـان الـدّور هـذه المـرّة عـلى نعيمـة لتعـبّر عـن دهشـتها أيضـا وهـي تسـأل:

- هل تعرفينه؟!

ردّت علياء بصوت مرتبك:

- نعـم. لا...ليـس بالضّبـط. أقصـد أنّنـي رأيتـه مـرّة واحـدة في اليـوم الأوّل الّـذي رافقنـا فيـه حنـان لزيـارة القريـة حيـث سـتعمل. ولكنّنـي لم أكـن...

نعيمـة أيضـا لم تكـن تعلـم أنّ حنـان أخـت عليـاء هـي الطّبيبـة الّتـي حدّثهـا عنهـا عـادل آخـر مـرّة بحماسـة كبـيرة إلاّ منـذ مـدّة قصـيرة.

كانـت عليـاء تهـمّ بإكـمال كلامهـا حـين قاطعهـا عـادل وهـو يقـول بوجهـه المبتسـم رغـم شـبح الاسـتغراب الّـذي طفـا عليـه لوهلـة:

- أهلاً وسهلاً بكما.

صافح الفتاتين بحرارة وقال وهو يبتسم ويجيل بصره بينهما:

- لم أكن أعرف أنّكما صديقتان حميمتان لهذه الدّرجة:

صاحت علياء تقول بلهفة واستعجال:

- أنا أيضا لم أكن أعرف أنّك...

ثـمّ لاذت بالصّمـت بعـد أن تذكّـرت أباهـا الّـذي يبـدو أنّ المفاجـأة قـد أنسـتها وجـوده.

ابتسـم الثّلاثـة ابتسـامة ذات مغـزى مـمّا سـمح لعزيـز بـأن يقحـم نفسـه في الحـوار قائـلاً بلهجـة مداعبـة:

- يبـدو أنّكـم تعرفـون بعضكـم البعـض جيّـداً. عـلى العمـوم هـذا أفضـل لأنّكـم وفّرتـم علينـا وقـت التّعـارف.

سـلّم عـلى الفتاتـين وطلـب منهـما أن تنتظـراه في السّـيّارة بعـد أن أعطـى المفاتيـح لعليـاء.

قال لعادل مبرّراً ارتباكه عند ما رأى الفتاتين:

- لا أريـد عليـاء أن تعـرف أيّ شيء عـن موضـوع الـدّواء، يجـب أن يبقـى الأمـر في طـيّ الكتـمان.

ثمّ تابع بنبرة مرحة وهو يضحك:

- أنـت تعـرف شـباب اليـوم، ينـشرون كلّ شيء في الفيـس بـوك. لم تعـد لديهـم أسرار، حتّـى مشـاعرهم ينشرونهـا حتّـى قبـل أن يحسّـوا بهـا.

قهقـه عـادل حتّـى كادت عينـاه تدمعـان، أعجبتـه الـرّوح المرحـة الّتـي يتمتّـع بهـا عزيـز. لذلـك قـال مداعبـاً:

- لا تخف فأنا لست منهم.

واصل وهو يُخرج قنّينة الدّواء ويسلّمها له:

- على الأقلّ في موضوع الدّواء.

ضحكا معا ثمّ قال عزيز:

- سأتشرّف كثيراً لو قبلت ضيافتي هذه اللّيلة. هه...! ما رأيك؟!

قال عادل في امتنان:

- ذلـك مـن دواعـي سروري بـدون أدنى شـكّ، ولكـن اعـذرني. لا أسـتطيع اللّيلـة. لـديّ أمـر شـديد الأهمّيـة يجـب علـيّ إنجـازه، فرصـة أخـرى إن شـاء اللّـه. أشـكرك جزيـلا عـلى كرمـك.

صاح عزيز في خبث:

- وعد؟

قال عادل في ثقة:

- وعد.

قال عزيز في ارتياح:

- لا بأس إذن، ولكن لابدّ أن أوصلك بسيّارتي إلى باب منزلك.

وقبل أن يعتذر عادل صاح فيه عزيز بنبرته المازحة:

- هذا أمر لا مجال فيه للاعتذار.

واصل بنبرة طغت عليها الجدّيّة هذه المرّة:

- الأمـن أصبـح عملـة نـادرة في بلدنـا يـا أسـتاذ، لابـدّ أنّ حنـان أخبرتـك بمـا أصـاب ابنتـي عليـاء، ذلـك الوغـد اعـترض طريقهـا ونهبهـا كلّ مـا تملـك بعدمـا جرحهـا عضويّاً ونفسـيّاً.

تابع وهو يكزّ على أسنانه في غيظ ويجمع قبضة يده في تحسّر:

- لابدّ أن يدفع ثمن ما اقترفت يداه، إنّنا لا نعيش في غابة يأكل فيها القويّ الضّعيف.

ثمّ استطرد كأنّه يحاول أن يبرّر لعادل نوبة غضبه المفاجئة:

- أنت لا تعرف مدى حبّي لعلياء، إنّها صغيرتي المدلّلة، قد لا يكفيني قصاصاً أن أبتر اليد الّتي تمسّها بسوء.

أردف وهو يربّت على كتف عادل في ودّ:

- دعنا الآن من هذا الكلام، ذلك الحقير لن يفلت من انتقامي طال الزّمان أو قصر. هيّا بنا الآن، فكما ترى، صرت مجبراً على أن أوصل ابنتي بسيّارتي إلى المنزل كلّ مساء وكأنّنا نعيش في كابول أو ريو ديجانيرو.

ركب عادل بجوار عزيز في المقعد الأمامي للسّيّارة الفارهة الّتي فكّر أنّه لن يستطيع امتلاك مثلها ولو قضى عمره كلّه يدّخر أجرته كاملة دون أنّ يصرف منها درهماً واحداً. بينما اطمأنّت علياء ونعيمة في الخلف وهما تتهامزان وتتلامزان في همس.

أدار عزيز محرّك السّيّارة الّتي انطلقت بسلاسة ليقول بعد ذلك لعادل وهو يلتفت نحوه:

- ما هو الحيّ الّذي تقطن فيه؟

أجاب عادل:

- حيّ القدس. هل تعرفه؟

هزّ عزيز رأسه موافقا وهو يقول:

- حيّ القدس! نعم أعرفه. سأقوم بإيصالك أوّلا إذا.

كان عادل يختلس النّظرات في المرآة العاكسة ليطالع وجه نعيمة في وله شديد وحذر أشدّ حتّى لا يقع في كمين المراقبة الّذي تفرضه عليهما

علياء المترّبصة بهما لا محالة، فهو لا يعرف بالضّبط مقدار منسوب الأسرار الّذي أفشت به نعيمة لصديقتها، ولكنّه يعرف بكلّ تأكيد أنّ هذا المقدار ليس قليلاً على كلّ حال.

شغّل سي عزيز المسجّلة لكسر الصّمت الّذي بدأ يشيع في السّيّارة، فانطلق صوت لارا فابيان الأجشّ وهو يصيح بكلّ رقّة:

D›accord, il existait d›autres façons de se quitter.

(حسنا، كانت هناك طرق أخرى لنفترق)

Quelques éclats de verre auraient peut-être pu nous aider.

(بعض شظايا الزّجاج المكسور كانت كافية لمساعدتنا)

كان عادل يسترق النّظرات لنعيمة في لهفة وعيناه تقولان: لا يا لارا فابيان، أنا ونعيمة لن نفترق أبدا بأيّ طريقة من الطّرق ولن نحتاج أبداً لمن يساعدنا.

واصلت لارا فابيان:

Dans ce silence amer j›ai décidé de pardonner.

(في هذا الصّمت المرير قرّرت أن أسامح)

Les erreurs qu›on peut faire à trop s›aimer.

(كلّ تلك الأخطاء الّتي قد ترتكبها بسبب الكثير من الحبّ)

قالت عينا عادل في صمت: أنا أيضا قرّرت أن أسامحك على كلّ الأخطاء الّتي قد ترتكبينها (يا حبيبتي نعيمة) بسبب حبّك الشّديد لي.

تابعت لارا فابيان:

D›accord, la petite fille en moi souvent te réclamait.

(حسنا، تلك الطّفلة الصّغيرة بداخلي دائما تناديك وتتألّم لغيابك)

Presque comme une mère tu me Bourdais, me protégeais.

(لأنّك أشبه بالأمّ كنت تحتويني وتحميني)

هتفت عينا عادل في لوعة: آه لو تعرفين يا حبيبتي كم أتألّم لغيابك أيضاً!

واصلتا في حسرة مريرة: أنا أيضا أريدك أن تحتويني وتحميني، ولكن ليس على طريقة أمّي القاسية. احتويني واحميني على طريقتك يا حبيبتي.

تابعت لارا فابيان غناءها:

Je t›ai volé ce sang qu›on n›aurait pas dû partager.

(لقد سرقت منك هذا الدّم الّذي كان علينا ألاّ نتقاسمه)

A bout de mots, de rêves je vais crier: je t›aime je t›aime

(بمنتهى الكلمات والأحلام سأصرخ: أحبّك أحبّك)

Comme un fou, comme un soldat comme une star de cinéma.

(مثل المجنون، مثل الجندي أو مثل نجمة من نجمات السّينما)

Je t›aime je t›aime

Comme un loup, comme un roi comme un homme que je ne suis pas.

(مثل ذئب، أو مثل ملك. مثل ذلك الرّجل الّذي لم أعرفه أنا)

ثمّ صرخت عينا عادل وروحه وقلبه: أنا أيضا أحبّك أحبّك أحبّك.

أحبّك مثل حبّ المجنون لليلى.

أحبّك مثل حبّ الجندي لاتفاقيات السّلام.

أحبّك مثل حبّ كلّ نجوم السّينما لحبيباتهم.

أحبّك مثل حبّ الذّئب لشريكته.

أحبّك مثل حبّ الملك للجاه.

أحبّك أكثر من حبّي لتلك الفتاة الّتي تجلس في السّيّارة الآن خلفي تختلس النّظر إليّ في حبّ.

واصلت لارا فابيان بصوتها الدّافئ منهية اعترافاتها:

Tu vois, je t›aime comme ça.

(هل عرفت الآن كيف أحبّك؟؟)

صاحت عينا عادل: نعم لقد عرفت. وأنت يا حبيبتي هل عرفت الآن كيف أحبّك؟؟

كانت لارا فابيان لازالت تصرخ معترفة أمام العالم كلّه بحبّها، حين انتفضت علياء من مكانها كمن أصابه مسّ وهي تشير للشّارع بيدها عبر النّافذة وتصرخ في هلع:

- إنّه هو. إنّه هو. إنّه الشّخص الّذي اعتدى عليّ.

صرف الجميع وجوههم بسرعة خارقة إلى حيث كانت تشير علياء، فوقعت أبصارهم على شابّ يقود درّاجته النّارية بتهوّر وبسرعة سيّارة يقودها سائق يخشى أن يفوته موعد إقلاع الطّائرة الّتي ستقلّه في رحلة مهمّة لا سبيل أمامه لتعويضها.

كاد قلب عادل يغادر صدره عندما وقع بصره على أخيه نجيب وقد أدرك أنّه هالك لا محالة، يعلم أنّ عزيز يتأجّج قلبه حقداً عليه، وتعتريه رغبة عارمة في أن ينتقم منه ويردّ له الصّاع صاعين، لن يترك فرصة القصاص تمرّ. يا للهول! هكذا قال عادل في سرّه عندما أدرك متأخّراً أنّه في وضع لا يتمنّاه عدوّ لألدّ أعدائه، ماذا سيكون موقف عزيز عندما يدرك بعد قليل أنّ الأستاذ الجالس بجانبه في رزانة واتّزان هو أخو المجرم الّذي اعتدى على ابنته المحبّبة إلى قلبه؟! لابدّ أنّه سيقذفه من النّافذة غير مأسوف عليه كما يُقذف خارج المنزل قطٌ ضُبِطَ متلبّساً بسرقة طعام

وليمـة، وكيـف سـتتصّرف نعيمـة لـو علمـت أنّ حبيبهـا الّـذي تحلـم ليـلاً ونهـاراً بـأن يصـير زوجهـا وأبـاً لأبنائهـا هـو أخٌ لمجـرم يعـترض سـبيل المـارّة ويسـلبهم ممتلكاتهـم بـكلّ وحشـية؟ لابـدّ أنّهـا سـتتبرّأ منـه تـبرّأ النّـاس مـن ولـد السّـفاح.

إذا كانـت حنـان قـد رحمتـه ولم تحمّلـه إثـم جريـرة لم يرتكبهـا، فـلا أحـد يضمـن أنّ نعيمـة سـتحذو حـذو حنـان؟

إنّ غـدا لناظـره قريـب، بـل إنّ لحظـة الحقيقـة المـرّة أضحـت أقـرب إليـه مـن حبـل الوريـد...

قال عزيز في شماتة وهو يشير بيده ليهدّئ من روع ابنته:

- اهـدئي يـا علياء حتّـى لا تثيري شـكوكه فيلـوذ بالفـرار، لقـد وقـع الوغـد بـين يـديّ ولا سـبيل لـه للخلاص منّـي.

ثـمّ تـروّى قليـلا قبـل أن يلتفـت إلى عـادل ويقـول بنـبرة مـن يستشـير صديقـه الحصيـف في أمـر مهـمّ:

- سـأخفّف مـن السّرعـة قليـلا وأتعقّبـه إلى أن يصـل إلى المـكان الّـذي يقصـده وننقـضّ عليـه وهـو في غفلـة مـن أمـره.

فكّـر عـادل في سرّه مرعوبـاً: ننقـضّ عليـه؟!!! عـلى اعتبـار أنّـه لـصّ مـن افريقيـا جنـوب الصّحـراء لم يسـبق لي أن رأيتـه مثـلاً!

استطرد عزيز في رجاء:

- أتمنّى فقط ألاّ يسلك زقاقاً ضيّقاً يستحيل على السّيارة المرور عبره.

تنهّـد عـادل تنهيـدة اليائـس وهمـس في سرّه محدّثـاً عزيـز: وأنـا كلّ مـا أتمنّـاه في هـذه اللّحظـة هـو أن ترتكـب مخالفـة مروريّـة وأن يتـمّ إيقافـك مـن طـرف شرطـيّ مهـذار لا يمـلّ مـن الـكلام حتّـى والنّـاس نيـام.

صاح عزيز متسائلاً وكأنّه لا يريد لذرّة شكّ أن تتسلّل إليه فتنغّص عليه فرحته بنصره المبين:

- هل أنت متأكّدة يا ابنتي أنه هو؟

أجابت علياء في اندفاع وثقة:

- نعم نعم بكلّ تأكيد. حتّى أنه يرتدي نفس الثّياب.

ثمّ واصلت مؤكّدة:

- إنّني أستطيع التّعرّف عليه من بين المئات من الأشخاص، تسريحته مميّزة ومظهره كذلك.

قال عزيز في ارتياح:

- حسناً. لقد وقع إذن.

كانت الأفكار تضطرم في عقل عادل مثل نيران تجرّعت لتوّها قنّينة بنزين، لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول، تذكّر قنّينة الدّواء فلعن سي الحسين، فلولاه لكان عزيز قد سلك طريقاً آخر وما كان ليجد نفسه في هذا الموقف المحرج الّذي لا نهاية تلوح في أفقه سوى فضيحة حتميّة.

كانت نعيمة تتابع المشهد كما لو كانت تشاهد فيلماً هندياً من أفلام الإثارة والتّشويق، ولم تكن تعلم أنّ حبيبها هو ذلك البطل الأعزل الّذي يجد نفسه على حين غرّة محاطاً برجال غلاظٍ شدادٍ لا يعصون زعيمهم ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. لو كان الأمر برمّته مشهداً من فيلم لكان البطل الأعزل قد قضى على أفراد العصابة المدجّجين بأسلحتهم بأعجوبة. ولكنّ الأمر ليس فيلماً، ولا حلماً، ولا حتّى كابوساً مرعباً قد يستفيق منه عادل في أيّ لحظة مفزوعاً جافّ الحلق وهو يتفصّد عرقاً، فيستغفر اللّه ثمّ يشرب كأس ماء ويغسل وجهه ثمّ يمضي ممارساً حياته بشكل طبيعيّ كأنّ شيئاً لم يكن. الأمر ليس كذلك. إنه أصعب من ذلك بكثير...

كان عـادل مضطربـاً في جلسـته وكأنّـه يجلـس عـلى كـرسيّ مـن نـار، وكان عزيـز منتشـياً بصيـده الثّمـين الّـذي سـاقته لـه الأقـدار دون أن يركـب سـفينة الأخطـار.

كان الوقـت يمـرّ ثقيـلاً عـلى عـادل، وكان يتمنّـى لـو يسـتطيع أن يتخلّـص مـن هـذا الثّقـل الجاثـم عـلى أنفاسـه. لـو يسـتطيع أن يـصرخ بأعـلى صوتـه: هـذا أنـا وهـذا أخـي، وهـذا مـا قـدّر اللّـه لنـا فافعلـوا بنـا مـا أنتـم فاعلـون.

إنّ انتظار المصيبة أشقّ على النّفس من المصيبة نفسها.

فكّـر عـادل في الاعـتراف ليرحـم نفسـه مـن عـذاب أليـم لم تعـد لـه طاقـة عـلى احتمالـه، ولم يكـن يمنعـه مـن ذلـك سـوى خوفـه مـن أن يقـوده تسرّعـه ونفـاد صبره إلى الـزّج بأخيـه في غياهـب السّـجن. قـد تحـدث معجـزة وينجـو نجيـب. قـد يسـلك زقاقـاً ضيّقـاً لا تسـتطيع السّـيّارة الفخمـة عبـوره. قـد يتنبّه إلى السّـيّارة الّتـي تتعقّبـه فيلـوذ بالفـرار وهـو الخبـير، ولا ريـب، بشـوارع ودروب وأزقّـة المدينـة. قـد يرتكـب عزيـز مخالفـة مروريّـة تجعلـه يتوقّـف اضطراريـاً لمجادلـة شرطـيّ لوقـت كاف ليبتعـد نجيـب ويختفـي كلّ أثـر لـه، فلـم التّـسرّع إذن؟!

لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.

ولكنّ زمن المعجزات قد ولّى إلى غير رجعة.

كان الأمـل واليـأس يحتدمـان في ذهـن عـادل بـين مـدّ وجـزر، ولكنّـه قـرّر أخـيراً أن يصـبر ويتعلّـق بحبـال الأمـل مهـما كانـت هشّـة.

لم يكـن يومـاً انهزاميـاً، ولـن يكـون اليـوم هـو يـوم مـيلاد شـخصيته الانهزاميـة الّتـي لم تكـن يومـاً شـخصيته...

ولكنّ الأوان قد فات...

لم يـدرك ذلـك إلاّ حينـما رأى نجيـب يفتـح بـاب المنـزل دافعـاً درّاجتـه النّاريـة أمامـه.

قـال عزيـز وهـو يركـن سـيّارته عـلى بعـد أمتـار مـن المنـزل الّـذي كان نجيـب قـد أغلقـه وراءه:

- هنا يقطن المجرم إذن.

ثـمّ صـاح مسـتدركاً في اسـتغراب وهـو يلتفـت إلى عـادل الّـذي كان جالسـاً في استسـلام وكأنّ الأمـر قـد خـرج عـن نطـاق سـيطرته:

- الغريب أنّه يقطن في نفس الحيّ الّذي تقطن فيه! هل تعرفه؟!

هـزّ عـادل رأسـه نافيـاً في حركـة آليـة ولسـان حالـه يقـول: الأغـرب أنّـه يقطـن في نفـس المنـزل الّـذي أقطـن فيـه! ببسـاطة إنّنـي لا أعرفـه. إنّـه فقـط أخـي! هـذا كلّ مـا في الأمـر!

ودّ فعـلاً لـو أنّـه اسـتطاع أن يقـول هـذا الـكلام ويضـع حـدّاً لمعاناتـه النّفسـية، ولكـنّ حبـال الأمـل الهشّـة لم تنقطـع بعـد رغـم أنّهـا أوشـكت عـلى ذلـك...

صاحت علياء متسائلة:

- ماذا سنفعل الآن يا أبي؟

أجابها عزيز وهو يرفع هاتفه:

- سـأتّصل بالشّرطـة لـكي يحـضروا الآن ويقبضـوا عليـه قبـل أن يغـادر المنـزل مـن جديـد.

تدخّل عادل في محاولة يائسة ليقول:

- أظنّ أنّه يجب عليك أن تتريّث.

حدّق إليه عزيز في شكّ.

واصل عادل شارحاً في ارتباك:

- ماذا لو لم تعثر الشّرطة في منزل المتّهم على أيّ دليل يدينه؟!

قال عزيز في إصرار وقد بدا أنّه عازم على المضيّ قدماً في ما همّ بفعله:

- لقد قمنا بواجبنا وأكثر، والآن جاء الدّور على الشّرطة لتقوم هي الأخرى بواجبها، قد يكون الوغد قد تخلّص من الهاتف مقابل بعض الدّريهمات يعطيها له نذل آخر لا يقلّ نذالة عنه، ولكن بالنّسبة للوثائق، فأظنّ أنّها غير ذات جدوى بالنّسبة له، لذلك أرجّح أنّه لا يزال يحتفظ بها في مكان ما. كما أنّ السّاطور حجّة دامغة ضدّه. لابدّ أنّه يخفيه في مكان ما في المنزل، ثمّ إنّ علياء وصفت المتّهم وصفاً دقيقاً للشّرطة، لا تجزع يا أستاذ، الأدلّة كلّها ضدّه ولا سبيل له للإفلات من العقاب.

كالأبله، صاح عادل محدّثاً سي عزيز في نفسه وقد صحت روحه المرحة من جديد رغم الموقف الحرج الّذي هو فيه: لا يا سي عزيز. أنا لست جزعاً أبداً. أنا في قمّة السّعادة، حتّى أنّ نفسي تتوق الآن إلى رقصة فلامنغو. هل تصدّق ذلك؟!

راح عادل يستعيد في ذاكرته آخر ما نطق به عزيز في الوقت الّذي كان فيه الأخير يجري مكالمته مع الشّرطة، فأصابته الصّعقة. كيف لم يخطر بباله أنّه ليس أخاً للمتّهم فقط، بل هو متّهم أيضا. متّهم بجريمة شراء هاتف مسروق، تذكّر ذلك وهو يستعيد كلمات عزيز عن النّذل الّذي دفع دريهمات مقابل هاتف علياء المسروق.

صاح عادل من جديد محدّثاً في نفسه عزيز بنفس الرّوح المرحة: أنا هو النّذل الّذي تتحدّث عنه يا سي عزيز. ولعلمك، فقد دفعت مقابل هاتف ابنتك خمسمائة درهم وليس دريهمات فقط كما تدّعي.

لـو لم يكـن الصّمـت أبكـم، لنطـق ليسـتعطف سي عزيـز ليرفـق بحـال هذا الشّـابّ الجالـس بجانبـه في جمـود كجلمـود صخر...

لم يـدر عـادل كـم مـرّ مـن الوقـت حينـما أبـصر سـيّارة الشّرطـة تتوقّـف أمـام بـاب المنـزل ويترجّـل منهـا رجـلا شرطـة بـزيّ مـدنيّ لم يُتَـح لـه التّعـرّف عـلى رتبـة كلّ منهـما. كان أحـد الشّرطيـين طويـلاً كعمـلاق، ممتلـئ الجسـم، أسـمر البـشرة، حتّـى خُيِّـلَ إلى عـادل أنّـه سبق وشـاهده في التّلفـاز يشـارك في مبـاراة مـن مباريـات دوري كـرة السّـلّة الأمريـكيNBA. أمّـا الثّـاني فقـد كان رجـلاً عاديـاً لا يميّـزه عـن معظـم الرّجـال سـوى شـاربه الكـثّ المعقـوف الّـذي يشـبه شـعار الحـزب الوطنـي الاشـتراكي في ألمانيـا في عهـد هتلـر.

نـزل عزيـز مـن سـيّارته طالبـاً مـن عـادل مرافقتـه، مـشى بخطـوات رصينـة صـوب الشّرطيـين، بينـما مـشى عـادل وهـو يكـرّ ويفـرّ كفـارس يتخبّـط في يـمّ مـن الحـيرة والـتّردّد والخـوف.

قال الشّرطيّ العملاق وقد بدا أنّه على معرفة سابقة بعزيز:

- أهلا سي عزيز. كيف حالك؟

أجاب عزيز:

- بخير وللّه الحمد.

ثمّ أردف في استعجال ليجعل الحديث يصبّ في الموضوع الأهمّ:

- عـليّ أن أشـكر اللّـه الّـذي أوقـع الجـاني في طريقـي دون حـول منّـي ولا قـوّة.

أومأ العملاق برأسه موافقاً وهو يسأل مشيراً بيده إلى المنزل:

- هل هو بالدّاخل الآن.

ردّ عزيز من فوره:

- نعم.

قال العملاق في لهجة أقرب إلى الابتهال لا تناسب وظيفته ولا حجمه الضّخم:

- انتظرا في السّيّارة رجاءً.

ثمّ واصل موجّهاً كلامه إلى عزيز:

- سنلقي القبض عليه فوراً، اتبعنا بعد ذلك إلى مخفر الشّرطة من فضلك، نحتاج إفاداتكم في الموضوع.

أومأ عزيز برأسه موافقاً، ثمّ انسحب إلى سيّارته صحبة عادل المصدوم مُخْلِيَيْنِ السّاحة لرجلي الأمن ليقوما بمهمّتهما.

طرق الشّرطيّ صاحب الشّارب المعقوف الباب، وما هي إلاّ لحظات قصيرة حتّى فتح نجيب ليجد نفسه أمام وجهين لا تبشّر ملامحهما بأيّ خير.

كانت مشاعر عادل وهو يتابع المشهد باهتمام من السّيّارة، أشبه ما تكون بعصير غريب النّكهة لا يستطيع المرء أن يخمّن مكوّناته مهما ارتشف منه، رأى أخاه وهو يحدّث الشّرطيين في تشنّج ظاهر للحظة، ثمّ رآهما وهما يحكمان القبض عليه ويعقدان يديه خلف ظهره ثمّ يكبّلانهما بالأصفاد، ثمّ رآهما بعد ذلك يقتادانه إلى داخل المنزل قبل أن يخرجوا جميعاً من جديد وقد غنم الشّرطيان هاتف علياء المحمول وحقيبة يدها وساطوراً تكفي تهمة حيازته للزّج بنجيب في غياهب السّجن لسنوات.

رغم أنّ المشهد برمّته جعل عادل يشعر بقهر فظيع، وغبن مريع، إلاّ أنّ ما أحسّ به عندما لمح نجيب يرمقه بنظرات شزراء تشي بالحقد والغلّ عندما كان مُقتاداً إلى سيّارة الشّرطة، جعل قلبه ينقبض من الجزع.

ترى ماذا سيدور في خلد نجيب؟

لم يكن عادل يجهل جواب هذا السّؤال طالما أنّ نظرة أخيه الشّزراء أغنته عن سماع أيّ جواب، لابدّ أنّ نجيب سيظنّ به الظّنون، نظراته الغاضبة تقول ذلك، سيظنّ لا محالة أنّ عادل وشى به إلى الشّرطة حتّى يتمّ إلقاء القبض عليه.

صاح مازحاً يحدّث نفسه: يا إلهي...! بعد أن ثبتت في حقّي تهمة إخفاء المسروق، هاهي تهمة الوشاية تنضاف لترصّع سجلّي الحافل.

تحرّكت سيّارة الشّرطة، وأدار عزيز محرّك سيّارته تأهّباً لاقتفاء أثرها.

همس عادل في خيبة:

- ولكن هل لديهم إذن من النّيابة العامّة بتفتيش المنزل؟!

نظر إليه عزيز مستغرباً، ومطّ شفتيه، وهزّ كتفيه في لا مبالاة وهو يقول:

- ليس مهمّاً.

ثمّ انطلق بسيّارته...

كانت نعيمة تتابع الأمر في استمتاع، فرجة مجّانية قادتها الصّدفة إليها دون أيّ ترتيب مسبق منها.

لم تكن تتمنّى أن تسمع عزيز يقول:

- سنقوم بإيصال نعيمة أولاً ثمّ نذهب بعد ذلك إلى مخفر الشّرطة.

ابتسمت ابتسامة مصطنعة وأومأت برأسها دلالة الموافقة والامتنان...

في مخفر الشّرطة، لم يكن صعباً على الشّرطة إثبات جناية السّرقة تحت التّهديد بالسّلاح الأبيض في حقّ نجيب، فكلّ الأدلّة كانت متوافرة: السّاطور، حقيبة يد علياء، هاتفها، والأوصاف الّتي صرّحت بها سابقاً والّتي تنطبق تماماً عليه. ولكن ليس هذا هو أسوأ ما في الأمر، كان عادل يحسب ألف حساب لتلك اللّحظة الّتي سيكتشف فيها عزيز

وعلياء علاقته بنجيب، ولكنّ صعوبة تلك اللّحظة هانت أمام ما حدث بعدها عندما علم أنّ أخاه كان مبحوثاً عنه من طرف الشّرطة بتهم تتعلّق كلّها بالسّرقة تحت التّهديد باستعمال السّلاح الأبيض، والاتّجار بالمخدّرات والأقراص المهلوسة. فقد اعترف أنّه منضوٍ تحت لواء عصابة إجرامية متخصّصة في الأمر تعتمد السّرقات وترويج المخدّرات والأقراص المهلوسة قرب الإعداديات والثّانويات والمعاهد.

اعترف نجيب وانتهى أمره أو كاد، ولكنّ عادل لن ينسى أبداً وابل النّظرات الحاقدة الّتي كان يرشقه بها. كان يلعنه لعنات مكتومة ولكنّها تشي باتّهامات صريحة بالخيانة.

لن يصدّق أبدا رواية عادل وعزيز، وكان سيصرّ على أن يعتبر أخاه ظالعا في تهمة الوشاية قصد الإيقاع به. لم يصرّح بذلك إلاّ أنّ نظراته قالت كلّ شيء...

سيُتابَع عادل بتهمة حيازة المسروق، ولكن هذا ليس كلّ شيء، فالّذي سيحدث بعد ذلك سيبعثر أوراق حياته وسيجعلها مثل كومة قشّ في مهبّ ريح صرصر عاتية.

كلّ ما حدث وكلّ ما سيحدث بعد ذلك سيجعله يشعر أنّه مثل كيس الملاكمة، تأتيه الضّربات واحدة إثر الأخرى من كلّ حدب وصوب دون أن تقترف يداه أيّ ذنب.

عندما عاد إلى المنزل وحكى لأمّه ما جرى، كذّبته كما كذّبه نجيب من قبل، وألبسته نفس التّهمة الّتي ألبسه إيّاها.

أحسّ عادل أنّ تهمة الخيانة على مقاسه بالضّبط...

ثارت في وجهه مثل بركان:

- يـا لـك مـن نـذل حقـير. لم يهـدأ لـك بـال حتّـى أوقعـت بابنـي في يـد الشّرطـة.

قال مستنكراً:

- هل تصدّقين يا أمّي أنّ أخاً يمكن أن يفعل بأخيه مثل ما تدّعين؟!

انفجـرت في غضـب وكأنّهـا كانـت تنتظـر هـذه اللّحظـة منـذ أن أنجبـت نجيـب:

- أنا لست أمّك ونجيب ليس أخاك.

قال متجاهلاً كلامها ومحاولاً تهدئتها:

- أرجـوك اهـدئي يـا أمّـي، أعـرف أنّ الصّدمـة جعلـت أعصابك تفـور، ولكن مـا حـدث حـدث، أخـي أذنـب ويجـب أن يدفـع ثمـن جرائـره، كلّ مـا نسـتطيع عملـه الآن هـو التّفكـير في طريقـة لتخفيـف عقوبتـه قـدر الإمكان.

ثـمّ واصـل في محاولـة يائسـة لطمأنتهـا وهـو موقـن أنّـه هـو نفسـه غـير مقتنـع بمـا يقـول:

- اطمئنّـي يـا أمّـي، سـيكون أخـي بخـير، لا أعـرف كيـف ولكنّـه سـيكون بخـير.

صرخت بلهجة متوعّدة:

- قلـت لـك أنـا لسـت أمّـك ونجيـب ليـس أخـاك، نجيـب ابنـي الوحيـد أتفهـم ذلـك، اذهـب إلى الجحيـم وابحـث عـن أمّـك.

قال في عدم استيعاب وقد بدت عليه علامات الانهيار:

- أمّي هل تعرفين ماذا تقولين أم أنّ الصّدمة جعلتك تهذين؟!

تهـاوت الأمّ عـلى الأريكـة دافنـة وجههـا بـين كفّيهـا وانخرطـت في انتحـاب مـر.

تهـاوى عـادل بجانبهـا مثـل ورقـة عبثـت بهـا ريـاح الخريـف وصـاح متوسّـلاً:

- أستحلفك باللّه يا أمّي أن تقولي أنّ كلامك غير صحيح.

صمـت برهـة ينتظـر منهـا ردّاً يرضيـه ويبـدّد الشّـكوك الشّـائكة الّتـي غرسـتها في قلبـه بـكلّ قسـوة، ولكنّهـا لاذت بالصّمـت وتحصّنـت وراء مـتراس الانتحـاب.

مـال عليهـا وطـوّق عنقهـا بذراعيـه وشرع يقبّـل رأسـها وكتفيهـا والدّمـوع تنهمـر لتبلّـل وجنتيـه وهـو يقـول في رجـاء:

- أنـت أمّـي ولا أعـرف أمّـاً غـيرك، أعـرف أنّ حزنـك الشّـديد عـلى نجيـب هـو الّـذي دفعـك لتقـولي مـا قلـت. ولكنّنـي أعـذرك.

تابع متضرّعاً:

- هه...! أليس كذلك؟! انظري إليّ، أنا ابنك عادل.

حـرّرت عنقهـا مـن يديـه اللّتـين أحكمتـا تطويقـه، ونظـرت إليـه في غـلّ دون أن تنبـس بكلمـة، فجفـل وتقهقـر إلى الـوراء بعدمـا أصابـه الـرّوع. فكّـر في سرّه أنّـه يسـتحيل أن توجـد عـلى ظهـر البسـيطة أمّ تعامـل ابنهـا بمثـل هـذه الكراهيـة والحقـد، حـاول أن يلتمـس لهـا الأعـذار خصوصـاً أنّ ابنهـا مهـدّد بالسّـجن، ولكـن كيـف يـبرّر سـلوكاتها العدائيـة تجاهـه مـن قبـل؟ لابـدّ أنّهـا عـلى حـقّ.

صُعِـق عندمـا وصـل إلى هـذه النّتيجـة المؤلمـة، هـذه المـرأة لا يمكـن أن تكـون أمّـه، وعليـه أن يبحـث عـن أمّـه كـما طلبـت.

هيمنت عليه نوبة صراخ وهو يصيح بأعلى صوته:

- ولكن كيف؟! كيف؟! كيف؟!

بعد شدّ وجذب، وكرّ وفرّ، ومدّ وجزر، عرف عادل من أمّه الحقيقة كاملة.

بعد سنوات من زواجها من موظّف بسيط يعمل كعون مكتب في بلدية المدينة، فشلت خديجة في إنجاب مولود يبثّ الفرح والسّرور في نفس زوجها الّذي كان يعشق الأطفال كثيراً، أكّد لها طبيب النّساء والتّوليد أنّها عاقر لا حظّ لها في الإنجاب، فابتأست واكتأبت وارتاعت وخشيت أن يُقدِم زوجها على الزّواج عليها من امرأة ودود ولود تُنسيه فيها وتجعله يركنها على هامش حياته.

استنفرت كلّ حيل النّساء، واستعانت بالحكمة والدّهاء حتّى أقنعت زوجها أن يقوم بكفالة طفل، فكّرت وقدّرت واختارت أن يكفلا طفلاً يضعانه موضع ولدهما ويغدقان عليه من حنانهما، ولكن لأنّ الكفالة لا تُشعرها إلاّ بأمومة مقهورة، ولا تُشعر زوجها إلاّ بأبوّة مبتورة، فقد تحوّلت إلى تبنٍّ بعدما استغلّ الزّوج أحد أقربائه من ذوي النّفوذ والجاه والسّلطة من أجل تسهيل الأمر وجعله يسجّل الطّفل في كنّاش حالته المدنية وكأنّه ابنه الشّرعيّ.

إذا ظهر السّبب، بطل العجب...

أدرك الآن عادل سرّ كره أمّه خديجة له، لقد دفعت زوجها لبيع نصيبه من الإرث من أجل شرائه من أمّه البيولوجية الّتي تخلّصت من ابن أبي والده الاعتراف به بعدما أزلّهما الشّيطان وأوقعهما في المحظور قبل زواج لم يُكتَب له أن يتمّ، مقابل أن تختفي عن الأنظار بعد أن تنال قدراً مهماً من المال كفيل بأن يجعلها تعيش ما تبقّى من حياتها بأقلّ قدر ممكن من المتاعب. وبعد أن أراد اللّه أن يجعلها مظهراً من مظاهر قدرته بعد أن جعلها تحبل وتنجب، بعد ثماني سنوات على زواجها،

بعـد أن أقـرّ العلـم مـن قبـل أنّهـا عقيـم، أحبّـت خديجـة ابنهـا الشّرعـيّ نجيـب كـما لم تحـبّ شـخصاً مـن قبـل، وكرهـت بالمقابـل ابنهـا بالتّبنّـي عـادل أشـدّ الكـره خصوصـاً بعـد وفـاة زوجهـا الّـذي تركهـم في فاقـة شـديدة بعـد أن كان عـادل سـبباً في تبديـد ثروتـه.

قـضى عـادل ليلتـه مثلـما يجـب أن يقضيهـا شـابّ عـرف للتّـوّ أنّ أبـاه رفـض الاعـتراف بـه، وأنّ أمّـه باعتـه وهـو رضيـع كـما يُبـاع العبـد في سـوق النّخاسـة.

قضى ليلته الأولى وقد أضحى مجرّد رقم بلا هويّة.

قضى ليلة من ليالي الجحيم.

كان كمـن نـام في سريـره هانـئ البـال، مطمـئنّ النّفـس، ليسـتفيق في الصّبـاح ويجـد السّـيول قـد جرفـت منزلـه وأثاثـه وأهلـه وتركتـه منبـوذاً بالعـراء وهـو سـقيم...

(١٩)

الرّصاصة

الحياة تستمرّ والمعذّبون يتألّمون في صمت دون أن يشاركهم أحد آلامهم، لا يوجد في الدّنيا زرّ يمكن للمرء الضّغط عليه لعمل مشاركة لآلامه مع الآخرين على غرار ما يحدث في الفيس بوك. العالم الافتراضيّ شيء، والعالم الواقعيّ شيء آخر، هذه هي النّتيجة الّتي توصّل إليها عادل بعد أن كان قد قرّر إنزال منشور على الفيس بوك يشاركه مع المئات، بل ربّما الآلاف من أصدقائه الافتراضيين الّذين لم يسبق له أن تعرّف من قبل، من قريب أو من بعيد، على تسعة وتسعين في المائة منهم. تراجع بعد أن كتب المنشور واحتار في اختيار الشّعور الّذي سيُرفِقه به، كانت قائمة المشاعر أمامه ثريّة جدّاً، وكان عليه أن يختار شعوراً واحداً فقط يعبّر به عن حالته في هذه اللّحظة. لم يكن بإمكانه اختيار شعور واحد فقط لسبب بسيط وهو أنّه كان في حالة تمتزج فيها كلّ مشاعر الحزن المتوفّرة أمامه على القائمة دفعة واحدة: الحزن، الأسف، الوحدة، التّحطّم، خيبة الأمل، الغضب، الوجع، الصّدمة، الغربة، القلق، الألم، الإرهاق، الكآبة، الانزعاج، قلّة الثّقة، الحيرة، الإحباط، الاستياء، اليأس، الخوف...

ودّ عادل لو أنّه استطاع أن يشارك آلامه وعذاباته مع العالم أجمع. ودّ لو استطاع الوقوف في مكان عالٍ ليراه الجميع وتنقله كاميرات الهواتف

الذّكيّة مباشرة إلى جميع أنحاء الدّنيا صوتاً وصورة وهو يصرخ بكلّ ما أوتِيَ من قوّة:

توقّف لحظة أيّها العالم واستمع لوجع هذا الشّخص المجهول الّذي باعته أمّه البيولوجية وحطّمته أمّه بالتّبنّي.

توقّف لحظة أيّها العالم وشمّ رائحة الأسى الّتي تنبعث من هذا الشّخص المجهول الّذي طرحته أمّه من رحمها ليزكم أنوف النّاس بروائحه النّتنة.

توقّف لحظة أيّها العالم وتفرّج على قصّة هذا الشّخص المجهول الّذي تخلّى عنه أبوه حتّى قبل أن يمنحه اسمه وكأنّه كلب أجرب منبوذ.

ولكنّ العالم لم يتوقّف ليعزّي عادل في مصابه، ويشاركه حداده، بل سار بإيقاعه العاديّ المستفزّ وكأنّه يغيظه ويتخلّى عنه كما تخلّى عنه أبواه من قبل.

لو قطع أحدهم شجرة صمّاء في مكان قصيّ من هذه الكرة الأرضية، لهرعت الجمعيات والمنظّمات والهيئات المهتمّة بالبيئة تشجب وتندّد، ولكن عندما وجد عادل نفسه مبتوراً من جذوره، لم يحفل أحدٌ بأمره!

تمنّى عادل لو كان شجرة في غابات الخيزران في اليابان، أو غابات الأمازون في أمريكا الجنوبية!

رأى بعينيه وسمع بأذنيه النّاس وهم يأكلون الطّعام في التذاذ في المقاهي والمطاعم، ويمشون في الأسواق وهم يضحكون في مرح وسرور، ويشاهدون مباريات الكرة في استمتاع، وتخيّلهم كذلك وهم يضاجعون زوجاتهم في اشتهاء.

لم يأبه لحاله أحد، وحده صديقه سعيد، الّذي قضى عنده ليلته الثّانية في المدينة، واساه بعد أن سرد على مسامعه فصول قصّته الحزينة.

سأله عادل في حيرة وشكّ والحزن ينهشه:

- ترى هل ستتخلّى عنّي نعيمة إذا علمت بالأمر؟

أجاب سعيد بدبلوماسية محاولاً التّخفيف من حزن صديقه:

- إذا كانت تحبّك فلن تتخلّى عنك مهما كان، أنت لم تقترف ذنباً ولا يجوز لأيّ أحد أن يؤاخذك بما فعل غيرك مهما كان هذا الغير قريباً منك، لا تزر وازرة وزر أخرى يا صديقي.

أطرق عادل وهو يقول في حسرة:

- دعك من المثاليات يا سعيد، نحن نعيش في عالم يقتات أهله على مآسي النّاس وعذاباتهم. صدّقني، لا أحد سيلوم فتاة تخلّت عن شابّ تخلّى عنه أبواه من قبل، أنا نفسي لن ألومها إذا تخلّت عن شخص يجهل نسبه.

صاح سعيد مؤازراً صديقه:

- لا تقل هذا الكلام يا صديقي. نعيمة فتاة أصيلة، كريمة المحتد، ولن تخيّب ظنّك.

ابتسم عادل ابتسامة المتحسّر وحرّك رأسه في أسف وهو يقول:

- لقد قلتَها بنفسك يا سعيد، نعيمة فتاة أصيلة كريمة المحتد ولن ترضى بشابّ لا أصل له ولا جذور.

قال سعيد بنبرة تنمّ عن الاعتذار:

- لا تُفرط في حساسيتك يا عادل. أنت تعلم أنّني لم أقصد ذلك، كلّ ما أردت قوله هو أنّ نعيمة لن تخذلك أبداً.

قال عادل في استهزاء:

- لقد خذلني العالم برمّته يا صديقي، لن تشرق الشّمس من مغربها إذا انضاف إلى صحيفتي الملوّثة بالخذلان خذلان آخر.

ثمّ أردف هامساً في استسلام:

- شتّان بين خذلان وخذلان. قد أتحمّل خذلان الجميع لي، ولكنّ خذلان نعيمة لا طاقة لي على تحمّله، إنّها الضّربة القاضية الّتي ستطرحني أرضاً وترميني خارج حلبة الحياة.

قال سعيد وكأنّه يُعدّ صديقه نفسياً لامتصاص الضّربة حتّى لا تكون قاضيةً:

- قرأت قولة أعجبتني أعتقد أنّها لويليام شكسبير. يقول فيها: «لا أحد يبقى لأحد، لكنّني سأبقى لمن يريدني دائماً». من يحبّنا بصدق لن يتخلّى عنّا يا صديقي، ومن تخلّى عنّا فهو لا يحبّنا وبالتّالي لا يستحقّنا.

قال عادل في استخفاف:

- لو تخلّى عن شكسبير والداه لما قال هذا الكلام، ما أسهل الكلام يا صديقي! وما أصعب أن تشعر أنّك منبوذ كأنّك مصاب بالطّاعون!

صمت سعيد وقد بدت على ملامحه الحيرة بعدما شعر أنّه فشل في مواساة صديقه والتّسرية عنه.

قال بنبرة تشي بالأمل بعد برهة من التّفكير:

- نعيمة لا تعرف الحقيقة، ولا يمكنها أن تعرفها أبداً إلاّ إذا أردت أنت ذلك.

قال عادل في حسم:

- مخطىء أنت يا سعيد إذا ظننت أنّني يمكن أن أبني حياتي مع نعيمة على أساس هشّ، ما بُنِيَ على باطل فهو باطل، وحبل الكذب قصير كما يقول المثل.

ثمّ استطرد بصوت مخنوق:

- المشكلة ليست مشكلة نعيمة فقط. أظنّ أنّه حتّى لو تقبّلتني

نعيمـة، مـع أنّ هـذا أصبـح حلـماً بعيـد المنـال، إلاّ أنّنـي أعتقـد أنّنـي لـن أتقبّـل نفـسي أبـدا، عـادل الّـذي يجلـس بجانبـك الآن ليـس هـو عـادل الّـذي عرَفتَـه مـن قبـل. هـذا عـادل آخـر. عـادل هجـين، مقرصـن، ممسـوخ. المشـكلة إذن هـي هـذا الشّـعور بالاحتقـار والمهانـة الّـذي يخنقنـي، شـعور لا يمكنـك أن تحـسّ بـه يـا سـعيد. لا يمكنـك أن تحـسّ بـه أبـداً إلاّ إذا أعادتـك أمّـك إلى رحمهـا مـن جديـد ثـمّ بصقتـك وتخلّـت عنـك.

سأل سعيد محبطاً:

- متى ستخبرها إذن بالحقيقة؟

سحب عادل نفساً عميقاً ثمّ زفر في ضيق وهو يقول:

- لا أدري، أكيـد أنّ كلّ مـا تعلمـه الآن هـو أنّنـي أخٌ لمجـرم يقـوم بالسّرقات المسـلّحة وعضـو في شـبكة لترويـج المخـدّرات. لابـدّ أنّ عليـاء أخبرتهـا بذلـك في حينـه، خـبر مثـل هـذا لا تكـون أضراره أخـفّ مـن حـرق اللّسـان الّـذي يمتنـع عن إفشـائه.

سأل سعيد مستغرباً:

- لم تتّصل بك؟

ردّ عادل بنبرة يائسة:

- لم تتّصـل ولا أظنّهـا سـتتّصل.. أنـا لم أعـد أنـا، هـذه هـي الحقيقـة الّتـي يجـب أن أجابـه بهـا نفـسي بشـجاعة لـو بقـيَ لي مـن الشّـجاعة شيء، يجـب أن أُجـرِيَ تحديثـاً عـلى نفـسي كـما أُجـري التّحديثـات عـلى التّطبيقـات في هاتفـي الـذّكي.. أريـد أن أصبـح عـادل في نسـخته الجديـدة. عـادل...

قاطعـه صـوت فريـد الأطـرش وهـو يغنّـي للحيـاة معلنـاً عـن ورود مكالمة هاتفيـة، تأمّـل شاشـه الهاتـف غـير مصـدّق. تـردّد في الـرّدّ وطـال تـردّده حتّـى سـكت فريـد الأطـرش كـما لـو أنّ الغضـب اعـتراه لعـدم الـرّد.

همس عادل مستغرباً:

- يبدو أنّ علياء أصيبت بفقدان الذّاكرة فلم تخبر نعيمة بقصّة أمس!

راح فريد الأطرش يغنّي من جديد في إلحاح، لكز سعيد صديقه كما لكزه ذات نشاط ثقافيّ عندما كانت نعيمة نفسها تقف أمامهما حاملة طبق الحلوى، تنبّه عادل ورأى صديقه يومئ له برأسه طالباً منه أن يردّ.

ضغط على زرّ قبول المكالمة فجاءه صوتها الدّافئ:

- عادل. كيف حالك؟

كان يعلم أنّه لو كان الكذب سبباً من أسباب عذاب اللّه، لكان جواب هذا السّؤال هو الّذي سيُردي بالبشرية جمعاء في جهنّم.

أجاب بعد أن قرّر عدم الخروج عن الجماعة حتّى لو كان مصيره العذاب الأليم:

- بخير ولله الحمد.

ثمّ سألها بدوره محاولاً توريطها في ما ورّطته فيه لعلّه يجتمع بها ولو في أتون العذاب:

- وأنت؟

ردّت بطريقة آلية:

- الحمد لله. بخير.

ابتسم في سرّه بعدما انتبه إلى أنّه شرع يستعيد روحه المرحة من جديد للمرّة الأولى بعد زلزال الأمس، وقال محدّثاً نفسه في دعابة: أوقعت بك يا حبيبتي.

أردفت مؤنّبة ولكن على طريقة الجنس اللّطيف:

- كنت في انتظار مكالمتك على أحرّ من الجمر، ولكنّك لم تتّصل أمس ولا اليوم.

قال في مكر:

- أظنّ أنّ علياء قامت بالواجب وزيادة، أليس كذلك؟

صاحت في استنكار:

- علياء أخبرتني بكلّ شيء، ولكنّني تمنّيت لو أنّني سمعت منك.

واصلت بنبرة صادقة:

- حزنت كثيراً لما أصاب أخاك، وحزنت أكثر من أجلك. أعرف أنّك تحمل همّ العدوّ قبل الصّديق، فما بالك لو تعلّق الأمر بأخيك الوحيد، لابدّ أنّك تتألّم كثيرا يا عادل.

قال في لوعة:

- أتألّم أكثر ممّا تتخيّلين.

شهقت في حرقة:

- يا إلهي...! عادل، رجاءً لا تدع الحزن يتسلّل إلى روحك، نجيب شابّ طائش مثل معظم شبّان اليوم، ولكنّه لا محالة سيستفيد من هذا الدّرس مستقبلاً.

فكّر في سرّه: نجيب شابّ طائش مثل معظم شبّان اليوم على اعتبار أنّك كنت مولعة بأغاني جيل جيلالة عندما كنت شابّة في سبعينات القرن الماضي!

قال بغتة:

- نعيمة، انسيني من فضلك.

قالت مندهشة:

- ماذا تقول؟! لابدّ أنّك تمزح!

قال بنبرة جادّة وحازمة:

- لا أمـزح يـا نعيمـة، عـادل الّـذي كنـت تعرفـين مـات. مـات ليلـة أمـس دون أن يمـشي أحـد في جنازتـه.. مـات في صمـت كـما عـاش في صمـت، هـذا الّـذي يكلّمـك ليـس هـو عـادل الّـذي كنـت تعرفـين.. إنّـه عـادل آخـر وُلِـد أمـس وقـد يمـوت اليـوم أو غـداً لأنّـه لـن يعمّـر طويـلاً عـلى أيّ حـال.. يبـدو أنّـه ماركـة صينيـة رديئـة مقلّـدة لا يسـتطيع منافسـة المـاركات العالميـة الأصليـة ذات الجـودة العاليـة.

قالت متعجّبة:

- لا أكاد أصـدّق مـا تسـمعه أذنـاي، لا أفهـم مـا الدّاعـي لـكلّ هـذا الـكلام. أتفهّـم حزنـك عـلى أخيـك وأمّـك بعـد الّـذي حـدث، ولكـن ماهـو ذنبـي أنـا لـكي تتركنـي وحيـدة وسـط الطّريـق بعـد أن حلمنـا بمواصلـة المشـوار معـاً؟

قال بلهجة تقطر حزناً:

- لا ذنـب لـك يـا نعيمـة ولا ذنـب لي، نحـن ضحيّتـان لظـروف قاسـية لا طاقـة لنـا بهـا. إذا كنـت تظنّـين أنّنـي سـأهنأ مـن دونـك فأنـت واهمـة.

قالت محاولة بثّ الطّمأنينة في نفسه:

- وإذا كنـت تظـنّ أنّنـي سـأتخلّى عنـك لمجـرّد أنّ أخـاك اقـترف جريمـة فأنـت واهـم، أنـا أحبّـك يـا عـادل. أحبّـك ولـن أتخـلّى عنـك مهـما حـدث.

سأل في ريبة:

- متأكّدة؟

أجابت بثقة على الفور:

- بالطّبع، لا يجب أن يساورك أدنى شكّ في ذلك يا عادل.

قال في دهاء:

- لا يجب أن تتسرّعـي يـا نعيمـة، قـد تندمـين عـلى كلام تقولينـه في لحظـة

رثـاء لحـالي. أن أمـوت اليـوم وأنـا عـلى شـفير الهـلاك، أرحـم مـن أن يأخـذني المـوت عـلى حـين غـرّة بعـد أن أكون قـد اطمأننـت للحيـاة واسـتمرأت طعمها.

قالت مستعطفة:

- أرجـوك يـا عـادل لا ترهـق تفكـيري بالبحـث عـن حـلّ للغـز لا يعـرف حلّـه أحـد سـواك.

ساد الصّمت للحظة بعد أن عجز عادل عن الكلام.

سألته نعيمة في شكّ:

- عادل. ألازلت هنا؟

أجاب بصوت خفيض:

- نعم.

سألت فجأة:

- هل تحبّني؟

ردّ بصوت واثق:

- لا.

ساد صمت فظيع.

أردف بعدها بصوت أقرب إلى البكاء:

- لا. لأنّ كلمـة حـبّ تبـدو مبتذلـة جـدّاً مقارنـة مـع مـا أحـسّ بـه تجاهك، اللّغـة فشـلت فشـلاً ذريعـاً يـا نعيمـة، فشـلت في اخـتراع كلمـة يمكـن أن تعـبّر عـن مشـاعري تجاهـك، ببسـاطة كلمـة حـبّ لا تفـي بالغرض.

صاحت متسائلة في استغراب:

- فلماذا إذا تطلب منّي أن أنساك؟

أجاب بصوت واهن حزين:

- لأنّني لا أستحقّك.

قالت بلهجة معاتبة:

- لا تعـد لقـول مثـل هـذا الـكلام مـرّة أخـرى يـا عـادل. أنـت إنسـان طيّـب، أصيـل، وتحـبّ الخـير لجميـع النّـاس.

قال في استهزاء:

- طيّـب! ممكن...أحـبّ الخـير لجميـع النّـاس! ممكـن أيضاً...ولكـن أن تقـولي أنّنـي أصيـل! لا أوافقـك الـرّأي.

صاحت مؤنّبة:

- ماذا دهاك يا عادل! لماذا تقول هذا الكلام؟!

- لأنّ هذا الكلام هو الحقيقة.

قالت في إصرار:

- أخبرني بهذه الحقيقة.

- قد تندمين بعد معرفتها.

قالت متوسّلة:

- أرجوك.

- مصرّة؟

- جدّاً.

- مستعدّة؟

- جدّاً.

- حسناً. نكمل على الفيس بوك.

- لم لا نكمل هنا؟! أتمنّى أن أسمع صوتك.

قال في استجداء:

- أرجوك. قد يكون هذا آخر طلب أطلبه منك.

قالت في تسليم:

- حسناً. أنا أنتظرك على الفيس بوك حالاً.

ثمّ أنهت المكالمة.

كان قلب نعيمة يخفق في عنف وهي تفتح الفيس بوك في اضطراب شديد، استنفذت كلّ طاقاتها الفكرية من أجل تخمين سبب حالة الكآبة القصوى الّتي بدا فيها عادل، ولكنّها أخفقت. لذلك لم يكن من خيار آخر أمامها سوى أن تفتح الفيس بوك في جزع، وتنتظر.

انتظرت لدقائق بدت لها من ثقلها كأنّها ساعات، قبل أن تصلها على المسنجر رسالة عادل:

حبيبتي نعيمة، ما أصعب أن يموت الشّيء قبل أن يولد! لا تسأليني كيف يحدث ذلك لأنّني صراحة لا أدري. ولكن هذا ما شعرت أنّه حدث لسعادتي. قد تسألين عن أيّ سعادة أتحدّث. وسأقول لك: أتحدّث عن سعادتي الّتي لن أعيشها معك، قد تسألين لماذا؟ وأقول لك ببساطة: لأنّني متّ. متّ ليلة أمس حينما اكتشفت أنّ أمّي الحقيقية باعتني لأمّي المزيّفة بثمن مهما بدا لها باهظاً إلاّ أنّه يبقى في نظري ثمناً بخساً دراهم معدودات، باعتني ورحلت دون أن تترك أيّ أثر لها. متّ ليلة أمس حينما اكتشفت أنّني نبات فاسد نتج عن علاقة غير شرعية بين رجل حرص على أن يتبوّأ مركز الصّدارة في التّبرّؤ منّي قبل الجميع، وامرأة أصرّت على أن تنال مركز الوصافة عن جدارة واستحقاق. متّ ليلة أمس حينما اكتشفت أنّني قضيت ثلاثين سنة من حياتي مخدوعاً في نفسي. مخدوعاً في أمّي الّتي لم تكن أبداً أمّي، وفي أبي الّذي لم يكن أبداً أبي، وفي أخي الّذي لم يكن أبداً أخي.

حبيبتي، أنا لست جديراً بحبّك، ولا بعطفك، ولا بشفقتك.

كانت نعيمة تقرأ الرّسالة والدّموع تنهمر من عينيها في حرقة لاذعة، وعندما انتهت من قراءتها، انهارت على سريرها كالمصعوقة. كانت تحاول استيعاب ما قرأت ولكنّ عقلها كان مشوّشاً، كانت تتوقّع صدمةً ما بعدما مهّد لها عادل الطّريق خلال مكالمتهما الهاتفيّة، ولكنّ الصّدمة جاءت أقوى من جميع توقّعاتها.

شلّت الصّدمة تفكيرها فاستسلمت للنّحيب...

مباشرة بعدما أرسل عادل رسالته إلى نعيمة، أغلق الفيس بوك ووضع هاتفه على المنضدة واسترخى على الأريكة في ارتياح.

شعر براحة غريبة بعد أن باح لنعيمة بكلّ شيء، ولكن سرعان ما انتابه شعور مخزٍ بالنّدم والذّنب عندما أحسّ أنّه أزاح عن صدره ذلك الهمّ الثّقيل ليلقيه على صدر حبيبته بكلّ قسوة. احتار في أمره، كان أمامه خياران أحلاهما مرّ. ولكنّه اختار وقُضِي الأمر الّذي كان قد احتار فيه. أخبر نعيمة بكلّ شيء ولا سبيل أمامه الآن للتّراجع، كان يعلم أنّه لا سبيل أمام الصّيّاد لاستعادة الرّصاصة، الّتي أطلقها، إلى فوهة بندقيّته من جديد. لم يكن أمامه إلاّ أن يتفرّج على الفريسة وهي تتمرّغ في دمائها، وكذلك لم يكن أمام عادل، بعدما أطلق رصاصته، إلاّ أن ينتظر ردّة فعل نعيمة الّتي قد تحييه أو قد تميته...

(٢٠)

أوّل الغيث قطرة

أوّل الغيث قطرة. قد تهطل القطرة الأولى في أيّ وقت ليعقبها غيث نافع يسقي الحرث والنّسل، وقد يعقبها وابل من المطر فيؤدّي إلى فيضان لا يبقي ولا يذر. وقد لا تسقط القطرة فيصيب القنوطُ النّفوسَ اليائسة، ويبقى الأمل متوهّجاً في القلوب المؤمنة مثل وميض شمعة تقاوم الرّيح بصمود في ليلة شديدة الحلكة.

هكذا كانت حنان، تقاتل الضّجر بإيمان شرس، وتحارب الهمّ بهمّة لا تلين.

جلست حنان في مكتبها يلفّها صمت يشبه صمت الرّموس، ويغشاها حزن يشبه حزن أمّ فقدت ابنتها الوحيدة وهي عروس. وإن كانت قد تعوّدت أن تجلس وحيدة تنتظر بقلب مفعم بأمل جمّ ذلك المريض الأوّل الّذي يعتبر بمثابة القطرة الأولى الّتي ستفسح الطّريق لوابل من المرضى ليتقاطروا على المركز الصّحّي طلباً لعلاجها، إلاّ أنّها وجدت صعوبة كبيرة في الاستئناس وَالهمَّ المباغت الّذي تلبّسها فجأة عندما أخبرتها علياء بأنّ عادل ونعيمة يحبّان بعضهما البعض. لطالما توهّمت أنّ عادل لها وحدها ولا يمكن أن يكون لغيرها، لذلك تركت لعواطفها الحبل على الغارب دون حسيب ولا رقيب فوقعت في حبّه حتّى تلبّس حبّه بدمها

ولحمها، وهاهي الآن تجني نتائج انسياقها المتهوّر خلف عواطفها، ولكنّها وطّنت العزم على أن تحارب ذلك الهّم القاتل محاربة الأعداء، وأن تقاتل من أجل حبيبها قتال النّبلاء...

كانت تجلس ساهمة عندما تناهى إلى مسمعها وقع خطوات يقترب، رفعت بصرها فلمحت الشّيخ محمّاد يهرول نحوها وهو يجرّ زوجته من رسغها في عنف.

قال في غضب ممزوج بالرّجاء وقد بدت عليه علامات الاستياء كأنّ كارثة عظمى قد حلّت به:

- ساعديني يا دكتورة أرجوك.

أشارت إليهما بيدها للجلوس وهي تضحك في سرّها في ظفر، لم يخب أملها، هاهي المريضة الأولى تقف أمامها في عجز مستنجدة بها، إنّها المريضة الأولى ولن تكون الأخيرة بكلّ تأكيد، إنّها القطرة الأولى. إنّها أوّل الغيث...

سألت حنان باهتمام وهي تداعب قلمها بين أصابع يديها:

- أخبرني يا شيخ محمّاد. ممّ تشكو زوجتك؟

رمق زوجته في بغض وهو يجيب:

- أظنّ أنّها حامل.

بانت على حنان علامات التّعجّب فقطّبت حاجبيها وقالت بلهجة أقرب إلى الهمس:

- ولكنّ أمراً كهذا يجب أن يفرحك.

قال وهو لا يزال يرمق زوجته بنفس النّظرة البغيضة:

- أريد أن أتأكّد يا دكتورة، وبعدها لكلّ حادث حديث.

قالت حنان وقد بدأ تعجّبها يستحيل توجّساً:

- طبعاً طبعا.. سأقوم بفحصها حالاً.

واصلت وهي تشير بيدها جهة الباب:

- انتظرني في الخارج رجاءً.

أومأ برأسه على مضض ثمّ خرج.

دخلت حنان وزوجة الشّيخ إلى قاعة الفحص، وهناك تأكّدت أنّها فعلاً حامل بعد أن أجرت لها فحصاً دقيقاً. وخلال مدّة الفحص، حاولت بكلّ دهائها أن تستدرجها لتميط اللّثام عن سرّ تلك العلاقة الغريبة بينها وبين زوجها، ولكنّ المرأة الكتوم كانت دائما تصدّها بدهاء أكبر مستخدمة غالباً سلاحها الفتّاك ضدّ كلّ الأسئلة الملغومة: لا أعرف.

بعد أن عادت حنان إلى كرسيّها وطلبت من المرأة أن تجلس في مكانها، نادت على الشّيخ الّذي دخل يحثّ خطاه وهو يسأل بصبر نافد حتّى قبل أن يطمئن في جلوسه:

- هه...! هل هي حامل؟

هزّت حنان رأسها دلالة الموافقة وهي تقول:

- نعم. هي حامل في أسبوعها السّادس.

ثمّ استطردت وهي في شوق لمعرفة ردّة فعل الشّيخ:

- مبروك.

نكّس الشّيخ رأسه في خزي وكأنّه تلقّى خبراً سيلطّخ سمعته وسيُلْحِق به العار.

زمّ شفتيه في أسى وانتفض واقفاً وهو يقول لزوجته:

- هيّا بنا.

نهضت الزّوجة من فورها جامدة الملامح لا تعبّر قسمات وجهها عن أيّ إحساس، ولكنّ الطّبيبة استمهلتها قائلة:

- انتظري من فضلك، سأعطيك بعض المكمّلات الغذائية الّتي ستساعدك في فترة الحمل.

نظر إليها الشّيخ في عبوس وقال في لا مبالاة:

- لا داعي لذلك، شكراً لك على كلّ حال يا دكتورة.

ثمّ خرج وتبعته زوجته دون أن تنبس ببنت شفة...

بقيت حنان تحاول استيعاب ما حصل بتروّي، ولكنّ محاولاتها كلّها كان مصيرها الفشل، كان واضحاً أنّ الشّيخ كان في أوج غضبه بسبب حمل زوجته. ولكنّ حنان لم تستطع تخمين سبب ذلك الغضب غير المبرّر، تعجّبت من قبل من طريقة تعامله الفظّة مع زوجته وابنته. وهاهو عجبها الآن يبلغ ذروته بعد الّذي حصل قبل قليل.

في غمرة تفكيرها، ودون أن تعرف كم مرّ من الوقت، ظهر أمامها مجدّداً الشّيخ محمّاد ولكن وحيداً هذه المرّة، لم يثر الأمر استغرابها في البداية، فالشّيخ دأب على زيارتها بين الفينة والأخرى كلّ يوم دون ملل، ولكن عندما تكلّم أدركت أنّ زيارته هذه المرّة لا تشبه سابقاتها.

قال بعد أن جلس وهو يحكّ ذقنه في ارتباك:

- أحتاج إلى مساعدتك.

حدّقت إليه في اهتمام شديد وقالت:

- أنا رهن الإشارة، كيف يمكنني مساعدتك.

أطرق في أسى وقال بصوت خافت كأنّه يخشى أن تسمعه الجدران:

- أريد التّخلّص من الجنين.

شهقت مذعورة:

- ماذا؟!

واصلت في اندهاش بعد أن استوعبت كلامه جيّداً:

- ولكن لماذا؟

قال بنبرة المتوسّل:

- أرجوك لا تسأليني هذا السّؤال، لديّ أسبابي الخاصّة الّتي يصعب عليّ أن أفصح عنها.

قالت مستوضحة:

- ولكن هل زوجتك موافقة؟

صاح وقد غاظه سؤالها كما لو أنّها جرّحته بشتيمة مسّت فحولته:

- وهل الشّيخ محمّاد في حاجة إلى موافقة امرأة لكي يصير رأيه نافذاً؟! الرأي الأوّل والأخير لي، وما عليك إلاّ أن تساعديني فهذا دورك.

قرّرت حنان ألاّ تقحم نفسها في جدال عقيم مع الشّيخ. لم تخبره أنّها طبيبة عامّة وليست اختصاصية في أمراض النّساء والتّوليد، ولم تلقّنه دروساً عن المرأة وما وصلت إليه في العصر الحديث، لم تحدّثه عن إنجازات أنجيلا ميركل، ولا كريستين لاغارد، ولا نوال المتوكّل وغيرهنّ كثيرات، ولكنّها اختصرت الوقت والجهد واكتفت بالقول:

- ولكنّ الإجهاض حرام شرعاً وقانوناً ولا يكون مباحاً إلاّ في حالات معيّنة.

حاول مجدّداً في إصرار وكأنّه يحاول إقناعها بتناول وجبة العشاء في بيته وليس بارتكاب جريمة إجهاض:

- لم أطلب منك المساعدة يوماً، وعندما احتجت إليك لم أجد منك سوى الصّدود والرّفض، لو لم أكن في حاجة ماسّة إلى مساعدتك لما طلبت ذلك منك. أرجوك ساعديني.

قالت في حسم:

- آسـفة، لا يمكننـي مسـاعدتك، أنـا طبيبـة، وهـدفي النّبيـل هـو إنقـاذ الأرواح مـن المـوت متـى اسـتطعت إلى ذلـك سـبيلاً، وليـس العكـس.

ثمّ أردفت محاولة إغلاق الموضوع:

- متأسّفة من جديد.

فهـم الشّـيخ محـمّاد أنّـه أخطـأ الوجهـة، لذلـك انسـحب خائـب الرّجـاء وتـرك حنـان حائـرة تنتظـر بقيّـة الغيـث عـلى أحـرّ مـن الجمـر...

(٢١)

الرّصاصة المضادّة

من قال إنّ الأماكن لا تشتاق إلى أهلها؟ إنّها تشتاق كما يشتاق الإنسان وربّما أكثر، اشتاقت القرية كثيراً إلى عادل حتّى بدت وكأنّها تزيّنت لاستقباله تزيّن العروس لزوجها القادم من سفر بعيد. ولكنّ عادل لم يدخلها هذه المرّة كما تعوّد أن يدخلها كلّ مرّة، دخلها هذه المرّة وقد تحطّمت روحه إلى شظايا كثيرة مثل زجاج مكسور، دخلها منحني الظّهر، منكّس الرّأس، غير آبه بزينتها مثل عريس عنين في ليلة زفافه، دخلها مجهول الهويّة بعد أن سُلِبَت منه على حين غرّة كما سُلِبَ هاتف علياء.

ليتهم سلبوه كلّ ما يملك وتركوا له هويّته، وهل يملك شيئاً غير هويّته؟!

عندما دخل منزله، استلقى على سريره وشعور مهين بالغربة يكبس على روحه، أصبح غريباً حتّى عن نفسه، يسألها باستمرار من أنا؟! ولا يجد لسؤاله جواباً غير يمّ من الهواجس يبتلعه بلا رحمة. شعر برغبة جامحة في البكاء، ولكنّ دموعه جفّت مثل نبع ناضب، تمنّى لو يبكي دماً بدل الدّموع. تمنّى لو جفّت دماؤه كما جفّت دموعه، فلا حاجة له

بدماء ملوّثة لا يعرف لها أصلاً، فقد شهيّته للحياة ولم يعد يكترث لأيّ شيء، تذكّر الرّصاصة الّتي أطلق على نعيمة فتمنّى لو أطلقها على نفسه وارتاح للأبد، كان بصيص من الأمل ينغل بداخله، لذلك أراد أن يبتره من جذوره، لم يرد لأيّ أمل زائف أن يفسد عليه لحظة احتضار قلبه. لذلك كان لابدّ له من الاطّلاع على ردّ نعيمة على رسالته وإن لم يعد واثقاً أنّها كلّفت نفسها عناء الرّدّ.

كان قد خفّض سقف توقّعاته إلى الحضيض، فلا مكان سليم في جسمه لتلقّي طعنة أخرى.

فتح الفيس بوك وهو يعلم أنّه هذه المرّة قد انسلخ من دور الصّيّاد وارتدى ثوب الضّحيّة.

فتح ذراعيه، ودفع صدره إلى الأمام، في شجاعة، استعداداً لتلقّي الرّصاصة المضادّة.

جاءت حروف الرّصاصة كما يلي:

حبيبي عادل، ما أصعب أن يحبّ الإنسان شخصاً قبل حتّى أن يعرف من يكون! وأنا أحببتك قبل أن يكون لي علم بأبيك، أو أمّك، أو أخيك، أو فصيلتك الّتي تؤويك. سأكون لك أباً، وأمّاً، وأخاً، وأختاً. أليس هذا يكفيك؟

أحببتك فيما مضى، وأحبّك الآن، وسأحبّك على طول المدى، لن أقول أكثر من هذا في انتظار أن أسمع صوتك الّذي يحيي قلبي مثل قطرات النّدى.

تلقّى عادل الرّصاصة بصدر رحب. كانت أرحم رصاصة تُطلَق منذ أن عرفت البشريّة الرّصاص، وكانت نعيمة أمهر صيّادة في الكون. اصطادت قلبه، وروحه، وقلبه برصاصة واحدة.

اختلطت المشاعر في قلب عادل، فبحث عن اسم حبيبته في هاتفه واتّصل بها، وعندما جاءه صوتها الحنون من الطّرف الآخر للخطّ، لم يجرؤ على الكلام، بل ترك لدموعه مهمّة التّعبير عمّا يختلج في دواخله، وراح يبكي مثل طفل عثر على أمّه...

(٢٢)

الملاكان

لكلّ إنسان ما يكفي من الكروب، ولكنّه يظنّ أن لا مكروب في الكون سواه، يعتقد أنّه الوحيد الّذي يخوض ضدّ كروبه أعتى الحروب. هكذا هو الإنسان، مهما كان سعيداً إلاّ وظنّ أنّه أتعس النّاس. مجبول على تجاهل النّعم الّتي يتمرّغ فيها مهما عظمت، ومدمن على النّظر بعين الحسد إلى نعم الآخرين مهما حقرت.

رجل في سوريا المنكوبة فقد أهله وماله ويعيش تحت القصف ليل نهار، وفي ظلّ كلّ أنواع الحصار، يظنّ أنّه أتعس شخص على وجه الأرض. وامرأة من الرّوهينغا في بورما تعرّضت لاغتصاب جماعيّ وحشيّ من طرف أفراد من الجيش والشّرطة، تظنّ أنّها أتعس شخص على وجه الأرض. وطفل مدلّل في فرنسا نسي أبوه أن يحضر له اللّعبة الّتي طلبها منه لأنّه مشغول، يظنّ أنّه أتعس شخص على وجه الأرض. وطبيبة حالمة في قرية مقفرة من قرى المغرب المنسيّ مهدّدة بفقد حبيبها، تظنّ أنّها أتعس شخص على وجه الأرض.

هكذا كانت حنان عندما كانت جالسة إلى مكتبها في ذلك المساء، كانت تظنّ أن فقد الحبيب هو أعظم مصيبة يمكن أن تحلّ بإنسان، إلى

أن دخلـت عليهـا الضّاويـة بعينـين دامعتـين ومتورّمتـين وكأنّهـا لم تـذق طعـم النّـوم لليـال طـوال.

استقبلتها حنان جزعة وبادرتها بالسّؤال:

- الضّاوية ما بك؟! لماذا تبكين؟!

أجابتها الضّاوية بالصّمت ومزيد من الدّموع.

أجلسـتها حنـان عـلى الكـرسيّ في رفـق، وجلسـت عـلى كرسـيّها قبـل أن تسـأل مـن جديـد:

- الضّاوية ما بك؟! تكلّمي من فضلك، قد أستطيع مساعدتك.

قالت الضّاوية بصوت متحشرج وهي تنشج بحرقة:

- لقد طلّقني زوجي.

صاحت حنان متسائلة في بلادة:

- طلّقك زوجك!!! ولكن لماذا؟!

ردّت الضّاوية بصوت واهن:

- بدون سبب، هنا لا يحتاج الرّجال أسباباً لتطليق زوجاتهنّ.

قالت حنان غير مصدّقة:

- ولكـن لابـدّ أن يكـون هنـاك سـبب مـا، لا يمكـن أن تنامـا في حضنـي بعضكـما في اشـتهاء، وفي الصّبـاح تتنـاولان فطوركـما في هنـاء، وبعدهـا يخـبرك أنّـك طالـق.

أردفت مستدركة وهي تسأل:

- طيـب أخبرينـي، مـاذا قـال زوجـك للقـاضي عندمـا سـأله عـن سـبب رغبتـه في تطليقـك؟

هتفت الضّاوية مندهشة:

القاضي!!! أيّ قاضي؟!

قالت حنان مؤكّدة:

- قاضي الأسرة طبعاً.

قالت الضّاوية في سذاجة:

- مع أنّني لا أعرف ما دخل القاضي في الموضوع، إلاّ أنّ زوجي طلّقني، طلّقني ورحل إلى المدينة، هذا كلّ ما أعرفه.

صاحت حنان في اندهاش:

- طلّقك ورحل إلى المدينة هكذا بكلّ بساطة!!! وماذا عن حقوقك وحقوق ابنتك؟!

تساءلت الضّاوية في استغراب وكأنّ حنان تحدّثها في موضوع علمي شائك حيّر جهابذة العلماء:

- عن أيّ حقوق تتكلّمين؟!

بدأت حنان، رويداً رويداً، تستوعب قصّة الضّاوية. ربّما سبق وشاهدت برنامجاً تلفزيونياً، أو شريطاً على اليوتيوب، عن تلك القرى النّائية الّتي يتمّ فيها تزويج القاصرات، لأزواج بأعمار آبائهن وأجدادهنّ، رغماً عن أنوفهنّ وبـ «الفاتحة» فقط دون توثيق عقد للزّواج. ربّما أيضا تعرف شيئاً عن الطّلاق الّذي يوقعه الزّوج في هذه المناطق على زوجته بكلمة واحدة وبكلّ يسر كما لو أنّه مسح فمه بمنديل بعد أن تناول وجبة دسمة، ولكن لم يخطر ببالها أبداً أنّ المقام قد يستقرّ بها يوماً في قرية من هذه القرى.

دائماً يعتقد النّاس أنّ المصائب والابتلاءات لا تلمّ إلاّ بالآخرين، هكذا كان يعتقد معظم الأمريكيين قبل أن يشاهدوا برجي التّجارة العالمية ينهاران مثل جبلي جليد. وهكذا كان يعتقد رجل أقلّ في سيّارته زوجته الفاتنة وأولاده الرّائعين من أجل الذّهاب لقضاء عطلة ممتعة، قبل أن

يجد نفسه دون سابق إنذار راقداً في سرير في مستشفى من المستشفيات، وجسمه ملفوف بالضّماد، وهو متّصل بأنابيب تمده بالحياة، وقد أخبروه أنّ زوجته وأولاده قد فارقوا الحياة إثر حادثة سير مفجعة. وهكذا كانت تعتقد حنان قبل أن تخبرها الضّاوية بقصّتها...

استنجدت بعادل رغم أنها تعلم أنّه لن يكون في مزاج رائق بعدما عرفت نعيمة بأمر أخيه نجيب.

اتّصلت به وحضر في الحال.

تطلّعت إليه في عطف وحبّ تحاول استشفاف ما وراء ابتسامته الفاترة وقالت:

- آسفة لأنّني أزعجتك مرّة أخرى، ولكنّني أريد محادثك في موضوع مهمّ.

أومأ برأسه موافقاً دون أن ينطق بحرف.

عندما لاذ بالصّمت، واصلت حنان وهي تشير إلى الضّاوية بيدها:

- الضّاوية طلّقها زوجها.

رنا عادل إلى الضّاوية في حزن وقال:

- متأسّف من أجلك.

قالت حنان في تأثّر:

- حدّثتني عن أشياء فظيعة عن الزّواج والطّلاق في هذه القرية.

هزّ عادل رأسه موافقاً في حسرة وهو يقول مؤكّداً:

- نعم للأسف. الزّواج بـ «الفاتحة» شائع هنا، وزواج القاصرات أمر بديهيّ مثل الأكل والشّرب. والطّلاق أو الهجر لا يخضعان لسلطة إلاّ سلطة مزاج الزّوج الّذي يستطيع أن يتخلّص من زوجته في أيّ وقت بكلمة واحدة ودون أن يتحمّل أيّ عبء.

تنهّدت حنان في لوعة وقالت:

- والضّحايا طبعاً هم الزّوجة والأبناء.

قال عادل في استياء:

- للأسف هذا هو الواقع.

صاحت حنان في استنكار:

- ولكن بأيّ منطق يحدث هذا في القرن الواحد والعشرين؟! لا الدّين ولا القانون يسمحان بذلك.

قال عادل في خيبة:

- ولكنّ الأعراف والتّقاليد تسمح بذلك وأكثر.

واصل وهو يبتسم متهكّماً:

- بلغ إلى علمي أنّ سي الحسين الفقيه سيتزوّج بنتاً أصغر من أصغر أولاده.

قالت حنان في غضب:

- وماذا تريد من الشّيطان غير أن ينصّب نفسه سفيراً للنّوايا السّيّئة، ويقود بنفسه سفينة المنكر حتّى ترسو في الدّرك الأسفل من النّار.

واصلت حنان في حماس:

- عادل، أعرف أنّك لست بخير تماما، ولكن صدّقني، يجب أن نفعل شيئاً من أجل هؤلاء الفتيات البائسات اللّواتي يعانين في صمت.

كان على وشك أن يقول لها: أنا نفسي بائس وأحتاج لمن يفعل شيئاً من أجلي.

ولكنّه تماسك وقال في إحباط:

- الجميع تخلّى عنهنّ، يبدو أنّهن يقبعن في درجة متدنّية جدّاً على سلّم المواطنة.

ثمّ كاد يبكي رثاءً لحاله وحالهنّ وهو يواصل بنبرة حزينة جدّاً:

- درجة لا تخوّل لهنّ حتّى الحصول على بطاقة هويّة أو عقد زواج.

تساءلت في حيرة:

- ولكن ما العمل؟! هذا أمر يعتبر السّكوت عنه جريمة.

قال بنبرة من انهزم في معركة بشرف بعد صراع مرير:

- لقد بذلت أقصى ما في جهدي من أجل إيجاد حلّ لهذه المشكلة، ولكنّني أخفقت في ذلك. في البداية قصدت سي الحسين وكلّي أمل في أن أستطيع جعله يستغلّ منصبه ومكانته من أجل تغيير هذا المنكر، ولكنّه خيّب أملي مثلما خيّبه بعد ذلك الحاجّ عبد اللّه، فكّرت بعد ذلك في حلّ أنجع يجعل القضيّة تصل إلى أكبر عدد من النّاس عبر ربوع الوطن وخارجه حتّى تصبح قضيّة رأي عام، فاهتديت إلى ضرورة إدراجها في برنامج تلفزي يحظى بنسبة مشاهدة مرتفعة. ولكن عندما جلست مع مقدّم البرنامج نناقش الأمر، خيّب أملي بدوره عندما قال أنّه يرفض تقديم حلقة جافّة عن الموضوع، واشترط إحضار فتاة قاصر لتحكي معاناتها في البرنامج على المباشر، هنا أحسست أنّه يتلكّأ ولا يريد إلاّ إعجازي.

قالت في إعجاب وقد تلألأت عيناها بوميض حبّ كبير:

- أنت رائع يا عادل. لم أكن أدري أنّك قمت بكلّ هذا. أتدري؟ أعجبتني كثيراً فكرة البرنامج. لما لا نحاول من جديد؟

أجاب عادل بنبرة واثقة:

- لقد صرفت النّظر عن الفكرة، الأمر محسوم يا حنان. يصعب جدّاً أن تجدي فتاة تقبل بالظّهور في برنامج تلفزيّ أمام ملايين المشاهدين، وحتّى لو افترضنا جدلاً أنّها وُجِدت، فالأمر لا يخلو من مخاطر جمّة مادمنا نتحدّث عن قاصر لم تبلغ سنّ الرّشد بعد.

استطرد في خجل غير مبرّر:

- أنا الآن أحارب على جبهة أخرى، لم أستسلم فقرّرت أن أكتب رواية لعلّها تعود بمنفعة ما على القرية.

هتفت حنان في إعجاب:

- رائع رائع! كنت متأكّدة أنّك تصلح لتكون أديباً، كلّ يوم أكتشف فيك أشياء جديدة رائعة، فعلا أنا سعيدة بالتّعرّف عليك. هه...! أين وصلت الرّواية؟ أنا متشوّقة لقراءتها.

قال عادل شارحاً:

- هي فكرة قديمة، بدأت على شكل يوميات كنت أواظب على كتابتها منذ أن التحقت بالعمل في هذه القرية، كان الأمر في البداية بغرض التّسلية ومحاربة الفراغ، ولكن عندما رأيت أنّ القرية تحفل بأحداث مشوّقة تستحقّ أن تُروَى ويُكشَف عنها اللّثام، ارتأيت أن أعيد صياغتها على شكل رواية.

قالت حنان في تشجيع:

- لديّ ثقة كاملة في قدراتك الإبداعية، لاشكّ أنّها ستكون رواية مشوّقة. أصبت عندما فكّرت أن تكتب حول معاناة هذه القرية، هي في حاجة فعلاً لمن يتحدّث باسمها ويوصل صوتها للمسؤولين لعلّهم يستفيقون من سباتهم العميق.

تابعت بنبرة متحمّسة:

- أتدري؟ لقد كنت فعلاً متحمّسة لمساعدة فتيات هذه القرية بعدما سمعت قصّة الضّاوية رغم أنّني لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك، ولكن بعد أن استمعت إليك، يبدو أنّك حقنتني بجرعات زائدة من الحماس

لـكي أفعـل شـيئاً لمسـاعدتهنّ. أنـا أفكّـر الآن أن نسـلك الطّريقـين معـاً في نفـس الوقـت، تنهـي روايتـك وتقـوم بنشرهـا، ونتّصـل بالبرنامـج مـن أجـل تقديـم حلقـة مميّـزة عـن الموضـوع. مـا رأيـك؟

قال بنبرة تخلو من الثّقة:

- ولكن بالنّسبة للبرنامج...

قاطعته وهي تنظر إلى الضّاوية مبتسمة وتقول في اندفاع:

- بالنّسبة للبرنامج فإنّ الضّاوية ستشارك فيه. أليس كذلك يا الضّاوية؟

حملقـت إليهـا الضّاويـة وقـد بـدا أنّهـا لم تفهـم مـن كلام حنـان سـوى اسـمها.

ولمّا لم تحر جواباً، تابعت حنان:

- ستكون حلقة الموسم بامتياز.

قال عادل في ريبة:

- ولكن!!!

تدخّلت حنان شارحة:

- الضّاويـة هـي الأنسـب للمشـاركة في البرنامـج، لقـد حكـت لي قصّـة أختها السّـعدية وكذلـك أمّهـا. هـذه الأسرة عاشـت مـآسي كثـيرة تختـزل كلّ مـآسي القرية.

تساءل عادل وهو ينظر إلى الضّاوية وكأنّه يراها لأوّل مرّة:

- ولكن هل ستقبل؟

أجابت حنان في ثقة:

- ومـا الّـذي سـيجعلها ترفـض؟! لديهـا كلّ الدّوافـع ومتوفّـرة فيهـا كلّ الـشّروط، الضّاويـة لـن تسـتنكف عـن مسـاعدة أسرتهـا وسـكّان قريتهـا. سـتفعل ذلـك مـن أجلهـا، ومـن أجـل قريتهـا، ومـن أجـل روح أختهـا السّـعدية

رحمها اللّه، ومن أجل أمّها وابنتها الّتي لن ترضى لها حياةً بائسةً مثل الّتي تحياها فتيات القرية الآن.

ثمّ أردفت مطمئنة:

- لا تشغل بالك بذلك، أنا سأعرف كيف أقنع الضّاوية وكذلك أمّها. نحن النّساء نعرف أسرار بعضنا البعض.

قال عادل مشجّعاً:

- سيكون الأمر رائعاً فعلاً، أتمنى لك التّوفيق، شكراً على مساعدتك.

قالت حنان في امتنان:

- أنت من يستحقّ الشّكر، أنت شخصية ملهِمة وذات تأثير إيجابي على الآخرين.

ودّعهما ورحل تاركاً حنان تعضّ أناملها من الغيظ كلّما خطر في بالها أنّ حبيبها الّذي يزداد حبّه في قلبها تأجّجاً كلّ يوم قد يضيع منها.

شرعت حنان تشرح للضّاوية بأناة وتؤدة فكرة البرنامج. وجدت في البداية صعوبة في إقناعها بالمشاركة، ولكنّها وافقت أخيراً بعدما أكّدت لها حنان أنّها ستقف بجانبها هي وعادل، وسيدعمانها على طول الخطّ منذ البداية إلى النّهاية، وأنّ الأمر في النّهاية سيعود بالنّفع العميم على كلّ سكّان القرية بمن فيهم ابنتها.

في اليوم الموالي، لم تحتج حنان إلى جهد كبير كي تقنع هنية أمّ الضّاوية بمشاركة ابنتها في البرنامج، كان شرطها أن ترافقهم إلى العاصمة حتّى تطمئنّ على ابنتها، وأن تأخذ معها حفيدها الكسيح. وافقت حنان على شرطيها بكلّ غبطة، فظهور الطّفل الكسيح اليتيم في البرنامج سيكون لصالح القضيّة، لابدّ أنّه سيكسب تعاطف الجميع وهذا هو المطلوب والمأمول من مثل هذه البرامج.

اتّصلت حنان بعادل تبشّره بالخبر السّارّ الّذي أثلج قلبه المكلوم، طلبت منه أن يتّصل بالإعلامي ليطلب منه برمجة حلقة خاصّة عن موضوع زواج القاصرات تحضرها الضّاوية فوافق على الفور. وما هي إلاّ لحظات قليلة حتّى اتّصل عادل بحنان يبشّرها بدوره بموافقة الإعلامي ودعوتهم للحضور إلى العاصمة بعد ثلاثة أسابيع للمشاركة في البرنامج.

شعرت حنان بفرحة عجيبة لم تشعر بمثلها من قبل، فرحة تشبه تلك الّتي يشعر بها شخص تمّ استدعاؤه لحمل السّلاح من أجل المشاركة في حرب لتحرير الوطن، فرحة ممزوجة بالفخر والاعتزاز. ولكنّ فرحتها كانت ستكون أعظم، وفتحها سيكون أكبر لو استطاعت أن تشقّ صدر حبيبها لتتأكّد أنّها تتربّع سلطانة على عرش قلبه كما يتربّع هو سلطاناً على عرش قلبها.

عندما وضعت حنان خدّها على وسادتها من أجل النّوم، راح عقلها يمارس هوايته المفضّلة في التّخطيط لكلّ صغيرة وكبيرة بدقّة متناهية، فكّرت أن تستعير سيّارة أمّها من أجل رحلة العاصمة. وانتشت عندما فكّرت أنّها ستكون رفقة حبيبها ليومين أو ثلاثة، سيكونان قريبين من بعضهما كما لم يكونا من قبل.

ربّما يحبّها، من يدري؟!

لم تنم حنان ليلتها إلاّ قبيل الفجر بقليل، فقد باتت في ضيافة أحلامها المتيقّظة الّتي أقامت على شرفها حفل زفاف بهيج يليق بملاكين مثل عادل وحنان...

(٢٣)
مخدّر السّعادة

المعذّبون وحدهم يكتبون، يكتبون بدموعهم حتّى إذا جفّت كتبوا بدمائهم. لولا الكتابة لماتوا كمداً، أو لأذاقتهم الحياة على الأقلّ ضِعفاً من العذاب، ينتقمون من الحروف كما لو كانت هي سبب أحزانهم، يطوّعون اللّغة كما يطوّع الحدّاد الحديد فيشعرون بالرّاحة وكأنّهم هزموا ألدّ أعدائهم، يلطّخون الأوراق البيضاء بكروبهم فتخلص لهم ويتخلّصون من أعبائهم حتّى يشعروا شعور من عاد من بيت اللّه الحرام طاهر النّفس، خفيف الرّوح كيوم ولدته أمّه.

أمّا السّعداء، فلا وقت لديهم كي يهدروه في الكتابة، قد يشاهدون المباريات والأفلام رفقة أحبّائهم، أو يرتادون المقاهي والمطاعم مع أصدقائهم، أو يسافرون على متن سيّاراتهم، أو على الأقلّ يضاجعون زوجاتهم...

ولكن لا وقت لديهم ليهدروه في الكتابة.

لولا التّعساء لأغلقت المكتبات أبوابها...

كان عادل واحداً من هؤلاء التّعساء، وكانت الكتابة ملاذه الوحيد.

جلس يدوّن الفصول الأخيرة من روايته، ولكنّه احتار أيّ نهاية يختار. كانت نعيمة شغله الشّاغل. ومهما كان، فهي ستكون بطلة لروايته، ولكن

هـل سـتكون النّهايـة سـعيدة أو حزينـة؟ الأمـر ليـس بيديـه، الأمـر بـين يـدي بطلتـه. أو بالأحـرى عـلى شـفا لسـانها، كلمـة واحـدة منهـا سـتغيّر مجـرى النّهايـة ثلاثمائـة وسـتّين درجـة؛ سـعادة دائمـة، أو حـزن دائـم. طمأنـه كلامهـا كثـيراً بعدمـا عرفـت حقيقتـه، ولكـنّ الهواجـس كانـت تنتابـه بـين الفينـة والأخـرى لتنغّـص عليـه طمأنينتـه، كان يخـشى أن يكـون كلامهـا مجـرّد وقفـة شـهامة منهـا في لحظـة انكسـاره، أن يكـون مجـرّد مواسـاة عابـرة كتلـك الّتـي يتلقّاهـا أهـل الميّـت مـن الأعـداء قبـل الأصدقـاء، وهـو الآن لا يريـد أن يبقـى في المنطقـة الرّماديـة بـين السّـعادة والحـزن، أبيـض أو أسـود. الرّوايـة نفسـها لا تحتمـل نهايـة رماديـة، والقـرّاء أنفسـهم لا يحبّـذون النّهايـات الرّماديـة؛ يعشـقون الأبيـض والأسـود كأنّهـم مصابـون بعمـى الألـوان، لذلـك كان عـلى نعيمـة أن تحـدّد نهايـة روايتـه، وكان عليـه أن يتحـلّى بالجـرأة والإقـدام حتّـى يسـألها ويقطـع الشّـكّ باليقـين ويـترك بذلـك المنطقـة الرّماديـة ليسـبح في البيـاض مثـل طـير سـعيد، أو يغـرق في السّـواد مثـل قـطّ شريـد...

كـفّ عـن الكتابـة بعدمـا وصـل إلى لحظـة الحسـم الّتـي كانـت خـارج نطـاق إرادتـه، حمـل هاتفـه واتّصـل بنعيمـة.

جاءه صوتها مرحاً كأنّها تودّ إخباره ألاّ شيء تغيّر بعد الّذي حصل:

- أهلا عادل. كيف حالك؟ اشتقت إليك كثيراً.

قال في حذر:

- الحمد للّه يا نعيمة. أنا بخير. وأنت؟

أجابت في هدوء:

- أنا أيضاً بخير مادمت أنت بخير.

قال بغتة دون مقدّمات:

- لديّ مفاجأة لك.

صاحت بنبرة تنمّ عن فرحة عارمة:

- واااااو...كم أعشق المفاجآت! خصوصاً إذا كانت من طرفك.

همس بصوت خفيض وكأنّه قرّر ألاّ يخبرها شيئاً:

- يسرّني ذلك.

هتفت في نفاد صبر:

- هـه...! ماهـي هـذه المفاجـأة؟ تكلّـم يـا عـادل فأنـا أطيـق أيّ شيء إلاّ انتظـار المفاجـآت.

سألها وهو يحاول التّمهيد لمفاجأته:

- هل تذكرين يوم طلبت منّي أن أكتب رواية؟

ردّت على الفور:

- بكلّ تأكيد. أذكر ذلك جيّداً.

واصلت غير مصدّقة:

- لا تقـل لي أنّـك قـرّرت أن تلبّـي طلبـي وتكتـب روايـة! إذا كان الأمـر كذلـك فسـتكون مفاجـأة رائعـة فعـلاً.

قال وهو يبتسم:

- أنا على وشك إنهائها.

صاحت في بلادة:

- ماذا؟!

تابعت في استغراب:

- ولكن لا يمكن أن تكتب رواية في هذا الوقت الوجيز!

قال موضّحاً:

- لقـد بـدأت كتابتهـا منـذ مـدّة طويلـة، في البدايـة كنـت مدمنـاً عـلى

تدويـن يوميـاتي، ويومـاً بعـد يـوم بـدأ حلـم كتابـة روايـة ينبـت بداخـلي، ثـمّ شرع ينمـو مـع مـرور الزّمـن حتّـى نضـج، فوجـدت نفـسي أعيـد صياغـة يوميـاتي بشـكل جديـد ليلائـم شـكل روايـة، سـاعدني في ذلـك غـزارة الأحـداث الّتـي عشـتها هنـا، ولكـن لا أخفيـك سرّا أنّ جـذوة الكتابـة التهبـت بداخـلي منـذ عرفتـك.

صرخت في سعادة ضافية:

- هـذا أسـعد خـبر سـمعته في حيـاتي يـا عـادل، ربّمـا لـو عـثرت عـلى أخـي مـا كنـت لأفـرح كـما فرحـت الآن، يـسرّني كثـيراً أن تكتـب روايـة، ويـسرّني أكـثر أن أكـون مسـاهمة فيهـا.

قال في لؤم:

- نعم أنت مساهمة كبيرة فيها، وأنا لا أزال في حاجة إلى مساعدتك.

قالت في اندفاع:

- أنت تعلم أنّك لو طلبت عينيّ لوهبتهما لك وأنا في غاية السّرور.

واصلت في مزاح وهي تبتسم:

- ولكنّنـي لـن أسـتطيع أن أهبهـما لـك قبـل أن أقـرأ بهـما الرّوايـة. هـه...! موافق؟

أجاب في مزاح أيضاً:

- موافق.

سألت بلهجة جادّة:

- كيف أستطيع مساعدتك؟

- أحتاج حدثاً مهمّاً لأنهيَ الرّواية.

قالت متعجّبة:

- ولكنّني لم أقرأ أحداث الرّواية حتّى أتمكّن من مساعدتك على صياغة نهاية مناسبة.

قال في خبث:

- صحيح أنّك لم تقرئي أحداث الرّواية. ولكنّك تعيشينها، وبناءً على ذلك يمكنك أن تصوغي النّهاية الّتي تشائين.

قالت بلهجة صادقة مشوبة بغير قليل من الحيرة:

- لم أفهم قصدك يا عادل، أفصح من فضلك.

قال فجأة:

- أرغب بالزّواج منك. ماذا تقولين؟

صمتت برهة كأنّ صمماً ألمّ بها على حين غرّة.

سألت في تلعثم بعد أن استوعبت كلامه:

- ولكن...! مادخل الزّواج بموضوع الرّواية؟

قال في حسم:

- هو لبّ الموضوع. هه...! ما قولك؟

قالت كما لو كانت تنتظر أن يقدّم لها هذا العرض منذ اليوم الأوّل الّذي رأته فيه حينما كانت واقفة أمامه بطبق الحلوى:

- إنّ حلم حياتي أن أصير زوجة لك يا عادل، لا أستطيع تخيّل حياتي من دونك، ولكن أظنّها ستكون قاتمة مثل ليلة شتوية طويلة.

شعر عادل بروحه تتشرّب السّعادةَ كما تتشرّب الإسفنجة الماء. أحسّ أنّ كمّيّة السّعادة الّتي منحتها له نعيمة ستكفيه عمره كلّه، يكفيه كلّما احتاج إلى السّعادة أن يعصر روحه لتتقاطر منها مثل مطر رحيم.

قال بنبرة تنزّ فرحاً:

- أنا أسعد إنسان في الكون.

قالت في خفر:

- أحبّك.

قال في سعادة:

- أحبّك أكثر.

واصل كلامه وهو يسأل في لطف:

- حبيبتي. هل تذكرين حينما أخبرتك مرّة أنّ لديّ فكرة قد تساعد فتيات هذه القرية في حلّ مشكل زواج القاصرات؟

اندفعت تقول:

- نعم نعم. وأتذكّر أيضاً أنّك وعدتني أن تأخذ بمشورتي عندما تختمر الفكرة في ذهنك.

قال في ثقة:

- وهاأنذا أفي بوعدي، تعلمين أنّني كنت بصدد البحث عن فتاة قاصر تمّ تزويجها قسراً من رجل يكبرها سنّاً لكي تشارك في برنامج تلفزيّ، وكانت فكرتي أن أصطحب فتاة دون علم زوجها مادام من المستحيل إيجاد من يقبل زوجها بظهورها في التّلفاز بغضّ النّظر عن الموضوع الّذي ستتحدّث فيه. وكنت حائراً ومتردّداً، أدفع قدماً وأؤخّر أخرى لأنّ الموضوع ينطوي على مخاطر كبيرة، ولكنّ الفتاة الّتي أجهدت نفسي بالبحث عنها لمدّة طويلة بدون جدوى، تمكّنت حنان من إيجادها بسهولة بالغة، إنّها فتاة طُلّقت حديثاً قامت حنان بإقناعها وإقناع أمّها بالمشاركة في البرنامج. الأمور الآن تسير على أفضل ما يرام، اتّصلنا بالبرنامج وطلبوا منّا الحضور بعد ثلاثة أسابيع. هه...! ما رأيك؟

قالت نعيمة بلهجة تشي بالعتاب والغيرة:

- ولكنّـك الآن تخـبرني بالأمـر ولا تطلـب مشـورتي، أنـت وحنـان فكّرتما وتشـاورتما وأنتـما الآن بصـدد التّنفيـذ.

قال مبرّراً:

- حـدث كلّ شيء بسرعـة وبشـكل مفاجـئ. أنـا نفـسي كنـت قـد بـدأت أصرف نظـري عـن الأمـر إلى أن فكّـرت حنـان في الضّاويـة.

قالت في استسلام:

- إذا كان الأمـر كذلـك فـلا بـأس، كلّ مـا أتمنّـاه هـو أن تجـد حـلاًّ لذلـك المشـكل حتّـى ترتـاح.

قال بلهجة تفصح عن أمل كبير:

- هذا ما أتمنّاه أيضا، أظنّني سأنجح هذه المرّة.

استطرد بنبرة مازحة:

- والآن بعـد أن أوحيـتِ لي بنهايـة الرّوايـة، لم يعـد أمامـك إلاّ أن تتركينـي أكملها فلـديّ عمـل كثـير.

قالت في دعابة:

- يبدو أنّك سئمت منّي.

قال متظاهراً بالجدّيّة:

- لا يمكن أن أسأم منك إلا في حالة واحدة؟

سألت في حيرة:

- ماهي؟

أجاب:

- إذا سئم النّمل من السّكّر.

ضحكت نعيمة ضحكاً هستيرياً، وضحك عادل كما لم يضحك منذ مدّة...

بعدما أنهى اتّصاله، تنبّه إلى أنّه نسي أحزانه طيلة المدّة الّتي كان يتحدّث خلالها مع نعيمة، وشعر وكأنّها حقنته بمخدّر لا يباع في أيّ صيدليّة ولا يصفه أيّ طبيب.

مخدّر اسمه: مخدّر السّعادة...

(٢٤)

انطلاق موسم الأفراح والأتراح

شعور رائع ذلك الّذي ينتاب المرء حينما يخلد إلى الرّاحة بعد عمل شاقّ، ولكنّ الأروع منه هو ذلك الشّعور الّذي يحسّ به من كان عالقاً في نفق مظلم من الشّك والرّيبة، فلاح له في الأفق نور جعله يهرول صوبه بقدمين كأنّهما جناحان، وقلبه يخفق فرحاً بعدما أدرك أنّه يسير على السّكّة المؤدّية إلى اليقين.

هذا الشّعور نفسه هو الّذي أحسّت به حنان عندما أخبرها والدها بنتائج التّحليل المختبريّ الّذي أُجْرِيَ على الدّواء الّذي أعطاه لها سي الحسين، شعرت بالهلع في البداية، ولكنّها بعد ذلك شعرت بفرحة النّصر بعد أن أدركت أنّ الوصول إلى الحقيقة ولو متأخّراً خير من عدم الوصول إليها.

لم تكن لتتّخذ أيّ قرار دون اللّجوء إلى حبيبها، إلى ملاكها...

قالت له في نبرة محفّزة على التّشويق:

- لقد ظهرت نتائج تحليل دواء الفقيه.

سأل عادل في لهفة:

- هه...! ظالمان أو مظلومان؟

أجابت في نبرة ذات مغزى:

- ما كان للملاكين أن يظلما الشّيطان، ذلك شرف لا يمكنه أن يصل إليه.

سأل في شكّ أقرب إلى اليقين:

- هل تقصدين...؟

- قاطعته بعد أن عرفت أنّها بلغت مرادها دون الحاجة إلى كلام كثير:

- نعم.

صرخ مذعوراً:

- يا إلهي...! رغم أنّني كنت أتوقّع ذلك إلاّ أنّ...

واصل متسائلاً في حيرة:

- ماذا قال أبوك بالضّبط؟

ردّت في حسم:

- الدّواء يحتوي على موادّ مخدّرة، ولكنّها سامّة، قد تؤدّي إلى قصور في عمل القلب وتوقّف الجهاز التّنفّسي في مدّة تتراوح بين ثلاثة وخمسة أسابيع.

قطّب حاجبيه ووسّع عينيه في توجّس وهو يسأل:

- ولكن هل سي الحسين يفعل ذلك عن عمد أو عن جهل؟

مطّت شفتيها وهزّت رأسها وهي تجيب:

- سواء كان القتل عن عمد أو عن جهل، فإنّ ذلك لا يغيّر من النّتيجة شيئاً، فقيه يصف لمرضاه دواءً مميتاً لا يمكن أن يبقى حرّاً طليقاً يعيث في القرية قتلاً، فإذا كان القتل العمد جريمة بشعة، فإنّ امتهان الطّب عن جهل جريمة لا تقلّ بشاعة.

سأل وهو مشوّش الفكر:

- وماذا نحن فاعلان الآن؟

ردّت بلهجة حازمة:

- سنبلّغ رجال الدّرك بكلّ تأكيد.

قال موافقاً على كلامها:

- طبعاً طبعاً، هذا ما يجب علينا فعله.

في هذه اللّحظة تعالى صوت فريد الأطرش وهو يغنّي لحلاوة الدّنيا من جديد، حدّق عادل إلى شاشة هاتفه وقد بدا عليه التّردّد.

ضغط أخيراً على زرّ قبول المكالمة كما لو كان مرغماً على ذلك.

جاءه صوت نعيمة عذباً وهي تقول:

- مرحباً حبيبي. كيف حالك؟

شعر عادل بإحراج كبير وشرع يختلس النّظر إلى حنان الّتي كانت تراقبه في اهتمام، ظهر له أنّ صوت نعيمة كان مرتفعاً للدّرجة الّتي تسمح لحنان بسماعه بوضوح، كان من المفروض أن يجيب نعيمة ويقول: مرحباً حبيبتي، أنا بخير وللّه الحمد. وأنت؟ ولكنّه أجرى تعديلاً اضطرارياً بسيطاً على هذه الجملة؛ عوّض فقط كلمة حبيبتي بكلمة نعيمة، فخرج صوته مختلجاً وهو يقول:

- مرحبا نعيمة، أنا بخير وللّه الحمد، وأنت؟

تنفّس الصّعداء عندما لاحظ أنّها لم تنتبه لأيّ شيء لمّا سمعها تقول بنفس الصّوت العذب:

- أنا أيضاً بخير يا حبيبي، شكراً لك.

شعر عادل بتورّد خدّيه واحمرار أذنيه كما لو كان مراهقا يسمع كلمة حبيبي لأوّل مرّة في حياته.

أعفته نعيمة من الكلام، وكأنّها كانت تعلم أنّ اللّغة قد خانته في هذه اللّحظة، عندما واصلت في فرح:

- حبيبي، بدوري لديّ مفاجأة لك.

أحسّت حنان أنّ وجودها هو سبب المأزق الّذي بدا فيه عادل، لذلك تظاهرت بالتّشاغل بترتيب بعض الأوراق، ولكن رغم ذلك، أحسّ عادل أنّ أذنيها في هذه اللّحظة كانتا تعملان بجدٍّ وتفانٍ خلافاً لبقيّة أعضائها الأخرى.

سأل بحذر:

- ما هي؟

- لقد كلّمت والديّ في موضوع زواجنا وهما موافقان. هه...! ما رأيك في هذه المفاجأة؟

أجاب باقتضاب على الفور وكأنّه كان توّاقاً لإنهاء المكالمة وتأجيلها إلى وقت آخر:

- جميلة جدّا.

سألته في دهشة وقد أثار قلقَها برودُه الغريب:

- عادل! ألست سعيداً؟!

حاول إنقاذ ما يمكنه إنقاذه:

- بلى، أنا في قمّة السّعادة.

ودّ لو يستطيع الرّقص فرحاً في هذه اللّحظة الّتي يسمع فيها هذا الخبر السّارّ الّذي أنعش روحه المخنوقة الّتي كانت على شفير الانطفاء، ودّ لو يستطيع التّغزّل بنعيمة كما يليق بحبيب ولهان أن يتغزّل بحبيبته. ولكنّه لا يستطيع أن يفعل ذلك، ليس خجلاً فقط، ولكن أيضاً احتراماً لمشاعر حنان الّتي كان يعلم منذ مدّة أنّها تحبّه مثل حبّ نعيمة له أو أكثر، فرغم أنّها لم تبح له بما يعتلج في صدرها، إلاّ أنّ حبّها قهر كلّ محاولاتها اليائسة لإخفائه عن حبيبها، كشفتها نظراتها الشّغوفة، ونبراتها اللّهوفة، وضحكاتها الصّبوحة، وحركاتها المفضوحة.

قالت نعيمة بنبرة تحمل بين ثناياها تأنيباً لطيفاً:

- ولكنّني كنت أتوقّع أن يجعلك الخبر تُجَنُّ فرحاً.

قبل أن ينبس عادل بكلمة، طرقت سمعه أصوات صاخبة تنبعث من الخارج. كانت أصوات دفوف ممزوجة بغناء ينطلق من حناجر بدا له كما لو أنّها ما خُلِقت إلاّ لتغنّي.

صاح عادل متلكّئاً بعدما وجد عذراً ينتشله من براثن الموقف المحرج الّذي هو فيه:

- متأسّف يا نعيمة، لا أستطيع سماعك جيّداً، هناك صخب كبير من حولي، سأتّصل بك فيما بعد.

بعد أن أنهى اتّصاله، نظر إلى حنان متوجّساً وهو يدعو في سرّه ألاّ تتطرّق إلى موضوع المكالمة لا من قريب ولا من بعيد.

سألته حنان وهي تتصنّع ظرفاً هي أبعد ما تكون عنه في هذه اللّحظة بالذّات:

- ما هذه الأصوات؟! لا تقل لي أنّه حفل زفاف الشّيطان!

انفرجت أسارير عادل، ومنح نفسه وقتاً ليتنفّس بعمق واسترخاء قبل أن يقول وهو يبتسم:

- لا. الشّيطان قرّر أن يقيم حفل زفافه يوم عيد الأضحى بعد حوالي أسبوع من اليوم، أمّا هذه الأصوات فهي أصوات شباب القرية الّذين يعبّرون عن سعادتهم بعودتهم إلى أقربائهم وذويهم بعد عام من الفراق، لقد جرت العادة هنا على أن يهاجر الشّباب إلى مختلف مدن الوطن قصد العمل، ولا يعودون إلاّ قبل عيد الأضحى، إنّه موسم عودة الطّيور المهاجرة الّذي يدشّن موسم الأفراح الّذي يمتدّ لأسابيع بعد العيد، العيد هنا مقترن بـ «أحواش». لا يمكن تخيّل عيد بدون «أحواش».

هتفت حنان في حماس

- رائع!

ثمّ استدركت في أسف:

- ولكنّنا لا نستطيع حضور جميع مراسيم موسم الأفراح. غداً سأغادر إلى المدينة لقضاء العيد رفقة أفراد أسرتي ولن أعود إلاّ بعد العيد بأسبوعين أو أكثر. هه...! وأنت متى ستغادر؟

طعنته طعنة نجلاء في قلبه دون أن تدري...

متى سيغادر؟ وإلى أين سيذهب؟ هو نفسه لا يعرف. فكيف سيجيبك يا حنان؟!

ترقرقت الدّموع في عينيه، إنّه موسم الأفراح. كلّ الطّيور سوف تعود إلى أعشاشها لتنعم بلحظات هانئة من السّعادة والفرح والحبّ في أحضان من تحبّ إلاّ طير واحد، طير وجد نفسه بغتة مهيض الجناحين في صحراء قاحلة لا يدري من أين أتى ولا إلى أين يذهب.

انهار على الكرسي مثل شجرة اقتلعتها السّيول من جذورها وراح ينشج في حرقة ومرارة،

لم يتمالك نفسه، ولم يستطع تبرير نشيجه، فحكى لحنان كلّ شيء...

عندما خرج من مكتبها غائم البصر وشارد الفكر، لمح شابّاً يهرول مبتعداً دون أن يعلم من يكون. تساءل في سرّه في حيرة: من يكون هذا الشّابّ؟ وماذا كان يفعل قرب باب مكتب الطّبيبة؟ وهل سمع شيئاً ممّا قيل في الدّاخل؟ لم يكن في مزاج رائق ليُشغِل بالَه بالبحث عن إجابات لأسئلته، لذلك واصل سيره دون أدنى اكتراث، ولمّا أصبح خارج المركز، وجد في طريقه الغريب يسير في وجوم وكأنّه يسير وراء جنازة أحد أقاربه. تساءل في قرارة نفسه: ما حكاية هذا الغريب الّذي يبدو أنّه يحمل

هـمّاً تعجز عـن حمله الجبال؟ وفي الاتّجاه الآخر، شاهد حشداً مـن شباب القريـة يسـيرون في مـرح وهـم يغنّـون ابتهاجـاً برجوعهـم إلى أهلهـم بعـد غيبـة.

واصل عـادل سـيره في وجـوم يشبه وجـوم الغريـب وهـو يفكّـر في سرّه: لقـد انطلـق موسـم الأفـراح عنـد الجميـع. أمّـا الغريـب وأنـا، فقـد انطلـق عندنـا موسـم الأتـراح.

حينـما دخـل منزلـه كان قـد اتّخـذ قراريـن؛ قـرّر أن يقـضي العيـد في القريـة، وأن يتّصـل بحبيبتـه ليخبرهـا أنّـه قـرّر إقامـة حفـل زفافهـما بعـد العيـد بشـهر...

(٢٥)
موت الشّيطان

في تاريخ كلّ تجمّع سكّاني هناك أحداث يصعب نسيانها، بل يستحيل. أحداث تصبح مراجع زمنيّة تُؤَرَّخ بها الأحداث الّتي سبقتها والّتي تعقبها، كالثّورة الفرنسية الّتي استمرّت من سنة ١٧٨٩م إلى سنة ١٧٩٩م، وأحداث ١١ شتنبر ٢٠٠١م، وثورات الرّبيع العربي الّتي بدأت شرارتها سنة ٢٠١٠م.

أمّا في هذه القرية الجبلية الوادعة والبعيدة عن الحضارة بعد السّماء عن الأرض، فقد كان يوم عيد الأضحى يوماً مُمَيَّزا لا يشبه الأيّام الّتي سبقته ولا الّتي أعقبته.

مع انبلاج الصّبح بعد أن وُلِد من رحم ليل مُعسعِس، خرج عادل من منزله قاصداً المسجد من أجل الاجتماع برجال القرية للخروج بعدها لصلاة العيد في المصلّى. وكان متجهّم الوجه، مضطرب الشّعور، يمشي في حزن كأنّما يقصد مأتماً من المآتم. إنّه أوّل عيد يقضيه بعيداً عن أهله، أو بالأحرى هو أوّل عيد يقضيه بعد أن عرف أن لا أهل له، كان قد قطع صلته بأمّه بالتّبنّي بشكل نهائي، ورفض دعوة خطيبته نعيمة وصديقه سعيد من أجل قضاء العيد عند أيّ منهما. أصرّ على أن يعيش الغربة بكلّ تفاصيلها، وألحّ على أن يقضي العيد كما يجدر بلقيط مثله أن يقضيه.

عندما اقترب من المسجد بدأت تتناهى إلى سمعه أصوات جلبة عظيمة لا تتناسب بتاتاً مع الهدوء المستفزّ المسيطر على القرية في كلّ وقت وحين، هرول في حيرة والأفكار تضطرم في عقله وهو يحاول تخمين ما يمكن أن يكون قد حدث، وفي هذا الوقت المبكّر من النّهار، ولكن بدون جدوى. وكان كلّما اقترب أكثر إلاّ وازدادت الجلبة أكثر حتّى خُيِّل إليه أنّه أخطأ الوجهة وقادته قدماه إلى سوق من الأسواق. وعندما ولج المسجد، رأى النّاس متحلّقين حول شيء ما قرب المحراب وعقائرهم تتعالى بالحوقلة والتّكبير والصّراخ وأصوات أخرى صعب عليه تمييزها.

أثار المشهد فضوله ودهشته، فاشرأبّ بعنقه محاولاً استراق ولو نظرة واحدة تشبع فضوله وتطفىء دهشته. ولمّا أخفق في مسعاه، شقّ الصّفوف في اندفاع ليلمح مشهداً لم ير مثله من قبل، ولن ير مثله من بعد، على الأرجح، ولو قُدِّر له العيش مائة عام؛ لمح الفقيه مضرّجاً في دمائه ورأسه مفصول عن جسده مثل خروف العيد، أخفى وجهه بيديه وشهق في ارتياع وفزع ما كان ليشعر بهما لو أنّ أحدهم أخبره عمّا حصل للفقيه دون أن يراه بعينيه، كان يختلس النّظر إلى الجثّة من بين أصابعه ثمّ يسارع إلى إغلاق عينيه من جديد. لم يتخيّل حتّى في أسوأ كوابيسه أن يحضر في موقف مثل هذا، موقف لا يستطيع مشاهدته حتّى في التّلفاز أو في هاتفه المحمول.

شعر بالغثيان، فتقهقر إلى الوراء وانزوى في ركن من أركان المسجد يتابع المشهد من بعيد، كان الحزن هو الطّاغي على الوجوه. البعض ينشج في مرارة، والبعض يصرخ في غضب ويتوعّد القاتل بالقصاص، والبعض عقدت الصّدمة لسانه فارتسمت على ملامحه كلّ علامات الأسى والحزن. أمّا البعض الآخر فكانت ملامحه جامدة، متبلّدة، لا تشي لا بالفرح ولا

بالحـزن. وكان مـن بـين هـؤلاء ابراهيـم ابـن الفقيـه الأصغـر، وأمّـه فاطنـة، والشّـيخ محـمّاد، والغريـب كذلـك. أمّـا عمـر، ابـن الفقيـه الأكـبر، فقـد سـقط عـلى جثّـة أبيـه يتمسّـح بهـا وينتحـب انتحابـاً يقطـع أنيـاط القلـوب.

كان واضحـاً أنّ النّـاس لم يعتقـدوا أنّ سي الحسـين يمكـن أن يمـوت يومـاً، فكيـف لهـم أن يصدّقـوا أنّـه مـات مقتـولاً وبهـذه الطّريقـة البشـعة وفي يـوم سـعيد مثـل هـذا! لذلـك أطبقـت الصّدمـة عـلى القريـة بعـد موتـه كـما أطبقـت عـلى المدينـة المنـوّرة بعـد وفـاة رسـول اللّـه صـلّى اللّـه عليـه وسـلّم. ولم يكـن ينقـص المشـهد سـوى رجـل حصيـف، راجـح العقـل ليخطـب في النّـاس ويقـول: ألا مـن كان يعبـد سي الحسـين، فـإنّ سي الحسـين قـد مـات، ومـن كان يعبـد اللّـه، فـإنّ اللّـه حـيّ لا يمـوت.

خـرج عـادل مـن المسـجد بعدمـا تذكّـر حنـان، أخـرج هاتفـه واتّصـل بهـا. وقبـل أن يبـارك لهـا العيـد، أخبرهـا بمـوت الشّـيطان...

(٢٦)

اعتذار لإبليس

أنا فاطنة، وأنا هنا من أجل الاعتراف.

سأعترف بجريمة قتل مع سبق الإصرار والترّصد، ولكن قبل ذلك اسمحوا لي أن أقدّم اعتذاراً لإبليس. ولكن قبل هذا وذاك، لابدّ أن أقدّم له التّحيّة. نعم سأقدّم التّحيّة لإبليس، لا تستغربوا، أعرف أنّه كبير الشّياطين، وأنّه الملعون والمطرود من رحمة اللّه، وأنّه ألدّ أعداء بني آدم إلى يوم الدّين. أعرف كلّ ذلك وأكثر، ولكن رغم ذلك سأقدّم له التّحيّة، فهو رغم كلّ الذّنوب الّتي اقترفها منذ أن وسوس لنفسه ورفض السّجود لآدم إلى يوم الدّين، إلاّ أنّه لم يرتكب ذنباً مثل الّذي ارتكبه زوجي.

لا أظنّ أنّ إبليس تجرّأ يوماً على انتهاك حرمة الموتى ومارس الجنس على جثثهم، ولا أظنّ أنّ أفكاره الشّيطانية قد هدته إلى مجرّد التّفكير في ذلك. بل لا أظنّ أنّه يأبه للإنسان بعد موته، لأنّ مهمّته تنتهي بمجرّد توقّف قلبه عن النّبض وعقله عن التّفكير، فجثّة الإنسان إذن لا تثير حماسة إبليس وليس فيها أيّ شيء يدعوه للالتفات إليها، لذلك يتركها لديدان الأرض وينصرف هو للبحث عن ضحايا من الأحياء ليوسوس لهم ويغويهم عن الطّريق المستقيم.

سأعتذر منه أيضاً، سأعتذر منه أصالة عن نفسي ونيابة عنكم جميعاً،

أقول لك آسفة يا إبليس، آسفة لأنّ هناك من بني جلدتنا نحن البشر من أزاحك عن عرش الشّيطنة وتربّع عليه هو عن جدارة واستحقاق، أعرف أنّ ذلك لم يخطر لك على بال يوماً، ولكن هذا ما حصل. أعرف أنّك باعتبارك سلطان الشّياطين، ربّما قد كنت تتوقّع يوماً أن يثور ضدّك أحد من الغوغاء من ذرّيتك، ولكنّني أجزم أنّك لم تتوقّع أبداً أن يثور ضدّك بنو البشر ويستولوا على سلطنة الشّيطنة بدلاً عنك.

كنت أعرف منذ مدّة بعيدة أنّ زوجي شيطان في ثوب إنسان، ولكن بعدما قتلتُه وانتشر في القرية همس يقول أنّه كان هو المسؤول عن قتل الفتيات، أدركت أنّه لم يكن شيطاناً عادياً من عامّة الشّعب، بل كان واحداً من الثّائرين ضدّ إبليس. أدركت ذلك لأنّني الوحيدة الّتي تعرف لماذا يقتل ضحاياه، ربّما اعتبره الآخرون مجرماً عادياً لا يرقى إلى درجة شيطان، وهم معذورون في ذلك على أيّ حال، ولكنّني أعتبره كبير الشّياطين لا ينافسه على هذا المنصب إلاّ قليل من بني البشر الّذين يقترفون آثاماً تأنف من ارتكابها شياطين الجنّ رغم كلّ الشّرور الكامنة فيها.

أليس من يقتل النّفس الّتي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ لكي يشبع نزواته الشّاذّة المقزّزة كبير الشّياطين؟!

أترك لكم الجواب...

سأعترف الآن بجريمة قتل أعتزّ بها كما لم أعتزّ بشيء في حياتي من قبل. شرف ما بعده شرف، وفخر ما بعده فخر أن تقتل كبير الشّياطين وتخلّص النّاس من شروره، نعم أنا من قتلت زوجي. وإليكم تفاصيل الجريمة:

كنّا في ليلة عيد الأضحى، وكنت قد اتّخذت قراري ورتّبت لكلّ شيء، كان زوجي قد دأب على أن يضحّي كلّ سنة بجديين أملحين أقرنين يحضرهما

ولـداي معهـما، ولكـن هـذه السّـنة قـرّر أن يضيفنـي إليهـما ويضحّـي بي أيضاً بعـد أن ارتـأى أن يقيـم حفـل زفافـه عـلى صغـرى بنـات الحـاجّ عـلي يـوم عيـد الأضحـى، ربّمـا الجديـان لم يكونـا يعرفـان مـا ينتظرهـما، لذلـك لم يجزعـا ولم يبديـا مقاومـة تذكـر، بـل كانـا يتنـاولان البرسـيم في اطمئنـانٍ مـن أغـواه الشّـيطان وجعلـه يعتقـد أنّ النّعمـة تـدوم للأبـد، ولكنّنـي أنـا عـلى العكـس منهـما كنـت أعـرف مصيري تماماً، لذلـك لم أتنـاول عشـائي تلـك اللّيلـة.

كيف يستمرئ طعم الأكل من يعرف أنّه سيُذبَحُ في الغد؟!

كان لابـدّ أن تكـون هنـاك ضحيّـة ثالثـة إلى جانـب الجديـين، أنـا أو زوجي؟ لذلـك قـرّرت أن أدافـع عـن نفـسي وأنتقـم لكبريـائي، كان يمكـن أن أتجـاوز عنـه شـذوذه وأتركـه لخالقـه يعاقبـه كيفـما يشـاء، ولكـن عندمـا قـرّر أن يتـزوّج عـليّ، قـرّرت أن أضحّـي بـه قبـل أن يضحّـي بي.

لم يغمـض لي جفـن تلـك اللّيلـة، كنـت أتقلّـب يمنـة ويـسرة وأنـا أنفّـذ الجريمـة في ذهنـي مـرّة تلـو الأخـرى دون أن أشـعر بـذرّة نـدم، قتلتـه عـشرات المـرّات وأنـا أشـعر في كلّ مـرّة بانتشـاء أكـبر مـن المـرّة الّتـي قبلهـا، لم أشـعر بمثـل تلـك النّشـوة مـن قبـل وإلاّ لكنـت فكّـرت في قتلـه منـذ زمـن بعيـد.

تركـت سريـري قبـل الفجـر بقليـل واتّجهـت صـوب المطبـخ كـما أفعـل كلّ يـوم، سـخّنت الوضـوء لزوجـي وأعـددت لـه الحسـاء وذهبـت لإيقاظـه وأنـا أرجـو ألاّ يكـون عزرائيـل قـد سـبقني إليـه، صحـا وتنـاول حسـاءه ثـمّ ذهـب إلى المسـجد ووجهـه يقطـر سـعادة، لم يكـن يحلـم أن ينـام ويصحـو ليجـد زوجتـه، الّتـي سـتصبح ضرّة بعـد سـاعات، قـد أعـدّت لـه الوضـوء والحسـاء ومعهـما ابتسـامة.

دخلـت إلى المطبـخ ووضعـت غـلاّي المـاء عـلى النّـار وحملـت سـكّيناً كبـيراً كان قـد شـحذه زوجـي بنفسـه ليذبـح بـه الجديـين، واتّجهـت صـوب البـاب

الفاصل بين المنزل والمسجد والّذي يفضي مباشرة إلى مقصورة الصّلاة وقبعت هناك أنظر من ثقب مفتاح الباب إلى ما يحدث، رأيت الرّجال وهم يصلّون تحيّة المسجد وصلاة الفجر فرادى، ورأيتهم وهم يصطفّون خلف زوجي ليؤدوا صلاة الصّبح جماعة، ثمّ رأيتهم وهم يؤمّنون على دعائه المؤثّر بعد الصّلاة، وأخيراً رأيتهم وهم يغادرون المسجد تباعاً حتّى بقي بمفرده يجلس في المحراب كأنّه ينتظر قدومي. فتحت الباب بأناة وتقدّمت نحوه بعد أن رسمت على وجهي ابتسامة توحي بالرّضى.

سألني في دهشة:

- فاطنة، لماذا أتيت؟

أجبت وأنا لا أزال أبتسم في ودّ مفتعل:

- تأخّرت فقلقت عليك.

أضفت وأنا أمدّ إليه يدي لأساعده على الوقوف:

- هيّا بنا، يجب أن تغتسل قبل أن يعود النّاس إلى المسجد للاجتماع بغية الخروج لصلاة العيد.

وضع يده في يدي وعلامات التّعجّب بادية على محيّاه، وقبل أن يستقيم واقفاً، وضعت نفسي خلفه بخفّة كبيرة، وقبل أن يرتدّ إليه طرفه، سللت السّكّين الّذي كنت أحتضنه تحت ثيابي ونحرته نحر البعير.

سقط بجثّته الضّخمة على الأرض وهو يخرخر ويرقص رقصة الدّيك المذبوح، هويت بركبتيّ على صدره وذبحته كما يُذبح الخروف من الوريد إلى الوريد، اندلقت منه الدّماء كما يندلق الماء من فوهة خرطوم، وعندما نضبت دماؤه أو كادت، فصلت رأسه عن جسمه وتركته وعدت إلى المنزل لأغتسل وأوقظ ولديّ.

نعم قتلته، فاشنقوني إن كان يستحقّ الشّنقَ من قتل كبير الشّياطين...

(٢٧)

قتل الشّيطان

لكلّ واحد منّا مثله الأعلى الّذي يحاول الاحتذاء به والسّير على منواله، ذلك الشّخص القدوة الّذي خطف لبّه بجماله أو ماله أو شهرته أو أخلاقه، قد يكون هذا المثل الأعلى ممثّلا ساحراً، أو رجل أعمال ثريّ، أو رياضيّاً مشهوراً، أو شخصاً متخلّقاً يحظى باحترام الجميع.

أمّا أنا فقد كان أبي هو مثلي الأعلى في الحياة.

لم يكن أبي ممثّلاً وسيماً يتهافت الجميع عليه من أجل الظّفر بصورة معه، ولا رجل أعمال غنيّ يحسده الآخرون على أمواله الطّائلة، ولا رياضيّاً ذائع الصّيت يثير الإعجاب والانبهار بإنجازاته العظيمة.

لم يكن أبي سوى فقيه ليس كغيره من الفقهاء، فقيه يحظى بالاحترام والتّقدير، ويجلّه الصّغير والكبير، أو هكذا كنت أعتقد حتّى عهد قريب.

لم تسعفني الظّروف لمواصلة العيش بجوار أبي بعدما اضطررت أنا وأخي الأكبر، وعلى غرار كلّ شباب قريتي البائسة، إلى الرّحيل مبكّراً إلى المدينة قصد العمل، ولكنّ صورة ذلك الرّجل الجليل، الّذي يبجّله كلّ سكّان قريتي، ظلّت خالدة في ذهني.

عندما انصهرت في حياتي الجديدة، تفتّحت عينايَ على تلك الهوّة

الشّاسعة بين المدينة والقرية حيث كنت أعيش، هوّة قد لا تُرْدَمُ ولو بعد قرون.

كنت في أيّامي الأولى، وأنا أكتشف المدينة، أبدو مثل سجين خرج لتوّه إلى النّور بعد أن قضى سنوات من حياته في قبو مظلم.

لم تكن العمارات الشّاهقة، ولا وسائل النّقل المتطوّرة، ولا حتّى الوسائل التّكنولوجية الحديثة هي كلّ ما أثار إعجابي في المدينة، ولكنّني انبهرت أيضاً بنمط العيش الّذي يتّخذ من المساواة بين الرّجل والمرأة أساساً له، فبعدما كنت أرى أنّ المرأة لا تعمل إلاّ في الحقول، أصبح بإمكاني أن أراها اليوم تشتغل في كلّ القطاعات جنباً إلى جنب مع الرّجل، بل وترأسه أحياناً في المعامل والشّركات دون أيّ شعور بالنّقص، وبعدما كنت أظنّ أنّ البنت لا ينكحها إلاّ رجل في عمر أبيها أو زوجها، أصبحت مقتنعاً أنّها يمكن أن تتزوّج بشابّ في عمرها أو أصغر منها دون أيّ حرج ودون أن يرغمها أحد على زوج لا ترضاه لنفسها.

وتذكّرت حبيبتي.

تذكّرت يامنة الّتي أحببتها منذ طفولتي دون أن أمنح نفسي ولو بصيص أمل للزّواج بها في المستقبل طالما أنّ مصيرها شبه المحسوم لن يقودها في النّهاية إلاّ إلى سرير زوج عجوز.

ولكن بعد أن انغمست في حياة المدينة، نبت الأمل بداخلي وشرع ينمو بمرور الشّهور والسّنين، وواظبت في كلّ زياراتي إلى القرية على حقن حبيبتي بجرعات من هذا الأمل حتّى صرنا موقنين أنّنا سننجح يوماً ما في الزّواج رغماً عن كلّ التّقاليد والأعراف البالية.

واتّفقنا على الزّواج بعد أن نبلغ سنّ الرّشد...

عندما اتّصلت بي أمّي تخبرني بأفعال أبي الشّنيعة، شعرت بارتجاج عنيف يضرب منظومة القيم بداخلي، وعندما أخبرتني بنيّته في الزّواج عليها ببنت تصغره بحوالي ثلاثة عقود، رثيتُ لحالها وأشفقت عليها وأنا أسمع صوتها ينزّ حزناً ومرارة، ولكن عندما أخبرتني باسم هذه البنت، أصابتني الصّعقة.

كان آخر ما يمكن أن أفكّر فيه هو أن تكون حبيبتي يامنة هي من وقع عليها اختيار أبي لكي تكون زوجة ثانية له، كنّا نتوقّع أن يتقدّم لطلب يدها رجل في عمر أبيها أو جدّها، وحسبنا لذلك ألف حساب، ولكن أن يطلب يدها أبي، فذلك ما لم نحسب له أيّ حساب.

عدت إلى القرية قبل عيد الأضحى بأسبوع وأنا أخفي بين جوانحي قلباً يكاد ينفطر من الحزن والهمّ. كان دماغي قد عجز عن التّفكير، فاستسلم رأسي لوجع حادّ صار يستفحل يوماً بعد يوم حتّى كاد أن يصيبني بالجنون، توجّهت صوب المركز الصّحّيّ لعلّي أجد عند الطّبيبة الجديدة دواءً يخلّصني من أوجاع رأسي الّتي لم تعد تُطاق، وعندما وقفت عند باب مكتبها، تسمّرت في مكاني بواعز الفضول أسترق السّمع للحوار الّذي كان دائرا بالدّاخل.

وعرفت كلّ شيء...

أبي متّهم بجرائم قتل مرضاه بسبب دوائه المسموم.

عندما سمعت وقع أقدام يقترب من باب المكتب، هرولت نحو الخارج مخافة أن ينفضح أمري، وتهت في زحام الشّباب الّذين كانوا يجوبون القرية احتفالاً بعودتهم إليها بعد غياب طويل، كان الشّباب يضربون على الدّفوف ويغنّون وهم في غمرة أفراحهم، وكنت أكتم بداخلي لوعة لو اطّلعوا عليها لتركوا دفوفهم ولشرعوا يلطمون وجوههم.

أبي ظالم، ولا أدري لماذا لايزال على قيد الحياة ظالمٌ مثله.

ظلم أمّي، وظلمني، وظلم حبيبتي، وظلم مرضاه، بل وشاع ظلمه ليطال حتّى الأموات.

أبي ظالم، أبي شيطان لم يسلم من ظلمه إنس ولا جانّ.

عندها اتّخذت قراري.

سأقتل أبي، سأقتل الشّيطان وأخلّص العالم من شروره الّتي لا تنتهي، سأقتله قبل أن يضيف إلى قائمة ضحاياه أبرياءَ جدد.

ونفّذت قراري.

قتلت أبي بعد فجر عيد الأضحى قبل أن يضحّي بي وبحبيبتي وبأمّي.

قتلته قبل أن تطاله يد العدالة فينفضح أمره ويلحقنا الخزي والعار من جرّاء أفعاله الشّيطانية الّتي ستضحى حديث الصّغير والكبير.

قتلت الشّيطان وارتحت.

قتلته ولست نادماً على ذلك.

(٢٨)

شكّ قاتل

أنـا شـيخ القريـة، الجميع يعرفوننـي، ويعرفـون كذلك العداوة المسـتحكمة بينـي وبـين سي الحسـين. ولكـن لا أحـد يعـرف سـبب تلـك العـداوة، والآن سأكشـف السّـتار عـن ذلـك، لابـدّ أن أبـوح بـكلّ شيء رغـم أنّنـي لم أكـن أنـوي ذلـك، فالحقيقـة بقـدر مـا هـي مؤلمـة لي لأنّها تمـسّ شرفي، بقدرمـا هـي مفخـرة لي لأنّهـا تطفـئ لهيـب الانتقـام المتّقـد بداخـلي منـذ سـنوات، لابدّ أن أبـوح لـكي أرتـاح، ولكـن كذلـك لـكي أبـرّر قتـلي لـه، نعـم أنـا الّـذي قتلـت الفقيـه، قتلتـه لأنّـه سـبب مأسـاتي. وهـذه حكايتـي معـه:

عندمـا قـرّرت الـزّواج، شـاء اللّـه أن يختـار لي مـن بـين كلّ نسـاء العـالم زوجـاً عقيـماً، هـذا قـدري، ولكنّنـي لم أرضَ بهـذا القـدر، بـل تمـرّدت عليـه وقـرّرت تغيـيره، أنـا شـيخ القريـة، ولا يمكـن أن أبقـى بـدون ذرّيـة، طلّقـت زوجتـي وعرّضـت نفسي لاحتقـار أهـل القريـة الّذيـن بقـدر مـا احتقـروني بقـدر مـا عظّمـوا الحـاجّ عبـد اللّـه الّـذي أبى أن يفـرّط في زوجتـه رغـم أنّهـا كانـت عاقـراً، وليتـه اكتفـى بذلـك، ولكنّـه نسـب العقـم إلى نفسـه مـن أجـل الحفـاظ عليهـا وحمايتهـا مـن جـبروت أمّـه وأختـه.

أيّ حبّ ذاك الّذي أَكَنَّهُ الحاجّ عبد اللّه لزوجته!

وأيّ أثـرة تلـك الّتـي تحلّيـت بهـا عندمـا طلّقـت زوجتـي بسـبب عيـب لا يـد لهـا فيـه!

وأيّ كره ذلك الّذي أصبحت أضمره للحاجّ منذ ذلك الحين!

تزوّجـت بعـد ذلـك مـن فاضمـة وكلّي أمـل أن تنجـب لي بـدل الطّفـل الواحـد خمسـة أو سـتّة، حبلـت بسرعـة فكـدت أطـير مـن الفـرح وأنـا أرى بطنهـا يـزداد انتفاخـاً يومـاً بعـد يـوم، كنـت أمنّـي نفـسي أن يكـون مولـودي الأوّل ذكـراً. وعندمـا اقـترب مخاضهـا، هرولـت بهـا إلى المدينـة لتضـع مولودهـا هنـاك في المستشـفى تحـت الرّعايـة الطّبيـة الفائقـة، لم أكـن أريـد لهـا أن تلـد بطريقـة تقليديّـة قـد تجعلهـا معرّضـة هـي وجنينهـا لأخطـار جمّـة، ولكـنّ الأخطـار كانـت متربّصـة بهـا حتّـى وهـي في المستشـفى تحـت رعايـة أمهـر الأطبّـاء. فبعـد أن فحصهـا الطّبيـب، اكتشـف أنّ الجنـين متوضـع بشـكل عـرضيّ في بطنهـا، الـشّيء الّـذي جعـل الـولادة الطّبيعيـة مسـتحيلة، فاضطـرّ إلى أن يقـوم بتوليدهـا عـن طريـق إجـراء عمليـة قيصريـة.

طـوال مـدّة العمليـة كنـت أتحـرّك خـارج القاعـة في عصبيّـة واضطـراب وكأنّنـي أنـا مـن سـيضع المولـود وليسـت هـي، كنـت مفزوعـاً للغايـة. والحـقّ أقـول، فلـم أكـن أعـرف هـل مـردّ فزعـي لخـوفي عـلى زوجتـي أو عـلى الجنـين الّـذي تحملـه في بطنهـا، بعـد زهـاء سـاعة ونصـف مـرّت عـليّ كـما لـو كانـت سـنة ونصـف، خـرج الطّبيـب ليبـشّرني بأنّهـا وضعـت وليدتهـا وأنّهـما معـاً ينعـمان بموفـور الصّحّـة والعافيـة، بعدمـا سـمعت بـشرى الطّبيـب، عبسـت وبـسرت، وصـار وجهـي مسـودّاً وأنـا كظيـم أحـاول أن أفكّـر كيـف يمكننـي أن أتـوارى مـن القـوم مـن سـوء مـا بُـشِّرت بـه.

دخلـت عـلى زوجتـي وأنـا أضرب أخماسًـا لأسـداس، أتخبّـط في حـيرة مريرة وأنـا أحـاول إقنـاع نفـسي الأمّـارة بالجشـع بـضرورة الـرّضى بقضـاء اللّـه وقـدره

ولـو إلى حـين، أحـاول إلهاءهـا عـن التّحسّر عـلى البنـت الّتـي رُزِقتُ بهـا اليوم بتمنّـي مولـود ذكـر قـد يـأتي في الغـد القريـب. وبعـد أن أفلحـت في ذلـك أو كـدت، تنبّهـت إلى زوجتـي الّتـي شرعـت تتحـرّك ببـطء عـلى سريرهـا وكأنّهـا تسـتفيق مـن نـوم عميـق، كانـت تـئنّ مـن الألم بعـد أن بـدأ مفعـول التّخديـر يـزول شـيئاً فشـيئاً، انشـغلت عـن ابنتـي الّتـي كانـت ترقـد في اطمئنـان ملائكي بزوجتـي الّتـي كانـت تتوجّـع في ألم حـادّ. دنـوت منهـا حتّـى وقفت عند رأسـها وسـمعتها تغمغـم بـكلام غـير مفهـوم أقـرب مـا يكـون إلى الهذيـان، انحنيـت عليهـا وأرهفـت السّـمع بداعـي الفضـول لعـلّي أسـتطيع أن أسـتبين شـيئاً مـمّا تقـول، ولكـنّ لسـانها كان ثقيـلاً لا يقـوى إلاّ عـلى نطـق كلام غامـض أشـبه بـكلام مخمـور يتعـثّر في مشـيته مـن فـرط الثّمالـة، تراجعـت خطـوة إلى الـوراء وأنـا أنـوي الخـروج لمنـاداة الطّبيـب أو إحـدى الممرّضـات عندمـا سـمعتها تغمغـم بـكلام اسـتطعت أن أميّـز منـه بعـض الكلـمات، لم أصـدّق في البدايـة مـا سـمعته أذنـاي، لذلـك دنـوت منهـا من جديـد مصيخـاً إليهـا بـكلّ جوارحي لعلّهـا تنطـق بـكلام يفنّـد مـا توهّمـت أنّنـي سـمعته منهـا قبـل قليـل، ولكنّهـا لم تفعـل أكـثر مـن كونهـا أكّـدت مـا قالتـه مـرّة أخـرى حينـما غمغمـت بصوت متلعثـم وهـي تبتسـم بوجـه منهـك: سي الحسـين...أحبّك...أحبّك...

تقهقـرت إلى الـوراء مرعوبـاً وكأنّنـي صادفـت في طريقـي عـلى حـين غـرّة أسـداً قادمـاً نحـوي مكـشّراً عـن أنيابـه وهـو يتضـوّر جوعـاً، تسـمّرت في مـكاني جامـداً مصدومـا بعـد أن شُـلّت قدمـاي عـن الحركـة، حاولـت أن أرغـم نفـسي عـلى تكذيـب مـا سـمعت، إلاّ أنّ زوجتـي واصلـت تغمغـم بنفـس الـكلام في إصرار عجيـب وكأنّهـا لم تكـن تريـد أن تمنحنـي أيّ فرصـة لألتمـس لهـا أيّ عـذر. رمقـت الرّضيعـة، الّتـي كانـت تنـام بجانبهـا في اطمئنـان مسـتفزّ، بنظـرة توحـي بشـكّ قاتـل، لم أعـد متأكّـداً أنّهـا ابنتـي كـما لم أعـد متأكّـداً أنّ زوجتـي

كانت مخلصة لي، حدّقت إليها في بغض بعدما استحال حبّي لها، في رمشة عين، كرهاً شديداً، وخرجت من القاعة ونيران حارقة تضطرم في قلبي حقداً عليها وعلى سي الحسين.

نهشتني الوساوس والشّكوك بمخالبها الحادّة، فسألت الطّبيب عن الأمر لعلّي أسمع منه ما يطفىء النّار المشتعلة في قلبي، فأخبرني أنّ المريض أثناء العمليّة الجراحية، وتحت تأثير التّخدير، قد يصاب باضطرابات عقلية تؤثّر على إدراكه ممّا يؤدّي به إلى الهلوسة الّتي تمتزج عادة بالأحلام والكوابيس. كما أكّد لي أنّ المريض أثناء الاستيقاظ من التّخدير، قد تلتبس عليه الأزمنة والأمكنة والأسماء والحوادث، حاولت أن أقنع نفسي بكلام الطّبيب وأبرّئ ساحة زوجتي من تهمة الخيانة، ولكنّ وسوسة الشّيطان الّتي كانت تنغل بداخلي كانت أقوى من كلام الطّبيب.

كانت زوجتي، على غرار كلّ نساء القرية، لا تتورّع عن زيارة الفقيه كلّما ألمّت بها وعكة صحّيّة مهما كانت طفيفة، لذلك فالخيانة محتملة جدّا، هذا هو المنفذ الّذي استغلّه الشّيطان لكي يوغر قلبي عليها وعليه، فعشت وبين جوانحي قلب يطفح غلاًّ وينبض انتقاماً، فكّرت أن أقتلهما معاً حتّى تخمد النّار المستعرة بداخلي، ولكنّني وجدت أنّ حرمان طفلة صغيرة من أمّها فيه ظلم كبير، لا أعرف لماذا أشفقت على تلك الطّفلة رغم أنّني أكرهها، لذلك قرّرت أن أحيي زوجتي وأقتل الفقيه.

عشت مع زوجتي وابنتي وأنا أكرههما، وحرصت على ألاّ تنجب زوجتي مرّة أخرى، أحياناً كنت أشعر أنّ لعنة زوجتي الأولى تطاردني، وخشيت أن أطلّق فاضمة وأظلمها هي الأخرى فتستحيل اللّعنة لعنتين، تربّصت بالفقيه كثيراً، ولكنّني كنت دائماً أجد نفسي متردّداً، عاجزاً عن الفتك به، ولكن عندما حبلت زوجتي مرّة أخرى، طفح الكيل وتجدّدت

الدّماء في مشاعر الانتقام الكامنة بداخلي مثل بركان خامد، وخشيت أن يكون الفقيه وزوجتي لا يزالان يواصلان رحلة خيانتهما لي وهما يستلذّان استغفالي.

لذلك قرّرت أن أضع حدّاً لحياته...

بعد فجر يوم عيد الأضحى، حملت سكّيني وأخفيته تحت جلبابي وقصدت المسجد بقلب أسد وتصميم فارس لا يهاب الموت، اختبأت خلف جدار منزل قريب من المسجد، وانتظرت لحظات حتّى غادر كلّ المصلّين، فتقدّمت نحو باب المسجد ودخلت، كان الفقيه جالساً في محرابه، فاتّجهت نحوه، وعندما اقتربت منه، أخرجت سكّيني وعالجته بطعنة على مستوى العنق خرّ بعدها ساقطاً على الأرض يتخبّط من شدّة الألم كالممسوس، ولأنّ طعم الخيانة مرّ جدّا، فقد ذبحته وقطعت رأسه وتركته يسبح في بركة من الدّماء ورحلت...

(٢٩)

إرث ثقيل

يلقّبونني بالغريب. ليس فقط لأنّهم يجهلون اسمي، بل لأنّهم يجهلون كلّ شيء عنّي. لم أصارح أحداً بحقيقتي وما كنت لأفعل لولا اضطراري لذلك، فأنا مطالب بتبرير جريمتي؛ جريمة قتل الفقيه، إن جاز تسميتها بالجريمة. أنا الّذي قتلت الفقيه، ولديّ من الدّوافع ما يكفي ليس فقط لقتله، بل للتّنكيل بجثّته أيضا وعلى مرأى ومسمع من الجميع.

عندما حططت رحالي في هذه القرية، آواني الشّيخ محمّاد في بيته وأغدق عليّ من جوده وكرمه وإن لم يكن ذلك ابتغاء مرضاة اللّه بقدر ما كان ابتغاء إذلال الفقيه وتمريغ كلمته في التّراب، ولكن لا ضير، فمصائب قوم عند قوم فوائد.

عندما طال بي المقام في بيت الشّيخ الّذي كانت الأجواء داخله مكهربة لأبعد الحدود، ارتأيت أن أعرض نفسي للعمل عنده مقابل المأوى والطّعام والشّراب. فضربت عصفورين بحجر واحد: حافظت على عزّة نفسي، ونأيت بنفسي عن الأجواء المشحونة داخل بيته.

كنت أقضي اليوم كلّه في حقله، أعتني بالأرض وأرعى الماشية ولا أعود إلاّ حينما يخيّم الظّلام بعدما تكون المشاحنات بينه وبين زوجته قد

وضعت أوزارها أو خفّت حدّتها على الأقلّ، لم أفكّر بالرّحيل يوماً قبل أن أفرغ من المهمّة الّتي نذرت حياتي لأجلها.

عندما كبرت واشتدّ عودي وعرفت أنّ غريمي أصبح فقيهاً في إحدى القرى الجبلية النّائية، ابتعت بغلة وقرّرت أن أجوب كلّ القرى حتّى أعثر عليه وأقتصّ منه. كانت رحلتي شاقّة ومضنية، لم تتوقّف صيفاً ولا شتاءً. قطعت خلالها أنهاراً وودياناً وجبالاً وغابات وفيافي، وكنت كلّما دخلت قرية من القرى إلاّ وكان مسجدها هو أوّل ما ألوذ به، ليست الصّلاة هي الّتي تغريني بارتياد المساجد، ولكن ما يغريني هو البحث عن فقيه مدين لي بدين عليّ أن أؤدّيه له حتّى تخمد جمرة الغلّ بداخلي، وعندما وصلت إلى هذه القرية ودخلت مسجدها ورأيت الفقيه رأي العين، أدركت أنّ العناء الّذي تكبّدته طوال هذه المدّة لم يضع هباءً. أيقنت أنّ قطار القصاص أوصلني إلى المحطّة الأخيرة، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من القصاص الّذي سيريحني، وأصبح الفقيه على شفير الموت الّذي سيرديه في جهنّم وبئس المصير.

عندما كنت في سنّ السّابعة أو الثّامنة تقريباً، انتزعتني أختي من حضن والديّ وأخذتني للعيش معها في بيت زوجها، في ذلك الوقت لم أكن أعرف السّبب الّذي جعلهم يفرّقون بيني وبين والديّ، ولكن حينما كبرت قليلاً وأدركت أنّ الفقر قادر على أن يجعل الآباء يبيعون فلذات أكبادهم مقابل ما يقيمون به أودهم، التمست العذر لوالديّ، بل وقدّرت صنيعهما لأنّهما على الأقلّ لم يبيعاني، بل سلّماني لأختي الّتي سأعيش في بيتها في رغد ولو لفترة وجيزة.

كانت أختي قد تزوّجت منذ فترة قصيرة من رجل أرمل يعمل في إحدى الدّول الأوروبيّة. وكان له ولد بلغ مرحلة الشّباب يعيش معنا بعد أن أنهى دراسته في كتّاب للقرآن الكريم، وكان اسمه الحسين.

كانت العلاقة بين الحسين وأختي مريبة، لم أكن أدري هل يحبّها أم يكرهها. ولم أكن قادراً على أن أعرف نوع المشاعر الّتي تكنّها له، كان فارق العمر بينهما ضئيلاً ولا يسمح لأختي باعتبار الحسين ابنها، كما لا يسمح للحسين باعتبار أختي أمّه، لن أظلم أختي لأنّ ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم يبرّئها ويدين الحسين.

في ذلك اليوم، كنت ألهو خارج المنزل في استمتاع عندما رأيت الحسين يدخل البيت في عجلة من أمره وكأنّه نسي شيئاً مهمّاً، لم أكترث للأمر وواصلت اللّعب مع أصدقائي. وبعد مدّة، شعرت بالعطش فقرّرت الدّخول إلى البيت لكي أشرب القليل من الماء، عندما توغّلت داخل البيت تناهى إلى مسمعي صراخ ينبعث من غرفة نوم أختي، دنوت من باب الغرفة الّذي كان مغلقاً دون أن أجرؤ على فتحه، كان صوت أختي يدوي في أرجاء البيت كالرّعد وهي تستنجد وتستغيث. وضعت عيني قرب ثقب المفتاح، فرأيت الحسين وهو متشابك بالأيدي مع أختي في عراك شرس، كان فارق القوّة بينهما كبيراً، لذلك تعجّبت كيف تمكّنت أختي من مقاومته كلّ ذلك الوقت دون أن يبطش بها بسهولة، كان الحسين يبذل قصارى جهده من أجل جذبها ناحية السّرير، وكانت تقاوم بكلّ ما أوتيت من قوّة، مع مرور الوقت، بدأت قواها تخور وشراسته تزداد. جذبها بقوّة من ذراعها فسقطت وارتطم قفاها بحافّة السّرير الحديديّ فخمدت دون حراك، أصبت بالهلع عندما رأيت الدّماء تسيل من رأس أختي، ولكنّني لم أستطع أن أفعل شيئاً أمام ذلك الثّور الهائج الّذي كان بالدّاخل، ظهر الذّعر على ملامح الحسين، فشرع يلطم خدّيها ويتوسّل إليها أن تستفيق ولكن دون جدوى، وضع أذنه فوق صدرها يتحسّس نبض قلبها، ثمّ رفع يدها قليلا وتركها في الهواء ولكنّها سقطت على الفور دون أدنى مقاومة،

شـهق الحسـين في هلـع وتقهقـر إلى الـوراء مرتبـكاً وجلـس ينظـر في كلّ اتّجـاه حتّـى ظننـت أنّـه شـكّ في وجـود عـين غريبـة تتلصّـص عليـه، كان قلبـي يخفـق بقـوّة حتّـى خشـيت أن تكـون دقّاتـه قـد أوحـت لـه بوجـودي خلـف البـاب.

بعـد لحظـات قضاهـا الحسـين في التّفكـير، قـام وحمـل أختـي الّتـي كانـت مستسـلمة بـين ذراعيـه في اسـترخاء، فأرقدهـا عـلى السّريـر، ثـمّ نـزع عنهـا ثيابهـا وبـدأ يقـوم بمـا لا أسـتطيع أن أصفـه، تقهقـرت إلى الـوراء وأنـا أبـكي في مـرارة، وتواريـت عـن الأنظـار بعـد أن ترسّـخ ذلـك المشـهد البشـع في ذهنـي، اختفـى بعدهـا الحسـين ولم يظهـر لـه أثـر، وبكينـا نحـن عـلى فـراق أختـي حتّـى جفّـت دموعنـا.

عندمـا علـم زوجهـا بالخـبر، عـاد عـلى عجـل إلى أرض الوطـن، حاولـت إخبـاره بـكلّ مـا شـاهدت بـأمّ عينـي ولكنّـه نهـرني ووبّخنـي وهـدّدني وتوعّدني بالعقـاب الشّـديد إن أنـا عـدت لقـول مثـل ذلـك الـكلام أمـام أيّ كان، والـداي نفسـاهما غـيّرا رأييهـما بعـد جلوسـهما معـه. فبعـد أن كانـا مصرّيـن عـلى تعقّـب الجـاني إلى أن يتـمّ القبـض عليـه ويُـزجّ بـه في السّـجن، أصبحـا بدورهما يطلبـان منّـي نسـيان مـا حصـل وعـدم التّفـوّه بـه أمـام أيّ أحـد، فهمـت بعدمـا تحسّـنت أحوالنـا بعـد ذلـك وكـبرت قليـلا أنّ والـديّ باعـا سـكوتي وسـكوتهما بحفنـة مـن المـال، مـن يومهـا عرفـت أنّ لـكلّ شيء ثمنـاً في هـذه الحيـاة، السّـكوت نفسـه لـه ثمـن قـد يكـون أكـبر مـن ثمـن الـكلام.

فعـلا صـدق مـن قـال: «إذا كان الـكلام مـن فضّـة، فـإنّ السّـكوت مـن ذهـب»

دُفِنـت جثّـة أختـي في مقـبرة القريـة وكأنّهـا ماتـت بشـكل طبيعـيّ، ولكنّها خلّفـت لي مـن بعدهـا إرثـاً ثقيـلا، خلّفـت لي مهمّـة شـاقّة وهـي الانتقـام لهـا والقصـاص مـن قاتلهـا. لذلـك كرّسـت حيـاتي كلّهـا مـن أجـل ذلـك الهـدف،

وما إن شببت حتّى خرجت أبحث عن الجاني إلى أن وجدته أخيراً في هذه القرية النّائية...

قبل فجر يوم عيد الأضحى، ودّعت الشّيخ محمّاد وزوجته وابنته بعدما أخبرتهم برغبتي في الرّحيل، وسحبت خطام بغلتي واتّجهت صوب المسجد، صلّيت الصّبح مع النّاس ثمّ انزويت في ركن من أركان المسجد أرقب المصلّين وهم يغادرون واحداً إثر الآخر، وعندما خرج الجميع، خرجت بدوري وحملت صرّة من على ظهر بغلتي الرّابضة قرب المسجد، أخرجت منها سكّيناً حادّاً كان ملازماً لي منذ خروجي أوّل مرّة، ودخلت واتّجهت مباشرة صوب الفقيه الّذي كان مطمئنّاً في جلسته في المحراب، أخذت بخناقه على حين بغتة منه وأسقطته على الأرض ورحت أضرب بقفاه الأرض حتّى فقد الوعي، ذبحته بعد ذلك وقطعت رأسه ولكنّني لم أستطع أن أفعل به كما فعل بأختي بعد أن قتلها...

(٣٠)

تحوّل الإنسان إلى شيطان

دائماً ما يذرف الجميع الدّموع الغزيرة بسخاء من أجل الضّحية، ولكن لا أحد يفرّط في دمعة واحدة من أجل الجلاّد، وكأنّه قضى تسعة أشهر في بطن أمّه وهو يحمل سوطه في شوق للخروج إلى العالم لكي يسوم ضحاياه أقسى أنواع العذاب. أنا لا أدافع عن الجلاّدين، رغم أنّني قد أبدو كذلك، أنا فقط أنظر إلى الأمور من زاوية أخرى، أنظر إليها من زاوية الجلاّد الضّحيّة، أو الضّحيّة الجلاّد، لأنّني ببساطة أنتمي إلى هذه الفئة: فئة الضّحايا الجلاّدين...

قد يراني البعض شيطاناً من شياطين الإنس، وقد يراني البعض الآخر أسوأ من إبليس نفسه. ولكن مهلاً، فحتّى إبلبس، وهو كبير الشّياطين ورأس الشّر، لم يخلقه اللّه شرّيراً بطبيعته، لقد اختلفت فيه الأقوال وتعدّدت على مرّ العصور. فهناك من يعتقد أنّ اسمه قبل أن يرتكب الخطيئة كان عزازيل، وكان من سكّان الأرض، ومن أشدّ الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، وكان من حيّ يقال لهم الجنّ. وهناك من يعتقد أنّه كان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة، وهناك من يعتقد أنّه لم يكن من الملائكة طرفة عين، بل إنّه أصل الجنّ كما أنّ آدم أصل البشر، وإنّما نال بعبادته مرتبة الملائكة رغم أنّه لم يكن من جنسهم لأنّه مخلوق من

نـار وهـم مـن نـور. ولكـن مهـما كان، فالـكلّ يُجمِـع عـلى أنّـه كان عابـداً لا يعـرف الـشّرّ إلى نفسـه سـبيلاً قبـل أن يـزلّ ويفسـق عـن أمـر ربّـه.

أنـا هنـا لا ألتمـس العفـو لإبليـس، بـل فقـط أريدكـم أن تفهمـوا الفـرق بينـه وبـين آدم، وهـذا هـو لـبّ الموضـوع، الكثـيرون يتسـاءلون في حـيرة لمـاذا لم يسـامح اللّـه إبليـس عـلى خطيئتـه رغـم أنّـه لم يحـذّره قبلهـا، بينـما سـامح آدم عـلى أكلـه مـن الشّـجرة وكان قـد حـذّره قبلهـا مـن عـدم الاقـتراب منهـا؟ الجـواب بسـيط: لأنّ آدم وسـوس لـه الشّـيطان فارتكـب المعصيـة، أمّـا إبليـس فلـم يوسـوس لـه أحـد، بـل عـصى ربّـه متعمّـداً، كذلـك لأنّ آدم لم يتكـبّر فطلـب الصّفـح مـن اللّـه عـزّ وجـلّ وتـاب إليـه فتـاب عليـه، بينـما تجـبّر إبليـس ولم يطلـب الصّفـح، وزاد في شرّه وعنـاده ومعصيتـه للّـه عـزّ وجـلّ، فـلا مجـال للمقارنـة إذن بـين معصيـة الشّـيطان ومعصيـة الإنسـان، وإذا كنتـم مصرّيـن عـلى أن تعتبرونـي شـيطاناً فلكـم ذلـك. فقـط طلبـي هـو أن تعتبرونـي شـيطاناً مـن شـياطين الإنـس إلى أن تعرفـوا قصّتـي، ولكـم بعـد ذلـك أن تحكمـوا...

ترعرعـت في بيـت تزفـر جدرانـه أنفـاس الأنوثـة، أُصِبـت بتخمـة مـن جـرّاء الحنـان الّـذي كنـت أتمـرّغ فيـه صبـاح مسـاء، كانـت للأطفـال في سـنّي أمّ واحـدة، وكانـت لي ثـلاث أمّهـات؛ فقـد كانـت لي أمّ وأختـان تعاملاننـي معاملـة لا تقـلّ عـن معاملـة الأمّ لابنهـا الوحيـد، كنـت أتنقّـل بـين أحضانهـنّ في دلال، وكان إرضـائي هـو شـغلهنّ الشّـاغل وكأنّ ذلـك هـو هدفهـنّ الأسـمى في الحياة، كان مـن المفـروض أن أكـون سـعيداً، ولكنّنـي لم أكـن كذلـك، كنـت دائمـاً أشـعر أنّ موازيـن الحنـان بداخـلي مختلّـة، فائـض مـن الحنـان الأنثـويّ مقابـل نقـص حـادّ في الحنـان الذّكـوري. كنـت أشـعر أنّنـي يتيـم الأب، رغـم أنّ أبي لا يـزال عـلى قيـد الحيـاة. كنـت أراه مـرّة كلّ عـام لأنّـه يعمـل خـارج الوطـن، لم يكـن

مـن الصّعـب عـلى أبيّ كان أن يخمّـن تواريـخ ميلادنـا أنـا وأختـيّ مـادام أنّ الشّـهر الوحيـد الـّذي يضاجـع خلالـه أبي أمّـي كان معروفـاً، يكفـي أن تضيـف تسـعة أشـهر إلى الشـهر الثّامـن مـن شـهور السّـنة لتحصـل عـلى الشّـهر الـّذي ينبغـي لـك أن تحـضر لنـا فيـه هديـّة عيـد الميـلاد.

كـبرت وكـبرت بداخـلي عقـدة النّقـص، وازداد تعلّقـي بأمّـي كـما لـو أننّـي أحتمـي بهـا مـن عقـدتي، أو كـما لـو أننّـي أمنحهـا حـبّ أبي الـّذي كان متخـثرّاً بداخـلي. حاولـت أن أعتبرهـا أمّـي وأبي في الوقـت نفسـه، فمنحتهـا حبّـين، ولكننّـي انتظـرت منهـا في المقابـل حبّـين، ولكنّهـا لم تمنحنـي سـوى حـبّ واحـد: حـبّ الأمّ. وعجـزت عـن أن تعـوّضنـي عـن حـبّ الأب، ولا ألومهـا في ذلـك، بـل ألـوم أبي الـّذي تـزوّج بهـا وهاجـر ليتركهـا مرصوفـة مثـل بضاعـة في مخـزن، كنـت أحيانـاً أسـأل نفسـي مـا إذا كان أبي يصـوم أحـد عـشر شـهرا في السّـنة دون أن يغويـه الشّـيطان ويمـدّ يـده إلى شـقراء مـن شـقراوات ذلـك العـالم البعيـد.

وخلصت إلى هذه النّتيجة:

إذا كان أبي يصـوم هـذه المـدّة كلّهـا ليفطـر بعـد ذلـك في حضـن أمّـي فهـو مـن المبشّريـن بالجنّـة ولا ريـب.

لم يكـن لي أصدقـاء، ولم ألـج المدرسـة مثـل أقـراني برغبـة مـن أبي الـّذي كان يريـد أن يحقّـق بي حلـماً قديمـاً راوده دون أن يحقّقـه. كان يريـدني أن أصـير فقيهـاً متمكّنـاً، عالمـاً ضليعـاً في أمـور الدّيـن، شـيخاً لا يشـقّ لـه غبـار يأتيـه الصّغـار والكبـار مـن كلّ فـجّ عميـق يسـتفتونه ويتبرّكـون بـه.

عندمـا بلغـت العـاشرة مـن عمـري، أرسـلتني أمّـي للكتّـاب لـكي أحفـظ القـرآن الكريـم وأتفقّـه في بحـور الدّيـن، كانـت هـذه هـي المـرّة الأولى الـّتي سـأعيش فيهـا بعيـداً عـن أمّـي. كنـت محرومـاً مـن حنـان أبي فـإذا بي أجـدني مضطـرّاً للحرمـان مـن حنـان أمّـي كذلـك.

هنـاك في الكتّـاب، بعيـداً جـدّاً عـن القريـة الّتـي نشـأت فيهـا، وجـدت عالمـاً غريبـاً لم آلفـه، كنـت مثـل حمـل تـاه عـن قطيـع الخـراف ليجـد نفسـه عـلى حـين بغتـة وسـط قطيـع مـن الذّئـاب.

انتهى عهد الدّلال والحنان، وابتدأ عهد الخشونة والقسوة.

هنـاك في الكتّـاب، بعيـداً جـدّاً عـن القريـة الّتـي نشـأت فيهـا، تختلـط الفضيلـة بالرّذيلـة في تناغـم عجيـب.

هنـاك في الكتّـاب، بعيـداً جـدّاً عـن القريـة الّتـي نشـأت فيهـا، حفظـت القـرآن الكريـم، وعجـزت عـن حفـظ عجيـزتي عـن أقـراني الّذيـن يبـدو أنّهـم فـرّوا مـن قـوم لـوط ولاذوا بذلـك الكتّـاب مـن العـذاب.

هنـاك في الكتّـاب، بعيـداً جـدّاً عـن القريـة الّتـي نشـأت فيهـا، تفقّهـت في أمـور الدّيـن، تمامـاً مثلـما تفقّهـت في أمـور الشّـيطنة.

عـدت بعـد سـتّ سـنوات إلى حضـن أمّـي، ولكنّنـي عـدت وأنـا متلفّـع بثـوب شـيطان بعـد أن مُـزِّق فـوق جسـدي ثـوب الإنسـان.

بعـد أن عـدت كانـت أمّـي تعيـش وحيـدة بعـد أن تزوّجـت أختـاي ورحلـت كلّ منهـما لتعيـش مـع زوجهـا، لم يمهلهـا السّرطـان أكـثر مـن عـام فرحلـت إلى دار البقـاء وتركتنـي ليكتمـل يتمـي.

يتيم أنا...

هاجر أبي خارج الوطن وتركني يتيماً...

رحل الإنسان بداخلي وتركني يتيماً...

ماتت أمّي وتركتني يتيماً...

جـاء أبي ليـواريَ أمّـي الـثرى ويعـود مـن حيـث أتى على وجـه السّرعـة وكأنّ حسـناء شـقراء كانـت في انتظـاره هنـاك في المطـار مـن وراء البحـار.

عشت شهوراً عصيبة وحدي، لا أب، لا أمّ، لا إخوة، لا أصدقاء.

وقبل مضيّ عام على وفاة أمّي، رجع أبي من المهجر ليتزوّج فتاة تفوقني بسنتين أو ثلاث. كان أبي هذه المرّة في غاية الحيويّة والنّشاط، ولم يبد عليه أنّه كان مستعجلاً كما لو أنّه حقن تلك الحسناء الشّقراء بمخدّر يجعلها تنام شهراً أو يزيد.

سافر أبي بعد ذلك بعد أن أوصاني خيراً بزوجته الشّابّة الفاتنة الّتي طلب منّي أن أقيمها مقام أمّي.

مسكين أبي! يبدو أنّه لم يعرف قصّة تحوّل عزازيل من عابد إلى شيطان...

كنّا نعيش في المنزل نحن الثّلاثة؛ أنا، وزوجة أبي الفاتنة، وأخوها الصّغير الّذي أحضرته للعيش معنا.

كانت علاقتي بها في البداية عادية. ولكن مع مرور الأيّام، بدأت نزواتي تؤزّني أزّاً وتدفعني لمراودتها عن نفسها. ولكنّها تمنّعت واستعصمت فتحرّك الشّيطان بداخلي يزيّنها لي ويلحّ عليّ لنيلها مادامت فريسة سهلة لا تحتاج منّي إلى مجهود كبير، لم يكن من الوارد أن تستسلم لي برضاها، فقد كان واضحاً أنّها تكرهني وتتقزّز من أسناني الّتي شرعت تأخذ لوناً أصفر، لذلك لم يكن أمامي سوى أن أنالها بالقوّة.

ذات يوم عدت إلى المنزل على حين بغتة، كنت أطلب اللّه في سرّي أن تكون وحيدة، تبسّمت عندما علمت أنّ اللّه استجاب دعائي بعدما لمحت أخاها الصّغير منهمكاً في اللّعب مع أصدقائه قرب المنزل، دخلت واتّجهت مباشرة صوب غرفة نومها، أغلقت الباب وراودتها عن نفسها لعلّها تقبلني برضاها، ولكنّها رفضت وأوسعتني سبّاً وشتماً حتّى أثارت

حفيظتي فاضطررت إلى استخدام العنف، قاومتني بشراسة ما كنت أظنّ أنّها تمتلكها، وعندما سحبتها بعنف جهة السّرير، حدث ما لم يكن متوقّعاً. ارتطمت مؤخّرة رأسها بحافّة السّرير ففارقت الحياة على الفور، أصابني الهلع وارتبكت وجلست أفكّر في مخرج من الورطة الّتي وجدت نفسي فيها، وفي قمّة حيرتي جاءني الشّيطان يوسوس لي بما لم يخطر لي ببال أبداً، أصبحت أنظر إليها نظرة مغايرة؛ أصبحت أكثر إثارة وهي مستسلمة وعاجزة عن المقاومة، وقفت وحملتها بين ذراعيّ فسرت في أوصالي قشعريرة لذيذة، أرقدتها على السّرير واستمتعت بها كم لم أستمتع من قبل، وبعد أن فعلت بها كلّ ما كانت نفسي تشتهيه، رحلت بعيداً جدّاً إلى حيث لن يعرفني أحد...

عندما صرت فقيهاً في تلك القرية النّائية، أخذني الحنين إلى تلك المتعة الّتي شعرت بها وأنا أضاجع جثّة زوجة أبي، ولكن كيف السّبيل إلى متعة كتلك؟!

تزوّجت بفاطنة لعلّها تشبع غريزتي وتغنيني عن التّفكير في تلك المتعة الشّاذّة، ولكن هيهات، لم أشعر معها قطّ بمتعة كتلك، ضاجعت غيرها من نساء القرية ولكن بدون جدوى، كانت غرائزي تميل ناحية الجثث، هذه هي الحقيقة الّتي خلصت إليها، وكان لابدّ أن أكون قاتلاً حتّى أرضي هذه الغرائز...

كنت قد تعلّمت في الكتّاب الّذي درست فيه على يد فقيهي أشياء كثيرة عن التّداوي بالأعشاب، وأشياء أكثر عن التّداوي بالوهم. استغللت ذلك جيّداً، ليس فقط في النّصب على سكّان القرية، ولكن أيضاً في قتل من أشاء من الفتيات لتصبح جثثهنّ بعد ذلك في متناول يدي أستلذّ بها كما أشاء.

بعـد فجـر يـوم عيـد الأضحـى، وفي اليـوم الّـذي كان مـن المفـروض أن يكـون يـوم زفـافي، كنـت جالسـاً في المحـراب بعـد أن غـادر المصلّـون، فحـدث مـا حـدث، ذبحنـي أحدهـم وقطـع رأسي بـلا أدنى شـفقة...

لابـدّ أنّنـي ظلمـت الكثيريـن، ولابـدّ أنّ هنـاك الكثيريـن يريـدون قتـلي، ولكـن أن أُقتَـل بهـذه الطّريقـة البشـعة، وفي المسـجد، وفي صبيحـة عيـد الأضحـى، وفي يـوم زفـافي، فهـذا مـا لم يخطـر لي عـلى بـال أبـداً.

جـلاّد أنـا أو ضحيّـة؟! لا يهمّنـي رأيكـم الآن، فأنـا الآن بـين يـديّ خالقـي يفعـل بي مـا يشـاء...

(٣١)
البرنامج

كانت الضّاوية في قمّة انبهارها وهي تجلس أمام أضواء الكاميرات. لم يكن هيّناً على فتاة مثلها جاءت من وراء الجبال أن تصمد أمام تلك الأضواء المبهرة الّتي ترهب حتّى ألمع النّجوم المعتادين عليها اعتيادهم على الطّعام والشّراب، كانت تنظر إلى العشرات الّذين يتابعون البرنامج مباشرة في الأستوديو في رهبة ووجل، جفّ حلقها وشعرت بأطرافها ترتجف من شدّة الخوف والارتباك، لم تكن تعلم أنّ الأمر بهذه الصّعوبة، ربّما لو كانت تعرف لما قبلت بالمشاركة، ولكنّها قبلت وقُضِيَ الأمر.

وهاهي الآن تحمل على عاتقها مسؤولية تمثيل جميع الفتيات القاصرات اللّواتي يعانين من الزّواج المبكّر الّذي يضرب حقوقهنّ في مقتل، ويجعلهنّ عرضة لأخطار لا حصر لها.

هاهي الآن ستحكي معاناتها ومعاناة أختها مباشرة على الهواء أمام ملايين المشاهدين الّذين يتابعون البرنامج من مختلف ربوع الوطن وخارجه.

هاهي الآن ستوصل صرختها إلى كلّ المسؤولين الّذين يجلسون في كراسيهم الوثيرة وفي مكاتبهم المكيّفة لعلّها تطرق قلوبهم المتحجّرة قبل آذانهم الصّمّاء، لعلّهم يفعلون شيئاً لإنقاذ الطّفولة المغتصبة والمسلوبة.

كانـت الضّاويـة ترنـو في عتـاب إلى عـادل وحنـان اللّذيـن كانـا جالسـين قـرب بعضهـما مـع الجمهـور، كانـت نظراتهـا تلومهـما عـلى الـزّجّ بهـا في معـترك هـذا البرنامـج الّـذي كانـت في غنـى عنـه عـلى كلّ حـال. كان بإمكانهـا أن تقبـع في قريتهـا راضيـة بقدرهـا، حالهـا حـال الكثـيرات مثلهـا، وبعيـدة عـن الأضـواء الّتـي لم تألفهـا يومـاً، ولكـنّ الأوان قـد فـات، ومـا عليهـا الآن إلاّ أن تتحـلّى بالشّـجاعة وتكـون عـلى قـدر المسـؤولية الملقـاة عـلى عاتقهـا رغـم أنّهـا تحـسّ أنّهـا نسـيت كلّ الـكلام الّـذي درّبهـا عليـه عـادل وحنـان.

كان عـادل وحنـان يبتسـمان في وجههـا في حنـوّ وتشـجيع حتّـى يزيـلا عنهـا مـا ظهـر عليهـا مـن توتّـر وارتبـاك، وكانـت تبادلهـما الابتسـامة بأخـرى مرتعشـة.

لا مجال للتّراجع، بدأ العدّ العكسيّ لانطلاق البرنامج المباشر.

ثلاثة، اثنان، واحد، صفر...

ظهـر مقـدّم البرنامـج ببذلتـه الأنيقـة وهـو يتحـركّ ببـطء وبخطـوات موزونـة حتّـى توقّـف فجـأة.

قـال والأضـواء مسـلّطة عليـه وهـو يحمـل في يـده ورقـة زرقـاء مـن الحجم الكبـير تحمـل اسـم البرنامج:

- مسـاء الخـير مشـاهدينا الكـرام. مرحبـا بكـم في هـذه الحلقـة الجديـدة مـن برنامجكـم المبـاشر «قصـص مـن واقـع النّـاس» عـلى القنـاة الرّابعـة، أرحّـب بضيـوفي جميعـاً، أرحّـب بالسّـيّدة هنيّـة وابنتهـا الضّاويـة وحفيدهـا مصطفـى، ونشـكرهم عـلى تحمّـل مشـاقّ السّـفر مـن أجـل المشـاركة معنـا في هـذه الحلقـة، أشـكر أيضـاً أسـتاذة علـم الاجتـماع الدّكتـورة زبيـدة بنطالـب عـلى حضورهـا معنـا، كـما لا يفوتنـي أن أرحّـب بالجمهـور الكريـم الّـذي يحـضر

معنا داخل الأستوديو. زواج القاصرات هو موضوعنا اليوم في «قصص من واقع النّاس».

واصل مقدّم البرنامج وهو ينظر ناحية الضّاوية:

- الضّاوية، واحدة من مئات، بل آلاف الفتيات اللّواتي تمّ تزويجهنّ وهنّ لا يزلن في مرحلة الدّراسة واللّعب. أتتنا اليوم من قريتها النّائية لتشاركنا قصّتها، لذلك لا يسعنا إلاّ أن نشكرها على شجاعتها وجرأتها.

سلّطت الكاميرات أضواءها على الضّاوية الّتي شعرت بقشعريرة غريبة تسري في جسدها تزامناً مع التّصفيق الحارّ الّذي حظيت به حتّى قبل أن تنبس ببنت شفة.

تابع مقدّم البرنامج وهو يتوجّه بسؤاله للضّاوية:

- لعلّ أوّل سؤال يتبادر إلى أذهان المشاهدين هو: لماذا قبلت الضّاوية بالظّهور بوجه مكشوف في برنامج تلفزيونيّ مباشر يتابعه ملايين المشاهدين من كلّ أنحاء العالم؟

ردّت الضّاوية بلغة عربية مكسّرة وهي تتلعثم وتقاوم ارتباكها:

- لولا الأستاذ عادل والدّكتورة حنان ما كنت لأكون هنا الآن، هما اللّذان شجّعاني على المشاركة حتّى يعرف الجميع ما تعانيه الفتاة القرويّة من جرّاء الزّواج المبكّر.

عندما ذكرت الضّاوية عادل وحنان، نظرت إليهما في امتنان، وسُلّطت عليهما الأضواء فابتسما في خجل وهما ينحنيان مقدّميْن التّحيّة للجميع.

سأل مقدّم البرنامج:

- الضّاوية كم عمرك الآن؟

- أجابت في شكّ:

- أظنّ سبع عشرة سنة.

- وكم كان عمرك عندما تزوّجت؟

- خمس عشرة سنة.

تنهّد مقدّم البرنامج في أسى وسأل:

- أخبريني يا الضّاوية بصراحة، قبل أن تتزوّجي هل كنت تعرفين معنى الزّواج أم كنت تظنّينه مجرّد لعبة جديدة؟

- في قريتي بنات كثيرات تزوّجن في سنّ صغيرة وكنّ يحكين للأخريات عن الزّواج، كنّا نحسب الأمر عادياً ويحدث في كلّ مكان.

سأل مقدّم البرنامج في دهاء:

- أعيد صياغة السّؤال بعبارة أخرى: هل الفكرة الّتي كنت تحملينها عن الزّواج هي نفسها الّتي تحملينها الآن بعد أن مررت بالتّجربة؟

- لا طبعاً.

- هل أفهم من جوابك أنّك أصبحت اليوم تعرفين مساوئ زواج القاصرات؟

أجابت باستفاضة:

- قبل أن أتزوّج كنت أرى الزّواج في هذه السّنّ أمراً عادياً، كانت بعض الزّيجات تنجح وتستمرّ، وبعضها تفشل بسرعة. وكنت أتمنّى أن أكون محظوظة وينجح زواجي، ولكنّه فشل للأسف. طلّقني زوجي بكلمة واحدة ورحل دون أن أعرف وجهته، وترك لي بنتاً دون أن أملك أيّ وثيقة تثبت أنّها ابنته مثلما لا أملك أيّ وثيقة تثبت أنّه كان زوجي في يوم من الأيّام، تزوّجت بالفاتحة ودون مهر، وطُلِّقت بكلمة، وتُرِكت أجابه مصاعب الحياة وحدي دون نفقة.

- لو أنّ الزّمن عاد بك إلى الوراء، هل ستتزوّجين في هذه السّنّ مرّة أخرى؟

- لا طبعاً، كنت سأحارب من أجل أن أكمل دراستي لأصبح أستاذة مثل عادل أو دكتورة مثل حنان. وعندما سأفكّر في الزّواج، سأتزوّج بشابّ يقربني في السّنّ، وسنوثّق زواجنا حتّى لا تضيع حقوقي وحقوق أبنائي.

- إذا طلبت منك أن توجّهي رسالة إلى المسؤولين، ماذا تقولين لهم؟

- أطلب منهم أن يتدخّلوا من أجل إيجاد حلّ سريع وناجع لهذه المعضلة، لا أريد لابنتي أن تعيش نفس المأساة الّتي عشتها.

شكر مقدّم البرنامج الضّاوية وتوجّه بسؤاله إلى أستاذة علم الاجتماع:

- دكتورة بنطالب، نبدأ من حيث انتهت الضّاوية، من هو المسؤول عن تفشّي هذه الظّاهرة؟ وماذا بإمكان المسؤولين أن يفعلوا من أجل القضاء عليها؟

تحرّكت الدّكتورة في مكانها وقالت:

- في البداية أودّ أن أشكركم على هذا الموضوع فائق الأهمّية والّذي تترتّب عنه مآسي حقيقية تؤثّر سلباً على بنية المجتمع وتماسكه وتؤدّي إلى تفشّي ظواهر أخرى لا تقلّ خطورة. بالعودة إلى سؤالكم، لابدّ أن نحدّد بدقّة الموضوع الّذي نحن بصدد التطرّق إليه، هل نناقش زواج القاصرات المؤطّر قانوناً والّذي يتمّ تحت سلطة قاضي الأسرة؟ أم نوع آخر من الزّواج يتمّ خارج إطار القانون؟ والحقيقة أنّني ضدّ النّوعين معاً، ولكن يبقى النّوع الثّاني هو موضوعنا اليوم، هذا النّوع من الزّواج يعتبر أكثر خطورة من النّوع الأوّل لأنّه يتمّ فقط بالفاتحة ودون إثبات، فبين عشيّة وضحاها تجد البنت نفسها مطلّقة وفي عنقها أطفال ولا تملك أيّ وثيقة تثبت بها نسب أولادها، فتضيع بالتّالي حقوقها وحقوق أبنائها. أمّا إجابة عن سؤالكم فأقول أنّه من الصّعب تحديد المسؤول عن تفشّي هذه الظّاهرة بدقّة، فالأسباب هنا متشابكة بين ماهو اقتصادي وما هو

اجتماعـي ومـا هـو دينـي ومـا هـو سـياسي. فالفقـر والهشاشـة يعـدّان مـن أبـرز الأسـباب الاقتصاديـة للظّاهـرة. والجهـل والأمّيـة وقلّـة الوعـي هـي أسـباب اجتماعيـة مؤثّـرة. والفهـم الخاطـئ للدّيـن هـو سـبب دينـي لا يمكـن إغفالـه. كـما أنّ التّجاذبـات السّياسـية لا يجـب أن تؤثّـر على التّرسـانة القانونية الّتـي يجـب أن تأخـذ مصلحـة الفتيـات فـوق أيّ اعتبـار آخـر. أمّـا بخصـوص الشّـقّ الثّـاني مـن سـؤالكم فأقـول أنّـه بعـد أن حدّدنـا الأطـراف المسـؤولة عـن تفـشّي الظّاهـرة في مجتمعنـا، نسـتطيع بسـهولة أن نحـدّد مسـؤولية كلّ طـرف عـلى حـدة، ولكـن يبقـى المسـؤول الرّئيـسي هـو الدّولـة الّتـي يجـب أن تضطلـع بدورهـا كامـلاً في محاربـة الفقـر والهشاشـة، والجهـل والأمّيـة، وتجديـد الخطـاب الدّينـي حتّـى يواكـب تطـوّرات العـصر. دون أن ننـسى دورهـا الكبـير في الوقـوف عـلى تطبيـق القانـون عـلى المخالفـين لـه، مـع الإشـارة هنـا إلى أنّ المقاربـة القانونيـة وحدهـا لا تكفـي.

تدخّل مقدّم البرنامج وسأل الدكتورة:

- هـل تعتقديـن أنّ الحمـلات الّتـي تقـوم بهـا وزارة العـدل عـبر التّوجّـه إلى الأماكـن النّائيـة مـن أجـل توثيـق عقـود الـزّواج أتـت أكلها؟

ردّت الدّكتورة:

- مـع أنّنـا لابـدّ أن نثمّـن هـذه الجهـود، إلاّ أنّهـا لا تكفـي، زد عـلى ذلـك أنّ المؤسّسـات المشرّعـة تلجـأ في كلّ مـرّة إلى تمديـد مـدّة خمـس سـنوات الّتـي نصّـت عليهـا المدوّنـة لتوثيـق الـزّواج، مـمّا يجعـل المشـكلة تتفاقـم يومـاً بعـد يـوم.

- دكتورة، هل هناك إحصائيات حول الزّواج بالفاتحة في بلادنا؟

- إذا كان مـن الصّعـب توثيـق عقـود الـزّواج بالفاتحـة، فإنّـه مـن الأصعـب تحديـد إحصائيـات دقيقـة حـول هـذا الـزّواج، ولكـن لـديّ إحصائيـات حـول

زواج القاصرات كشفه تقرير للتّنمية البشرية بإفريقيا لسنة ٢٠١٦م. حيث يفيد التّقرير أنّ نسبة زواج القاصرات ببلادنا بلغت ١٦ بالمائة، وهي ثاني أعلى نسبة على الصّعيد المغاربي بعد موريتانيا الّتي بلغت فيها هذه النّسبة ٣٤ بالمائة، مع العلم أنّ هذه النّسبة، رغم أنّها مفزعة، إلاّ أنّها غير دقيقة، فالنّسبة الحقيقية قد تكون أكبر بكثير.

شكر مقدّم البرنامج الدّكتورة على أجوبتها وولّى وجهه شطر هنيّة الّتي حكت له بالتّفصيل حكايتها مع زوجها العطّار وكيف تخلّى عنها وتركها تواجه مصيرها هي وابنتيها، ثمّ كيف تزوّجت بعده رجلاً في عمر جدّها، كما حكت قصّة ابنتها السّعدية الّتي أثّرت في الجميع خصوصاً بعد أن انهمرت دموعها على رأس حفيدها الكسيح اليتيم.

بعد ذلك شكر مقدّم البرنامج الجميع وأعلن عن نهاية الحلقة.

عندما كانوا عائدين من العاصمة في السّيّارة، كان عادل منتشياً بهذا النّصر الّذي بدّد بعضاً من أحزانه ولو إلى حين...

وفي غمرة فرحته، لم ينس أن يدعو حنان وهنيّة والضّاوية لحفل زفافه على نعيمة بعد أسبوعين...

كان لهذه الحلقة المؤثّرة صدى كبير على مواقع التّواصل الاجتماعي، فقد تعاطف الجميع مع هنيّة وابنتها وحفيدها، وطالبوا الدّولة بالتّدخّل العاجل من أجل وضع حدّ لهذه الظّاهرة. ممّا حدا بوزارة العدل لإطلاق حملة جديدة واسعة بالقرى النّائية لتوثيق عقود الزّواج للعائلات الّتي تزوّجت بالفاتحة.

(٣٢)

العسل المحرّم

في هـذه الحيـاة الدّنيـا لا حـزن إلى الأبـد، ولا فـرح إلى الأبـد. فقـد خَلَقَنـا اللّـه في كبـد، يتناطـح في دواخلنـا الحـزن والفـرح تناطـح ثوريـن هائجـين دون أن يفتـك أحدهـما بالآخـر، يطفـو الفـرح أحيانـاً عـلى سـطح حياتنـا حتّـى نحسـب أنّ الدّنيـا إنّمـا هـي جنّـة الخلـد الّتـي وعـد اللّـه عبـاده المؤمنـين، وننغمـس في الحـزن أحيانـاً حتّـى ننسى في جحـود أنّنـا تذوّقنـا طعـم الفـرح يومـاً، ونحسـب أنّنـا مـا خُلِقنـا إلاّ لنكـون مـن المحزونـين.

وفي هـذه اللّحظـة الّتـي كنـت جالسـاً فيهـا إلى جانـب حبيبتـي نعيمـة، كان مـن المفـروض أن أكـون أسـعد إنسـان عـلى وجـه الأرض، ولكنّنـي لم أكـن كذلـك؛ كان الحـزن والفـرح يتأرجحـان بداخـلي مثـل كفّتـي ميـزان. كنـت في منتهـى الأناقـة مـن الخـارج مثـل أي عريـس في ليلـة زفافـه يجلـس قـرب عروسـه الفاتنـة، ولكنّنـي كنـت مشـوّهاً مـن داخـلي بنـدوب لا تُشـفى، ملطّخاً بـآلام لا تُنَظّـف، كنـت أتصنّـع الفـرح والسّرور في تكلّـف، فأبتسـم في وجـوه الحاضريـن في تزلّـف وأنـا أرسـم في خيـالي وجهـاً لأمّـي الّتـي باعتنـي صغـيراً دون أن تطلـب منّـي إذنـاً بذلـك، لابـدّ أنّ وجههـا لا يشـبه وجـوه كلّ النّسـاء الحـاضرات أمامـي، أمّ تبيـع رضيعهـا لابـدّ أن يكـون وجههـا مختلفـاً وقلبهـا

مختلفاً، لاشكّ أنّ وجهها من قصدير، وقلبها من حجر. ولكن رغم ذلك كنت أتمنّى أن تكون حاضرة في ليلة عرسي.

ليتها تظهر فجأة، تظهر للحظات فقط وتختفي مثل قوس قزح، تختفي بعد أن أحتضنها أمام الحضور وأصرخ بأعلى صوتي: هذه أمّي.

آه يا أمّي! لو ظهرتِ الآن للحظة فقط لسامحتك على كلّ ما اجترحت يداك في حقّي.

كان حضور أمّي بالتّبنّي باهتاً، وكان الحزن ينزّ من وجهها كما ينزّ العرق من جبين فلاّح في هجير يوم قائظ، بدا لي أنّها لم تحضر إلاّ مكرهة، وأراحني قليلا أنّ الجميع سيعزون حزنها الواضح على محيّاها لابنها المسجون.

كانت نعيمة تجلس إلى جانبي في أوج زينتها وفي قمّة سعادتها، كان واضحاً أنّها حقّقت نصف أحلامها بزواجها من الشّخص الّذي أحبّت، في انتظار أن تحقّق النّصف الآخر بظهور أخيها المختطف. يبدو أنّ اتّصالها ببرنامج مختفون قد جدّد في نفسها الأمل وجعلها تفلح في إبعاد الحزن عنها هذه اللّيلة حتّى لا يكدّر عليها صفو فرحتها، أمّا أمّها فقد كانت تجاهد حزنها دون أن تنجح في محو آثاره من على وجهها، لاشكّ أنّها كانت تتمنّى أن يكون ابنها حاضراً ليشاركهم فرحتهم في هذه اللّيلة، ولكن ليس كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه.

لا أدري لماذا يكون وقع غياب الأحباب علينا أقسى في لحظات أفراحنا.

حنان، تلك الفتاة الرّائعة، ذلك الملاك الطّاهر، كانت تجلس وهي تُظهر فرحاً كبيراً وتُضمر حزناً أكبر، أحبّتني في صمت، وهاهي الآن تتألّم في صمت أيضاً. تتألّم دون أن تسمح لألمها أن يؤلمني.

حنـان، إنّهـا مـن بنـي البـشر، تـأكل الطّعـام وتمـشي في الأسـواق، ولكـنّ قلبهـا قلـب مـلاك.

وأنا...لابـدّ أن أطمـر عـلى مطـمار نعيمـة وحنـان وأكظـم حـزني، ولـو لليلـة واحـد فقـط، فاللّيلـة ليلـة فـرح ولا مجـال فيهـا للحـزن.

أطمـرت حـزني في مـكان قـصيّ بداخـلي، وواصلـت ليلتـي كـما يجـدر بـأيّ عريـس سـعيد أن يقـضي ليلـة عرسـه...

انقـضى الحفـل البسـيط قبـل الفجـر بقليـل، واتّجهنـا صـوب البيـت المتواضـع الّـذي اكتريتـه ليكـون مسرحـاً لحيـاتي الجديدة مـع حبيبتـي وزوجتي نعيمـة، انفـضّ الجميـع مـن حولنـا وبقينـا لوحدنـا كـما كنّـا نحلـم دائمـا.

أغلقنـا غرفـة النّـوم، وتبادلنـا القليـل مـن الـكلام والكثـير مـن القبـل، ولم نفعـل أكـثر مـن ذلـك، فقـد اتّفقنـا مـن قبـل عـلى أن نؤجّـل دخلتنـا إلى يـوم آخـر، فقـد كنّـا عـلى وعـي أنّ ليلـة الدّخلـة هـي مـن بـين أهـمّ الأحـداث الّتـي سـتؤثّر في حياتنـا المسـتقبليّة وعـلى مسـتقبل علاقتنـا الحميميـة ككلّ، كنّا نعلـم أنّ هـذه اللّيلـة هـي بدايـة حياتنـا، ولأنّنـا كنّـا نريـد للبدايـة أن تكـون صحيحـة، فقـد خلدنـا للنّـوم ونحـن متعانقـان...

قضينـا الأيّـام الأولى الّتـي أعقبـت زواجنـا ونحـن نلعـق الحـبّ مـن بعضنـا البعـض كـما يُلعَـق العسـل. سـافرنا لقضـاء بضعـة أيّـام في مدينـة شـاطئية سـاحرة، وهنـاك حيـث الرّاحـة والهـدوء والسّـكينة، وبعيـداً عـن كلّ ضغـوط الأسرة والتّقاليـد والأعـراف الباليـة، دخلـت بزوجتـي...

عدنـا بعـد ذلـك لنواصـل حياتنـا في عشّـنا الزّوجـي، لم تـأل نعيمـة جهـداً مـن أجـل جعلي أسـعد زوج في العـالم، كانـت تبـذل أقـصى مـا تسـتطيع كي تكـون لي الزّوجـة والحبيبـة والأمّ والأخـت، ونجحـت في ذلـك أو كادت عـلى الأقـلّ، إلى أن حلّـت تلـك اللّيلـة...

كنّا قد فرغنا للتّوّ من احتساء شراب الحبّ اللّذيذ، شربنا منه حتّى الثّمالة. واستلقينا على السّرير شبه مخدّرين يعبث كلّ منّا بجسد الآخر في نشوة تحت ظلّ ظلام دامس يخيّم على الغرفة، رنّ هاتف نعيمة، فحملته بيد واهنة وتطلّعت إلى رقم المتّصل بعينين نصف مغمضتين، سألتها عن هويّة المتّصل فأخبرتني أنّ الرّقم لا يوجد ضمن قائمة الأرقام المحفوظة في هاتفها. طلبت منها أن تجيب فاستجابت وأجرت المكالمة الّتي قلبت حياتنا عاليَها سافلها، كلّمها صحافيّ من طاقم برنامج مختفون يخبرها أنّ هناك امرأة اتّصلت بهم وتصرّ على مقابلتها بشكل غير رسمي خارج إطار البرنامج لكي تسرّ لها بمعلومات مهمّة عن أخيها المختفي، قضينا أطول ليلة في حياتنا، بذلت خلالها جهداً كبيراً حتّى أمنع نعيمة من التّوجّه صوب تلك المرأة المجهولة، كان إقناعها بالانتظار حتّى يبزغ الفجر مهمّة شبه مستحيلة، بتنا نلوك جميع الاحتمالات ونضع كلّ السيناريوهات المحتملة. أقنعتها بعد لأي بعدم إخبار والدتها حتّى نقف على عين الحقيقة، فالمرأة المحزونة الّتي تقف بقدمين مرتعدتين على شفا حفرة من الهلاك، ليست في حاجة لصدمة أخرى سترديها لا محالة.

وما كاد الصّبح ينبلج حتّى كنّا في بيت تلك المرأة العجوز الرّاقدة على فراش الموت، أخبرتنا بصوت مرتجف أنّها هي الممرّضة الّتي اختطفت أخا نعيمة عندما كان رضيعاً وباعته لامرأة تسمّى خديجة يعمل زوجها موظّفاً بسيطاً كعون مكتب في بلدية المدينة.

عندما سمعنا ذلك الكلام مادت الأرض تحت أقدامنا، تفرّس كلّ منّا في وجه الآخر في بلادة وكأنّنا نتأكّد أنّنا لسنا في كابوس فظيع.

قلت في نفسي: لابدّ أنّ سكرات الموت قد دفعت هذه العجوز الخرقاء للتّخريف، لابدّ أنّها رأت بأم عينها مقعدها من النّار فشرعت تهلوس وتهذي.

مستحيل أن أكون أنا هو أخو نعيمة، صحيح أنّني أجهل والديّ. وصحيح أنّ أمّي بالتّبنّي اسمها خديجة. وصحيح أيضاً أنّ زوجها يعمل عون مكتب في البلديّة. ولكنّني لست أخاً لنعيمة، فأنا لم أُختطف من المستشفى كما تقول هذه الشّمطاء، بل باعتني أمّي. هذا ما أخبرتني به أمّي بالتّبنّي خديجة.

هل يمكن أن تكون أمّي بالتّبنّي قد روت لي حكاية من فلذات أفكارها؟!

يا لغبائي الشّديد! وهل كنت أنتظر منها أن تخبرني بالحقيقة؟! هل كانت لتخبرني أنّها حرّضت هذه الممرّضة الجشعة على سرقتي من حضن أمّي مقابل المال؟!

كان رأسي يعجّ بالأفكار والأسئلة مثل شلاّل يضطرب ويمور، وكانت نعيمة واقفة أمامي ذاهلة كما لو أنها تقف على أرض المحشر.

خرجنا من عند العجوز بغير الهيئة الّتي دخلنا بها. خرجنا بعد أن سمّمت مزاجنا وجعلتنا نبدو مثل شيخين على مشارف الهلاك.

ولكنّنا لم نكن لنصدّق كلام العجوز حتّى نقطع كلّ حبال الشّك بمقارض اليقين رغم أنّنا نعلم أنّ حبال الشّك هذه أوهن من خيوط العنكبوت.

توجّهنا صوب منزل أمّي بالتّبنّي خديجة، فخررت ساجداً تحت قدميها أتوسّل إليها أن تخبرني بالحقيقة، فأعادت على مسامعي نفس حكاية العجوز.

لابـدّ أنّ المرأتـين متواطئتـان ضـدّي، بـل العـالم كلّـه، بإنسـه وجنّـه، متآمـر ضـدّي، الجميـع يريدوننـي أن أكـون أخـاً لزوجتـي! زوجـاً لأختـي!

أنـا الآن بعـد اعـتراف العجـوز وأمّـي بالتّبنّـي زوج لأختـي بنسـبة مئتـين في المئـة، ولكنّني لازلـت في حاجـة إلى تأكيـد، أريـد دليـلاً علميّـاً ينفـي علاقـة الأخـوّة بينـي وبـين نعيمـة ويفنّـد خزعبـلات المرأتـين الحاقدتـين.

لم يتبقّ لي شيء أعلّق عليه آمالي الواهية سوى اختبار الحمض النّووي.

عشـت عـلى أعصـابي لأكـثر مـن أسـبوعين وأنـا أنتظـر نتائـج الاختبـار بصـبر نافـد، كـدت أجـنّ خـلال هـذه المـدّة الّتـي اعتزلـت فيهـا نعيمـة، بـل والعـالم أجمـع. كانـت في بيـت أهلهـا وكنـت محبوسـاً في بيتـي إلى أن تظهـر نتائـج الإفـراج...

كنـت أحيانـاً أضحـك كالمعتـوه، لا أعـرف إن كنـت سـأحزن لفقـد زوجتـي أو سـأفرح للعثـور عـلى أهـلي، أرهقنـي التّفكـير في هـذا الوضـع الشّـاذّ الّـذي لا يحـدث إلاّ مـرّة واحـدة كلّ مليـون سـنة ولواحـد في المليـون مـن النّـاس عـلى أكـثر تقديـر.

وظهرت النّتائج أخيراً...

وانقشعت الشّكوك...

وتآمر DNA مع الجميع ضدّي...

أنا رسميّاً زوج أختي...

أنا باسم القانون والعلم أخو زوجتي...

تحجّـرت أحاسـيسي ورحـت أسـتفتي الشّـيخ تلـو الآخـر في النّازلـة، أفتـوني جميعهـم بـضرورة مفارقـة زوجتـي فـوراً ومـن غـير حاجـة إلى طـلاق، طلبـوا منّـي أيضـاً أن أطلـب منهـا إجـراء فحـص لكشـف الحمـل.

يا إلهي...! هذا ما كان ينقصني، أن تكون أختي حاملاً منّي...

لحسن الحظّ لم تكن نعيمة حاملاً...

ربّاه! كيف أستطيع أن أنظر في وجه أختي الّتي كانت زوجتي...

كنـت عـلى وشـك إنهـاء روايتـي، ولكنّنـي أصبحـت مضطـرّاً لإضافـة فصول أخـرى لهـا، فيبـدو أن روايتـي لا تنتهـي...

(٣٣)
التّوبة

التّوبـة تجـبّ مـا قبلهـا إذا أتـت في وقتهـا المناسـب. أمّـا إذا جـاءت متأخّرة فإنّهـا قـد تكـون غـير ذات جـدوى، ولكنّهـا عـلى كلّ حـال أفضـل من الاسـتمرار في السّـير عـلى طريـق الضّـلال.

وأنـا عندمـا قـرّرت التّوبـة، كان النّـدم قـد اقتـات عـلى روحـي بعدمـا اقتاتـت سـنوات العمـر الطّويلـة عـلى جسـدي الّـذي ذوى فهـوى عـلى فـراش المـوت.

قضيـت ليـالٍ لا تضارعهـا إلاّ ليـالي المعذَّبـين في الجحيـم، واللّيـل عـدوّ المـرضى والمحزونـين والنّادمـين.

عشـت تعيسـة كـما يليـق بفتـاة صغـيرة اسـتعاضت عـن حضـن والدتهـا، الّتـي غيّبهـا المـوت، بحضـن زوجـة أب لا ترحـم. كنـت أنتظـر بفـارغ الصّـبر ذلـك اليـوم الّـذي أكـبر فيـه وأفلـت مـن يـدي هـذه المـرأة الّتـي كانـت تسـومني سـوء العـذاب، كانـت معاملتهـا السّـيّئة لي تمـدّني بحشـد مـن الحوافز كي أجتهـد في دراسـتي، ولكنّهـا في الوقـت ذاتـه كانـت تشـحن أحاسـيسي بالقسـاوة والفظاظـة.

كانـت كلّ أحلامـي أن أعيـش تحـت جناحـي زوج يحمينـي مـن زوجـة أبي، فسـاعدتني أحلامـي عـلى تحمّـل مـا لا يسـتطيع غـيري تحمّلـه.

وكبرت واشتغلت ممرّضة في مستشفى المدينة، واشتقت لذلك اليوم الّذي ألبس فيه ثياب العروس فأُزفّ لزوجي وللسّعادة في نفس الوقت، وانتظرت حتّى ملّنيَ الانتظار فأيقنت أنّني إنّما ألهث وراء السّراب، فمَن مِن الرّجال يسره أن يخطب ودّ امرأة فظّة غليظة القلب خشنة الطّباع مثلي؟ من منهم يرضى بالزّواج بامرأة تجاوزها قطار الشّباب لا تملك في جعبتها ما تغري به الرّجال من مال أو جمال؟

كنت كلّما نظرت إلى وجهي في المرآة إلاّ وتأكّدت أنّني ما خُلِقت إلاّ لأعيش عانساً، هذا قدري ولا فرار من القدر.

ولكنّني قرّرت أن أثور ضدّ القدر، فلا يمكنني أن أصبر على التّعاسة في الصّغر لكي أجدها تنتظرني على أعتاب الكبر.

فكّرت أوّل ما فكّرت في المال، فبه أستطيع أن أشتري السّعادة أينما وُجدت.

لم أمعن في التّفكير كثيراً حتّى أجد الطّريقة الّتي أحصل بها على المال، فقد كنت أعرف امرأة كانت مستعدّة لدفع ثروة مقابل الحصول على ابن يقيها تهكّم الشّامتات، ويجعل زوجها يغض الطّرف عن النّساء الأخريات.

امتدّت يدي الآثمة لتختطف رضيعاً بريئاً من حضن أمّه مقابل مبلغ مهمّ من المال دفعته لي السّيّدة خديجة بعدما دفعت زوجها لبيع نصيبه من الإرث. تركت المستشفى وغادرت إلى مدينة أخرى حيث قرّرت أن أحارب من أجل السّعادة وأنا مدجّجة بالمال الكافي لذلك، لم يطل انتظاري كثيراً هذه المرّة بعدما أسال مالي لعاب رجل قرّر الزّواج بي. كدت أطير من الفرح لأنّني حقّقت حلمي أخيراً بعد صراع مرير مع القدر، عشت مع زوجي ثلاث سنوات كانت كافية له لينهب مالي كلّه

ويعيـد عـدّاد ثـروتي إلى الصّفـر، نبـذني زوجـي وغـادر وخلّفنـي وراءه أعـاني الفقـر والقهـر.

عملـت في البيـوت لسـنوات حتّـى نخـر المرض جسـمي وشرعت الشّـيخوخة تترصّـد بي في انتظـار الانقضـاض عليّ.

لقـد وسـوس إليّ الشّـيطان، وغـرّني باللّـه الغـرور حتّـى ظننـت أنّ الصّحّـة تـدوم، وأنّ المـال يرفـع عـن صاحبـه كلّ الهمـوم.

عـدت إلى مدينتـي خاسـئة ذليلـة وكلّ حلمـي أن أجـد يـداً تحنـو عـليّ وتواريـني الـثّرى بعـد مـوتي، امتهنـت التّسـوّل واكتريـت بيتـاً حقـيراً أثـوي فيـه لعـلّي ألفـظ فيـه أنفـاسي الأخـيرة.

ذات ليلـة، وبينـما كنـت أشـاهد التّلفـاز، رأيـت في فقـرة نـداء فتـاة في عمـر الزّهـور تطلـب مـن المشـاهدين أن يسـاعدوها في العثـور عـلى أخيهـا المختطـف مـن المستشـفى وهـو رضيـع عـلى يـد ممرّضـة. صحـا ضمـيري مـن سـباته مجـدّدا وراح يؤنّبنـي ويـصرخ فيّ لـكي أصلـح بيـدي مـا أفسـدته يـدي منـذ سـنين، ولكـنّ الشّـيطان كان لضمـيري بالمرصـاد فـراح يثبّـط مـن عزائمـه بدعـوى أنّ وقـت التّوبـة قـد فـات أوانـه، ولكنّنـي اقتنعـت أخـيراً أنّ التّوبـة المتأخّـرة خـير مـن الاسـتمرار في السّـير عـلى طريـق الضّـلال، فحملـت هاتفـي واتّصلـت بالبرنامـج وأنـا أتمنّـى ألاّ تكـون توبتـي كتوبـة فرعـون.

(٣٤)

إنقاذ الملاك

الملائكة أيضاً يتعذّبون. فإذا كان الشّياطين يتعذّبون عقاباً على أعمالهم الدّنيئة، فإنّ الملائكة يتعذّبون جزاءً على نواياهم البريئة. هذا ما أحسست به عندما رأيت عادل يتعذّب.

ملاكي يتعذّب وأنا أرسف في عجز مذلّ.

وأنا أيضا أتعذّب، فأن يغلقوا كلّ سجون الدّنيا، وأن يلغوا كلّ أنواع العقاب ويحكموا عليّ بمشاهدة ملاكي يتعذّب دون أن أملك له نفعاً، فذلك هو العذاب الأليم.

كان يجدر بنا أن نفرح، فقد حقّقنا نصراً تلو الآخر: قُتِل الفقيه الّذي تبرّأت منه شياطين الإنس والجنّ. قُتِل الشّيطان الّذي كان يشوّه هذه القرية الجبليّة الجميلة كما تشوّه بقعة برص وجه شابّة حسناء، فاتّشحت القرية بوشاح بهيّ من الحسن والسّكينة والوقار، سلّطنا الضّوء على معضلة زواج القاصرات حتّى تعاطف مع قضيتهم الجميع، ممّا أرغم الوزارة على القيام بحملات واسعة بالقرى النّائية لتوثيق عقود الزّواج للمتزوّجين بالفاتحة. حقّقت حلماً شخصياً طالما راودني بعد أن

صار المرضى يتقاطرون على المركز الصّحّيّ طلباً لعلاجاتي، ملاكي أيضا حقّق فتحاً مبيناً بكتابة روايته الّتي ستسلّط المزيد من الأضواء على ما تعانيه القرى النّائية من فقر وتهميش.

ولكنّني أتعذّب...

لأنّ ملاكي يتعذّب...

أحببته في صمت. ولا أدري إن كان قد سمع صراخ صمتي يهتف بحبّه.

مصابة أنا به حتّى النّخاع...

مريضة أنا به حتّى الموت...

هو دائي وهو دوائي...

طبيبة أنا أمام العالم، مريضة أمامه، أمام حبيبي...

وملاكي يتعذّب...

وأنا أتعذّب...

الخيال أحياناً يكون أكثر واقعيّة من بعض الأحداث الّتي نعيشها، مثلما أنّ بعض البشر يكونون أحياناً أكثر شرّاً من إبليس.

وما تحمّله ملاكي يفوق الخيال...

أيّ جبل يستطيع تحمّل ما تحمّله حبيبي؟!

شابّ كان يعيش حياة هانئة هادئة مفعمة بالآمال والأحلام يجد نفسه فجأة أخاً لمجرم خطير، وقبل أن يستفيق من صدمته، يكتشف أنّ أسرته الّتي قضى معها حياته ليست هي أسرته الحقيقيّة. بل ويكتشف الأفظع، يكتشف أنّ أمّه الحقيقيّة باعته وهو رضيع غضّ لا يملك من

أمره شيئاً، وفي ظلّ كفاحه العنيف ضدّ آلامه العنيدة الّتي لم تترك له فرصاً كثيرة للفرح، تزوّج حبيبته لعلّها تكون البلسم لجراحاته الغائرة، ولم يكد يُشبِع جوعه من عسل زوجته حتّى يكتشف أنّه إنّما كان يقتات على عسل حرام لا يحلّ له، يكتشف متأخّراً أنّه تزوّج بأخته.

أيّ عذاب أليم ذلك الّذي قاساه ملاكي!

عندما نظرت إليه وهو جالس قرب زوجته ليلة زفافه، شعرت شعور من يجلس متحسّراً على أنقاض حلمه المنهار، أحسست إحساس من يختنق بدخّان حلمه المحترق.

ولكن كان لابدّ أن أفرح.

وكيف أفرح وملاكي يتزوّج غيري؟!

وكيف لا أفرح وملاكي يتزوّج ويفرح؟!

أيّ شعورين متناقضين كاناً يتناحران بداخلي!

وعندما تحرّر ملاكي من زواجه المحرّم وعاد إلى القرية، عاد مثخناً بالجراحات مثل جنديّ عاد من معركة مهزوماً، منكّس الرّأس بعد أن خانه حلفاؤه قبل أعدائه؛ كان مشوّش الفكر، مشتّت المشاعر، زائغ النّظرات.

وكنت لا أزال أحبّه في صمت...

وكان صراخ صمتي لا يزال يهتف بحبّه...

تغيّر كلّ شيء في القرية...

قُتِل الفقيه، وتهافت على الاعتراف بقتله أربعة أشخاص، سعى كلّ منهم لنيل هذا الشّرف وكأنّه وسام سيوشّح صدره بفخر طوال حياته.

ولكـن، ورغـم أنّ كلاّ منهـم يملـك مـبرّرا قويّـاً لقتلـه، ورغـم أنّ الاعـتراف سـيّد الأدلّـة، إلاّ أنّ واحـداً منهـم فقـط نجـح في تعزيـز اعترافـه بدليـل مـادّيّ يُثبـت إدانتـه.

ابراهيم قتل أباه!

النّـاس تغـيّروا أيضـاً، صـاروا أكـثر تلاحـماً بينهـم، خصوصـاً بعـد أن انقشـعت الغيـوم السّـوداء الّتـي كانـت تلبّـد سـماء العلاقـة بـين قطبـي القـوّة الجديديـن في القريـة: الحـاجّ عبـد اللّـه والشّـيخ محـمّاد.

مـلاكي أيضـاً تغـيّر، أصبـح حزينـاً، يترنّـح مثـل ملاكـم فقـد توازنـه وأصبـح عـلى شـفير السّـقوط بعـد أن أشـبعه خصمـه لكـماً.

وحـده حبّـي لمـلاكي لم يتغـيّر وبقـي صامـداً غـير متأثّـر بريـاح التّغيـير الّتـي هبّـت عـلى الجميـع.

وكان لابدّ أن أنقذ ملاكي...

أن أنقذ حبّي...

أن أنقذ حلمي...

وبذلـت أقـصى مـا أسـتطيع حتّـى أعيـد التّـوازن لمـلاكي، تقمّصـت شـخصيات عديـدة في الوقـت نفسـه. كنـت الحبيبـة المخلصـة، والصّديقـة الوفيّـة، والطّبيبـة النّفسـية الصّبـورة، كانـت مهمّتـي شـاقّة، وطريقـي وعـرة، ولكـنّ عزيمتـي لم تلـن، وإصراري لم يخفـت طرفـة عـين، فقـد كنـت أعلـم أنّ الأمـر يسـتحقّ.

ولأنّ لـكلّ مجتهـد نصيـب، فقـد بـدأت أجنـي ثمـار اجتهـادي. فبعـد أكـثر مـن سـنة، هاهـو مـلاكي يعـود بالتّدريـج كـما كان، هاهـي النّضـارة تزيّـن

وجهه البهيّ، وهاهي الابتسامة تتألّق على شفتيه النّديّتين، وهاهو المرح يبسط جناحيه على روحه الطّاهرة، وهاهي الحيويّة والنّشاط تدبّان في قلبه الطّيّب.

وهاهما عيناه تتألّقان بحبّي...

وهاهو قلبي يشدو من فرط حبّه كالطّائر الصّدّاح...

تزوّجنا أنا وملاكي بعد ثلاث سنوات، وقرّرنا الاستقرار في هذه القرية بضع سنين قبل الانتقال إلى المدينة، فالقرية لازالت تعوزها أشياء كثيرة، وهي في حاجة ماسّة إلى خدماتنا.

تصالح عادل مع أمّه بالتّبنّي، وواظب على زيارة نجيب في سجنه كلّما سنحت له الفرصة.

وطّد علاقته بأمّه مليكة وأبيه عمر وأخته نعيمة الّتي تزوّجت بصديقه سعيد.

أمّا علياء فطارت إلى مدينة تولوز الفرنسية حيث التحقت بالمدرسة الوطنية للطّيران المدنيّ وهي تلهث خلف حلم صباها في أن تصير طيّارة محترفة.

عشت مع زوجي عادل أيّاماً حلوة عزفنا خلالها كلّ ألحان الحبّ الّتي ألّفها كلّ العشّاق منذ الأزل وإلى اليوم، ولكنّ أحلى يوم لا يمكن لذاكرتي أن تنساه ما حييت، هو ذلك اليوم الّذي جاء فيه يبشّرني بورود رسالة إلكترونية على بريده الشّخصيّ تخبره بفوز روايته «الملاكان والشّيطان» بجائزة أدبية مهمّة من إحدى الدّول العربية. لن أقول أنّني كدت أطير من الفرح لأنّني ساعتها طرت فعلا وإن بدون جناحين،

شـعرت أنّ مـلاكي يسـتحقّ ذلـك وأكـثر، وشـعرت أنّ العـالم يفتـح ذراعيـه لاحتضـان روائيّ فـذّ...

لقد أنقذت ملاكي...

وأنا فخورة بذلك...

تمّت بحمد اللّه

إصدارات أخرى لدار كتوبيا للنشر والتوزيع

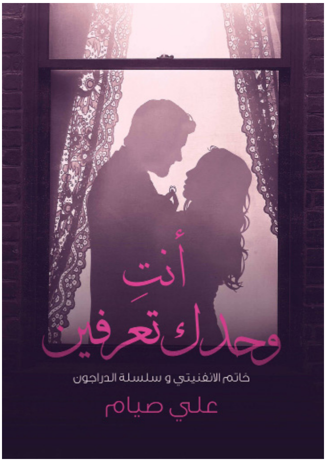

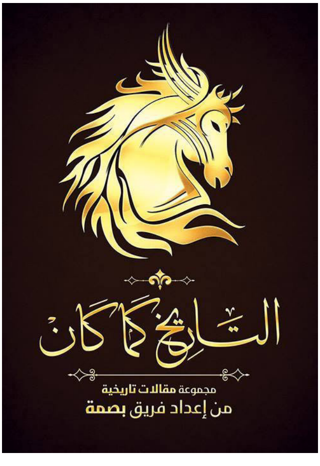

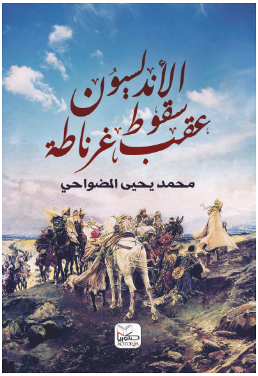
الأندلسيون عقب سقوط غرناطة
محمد يحيى المضواحي

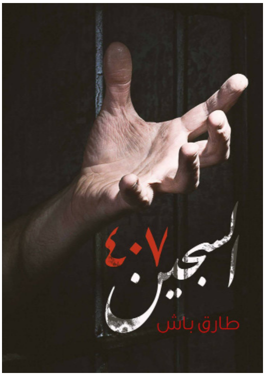
السجين ٤٠٧
طارق باش

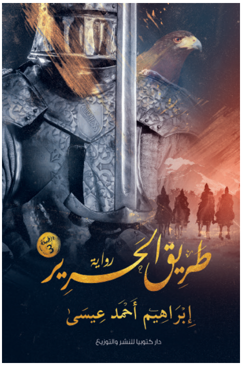
طريق الحرير
رواية
إبراهيم أحمد عيسى
دار كتوبيا للنشر والتوزيع

طريق بلون السماء
رواية
أحمد الروبي
دار كتوبيا للنشر والتوزيع

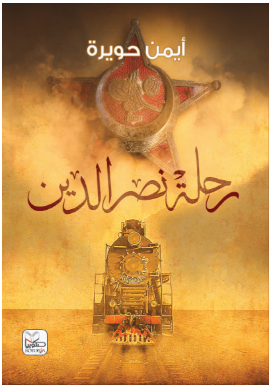
أيمن حويرة
رحلة نصر الدين

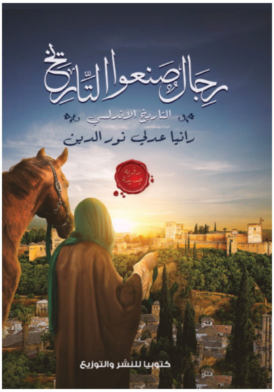
رجال صنعوا التاريخ
في التاريخ الأندلسي
رانيا عدلي نور الدين
كتوبيا للنشر والتوزيع

TWO ANGELS AND A DEVIL

مَلاكَان وشيطَان

دائماً ما يذرف الجميع الدموع الغزيرة بسخاء من أجل الضحية، ولكن لا أحد يفرط في دمعة واحدة من أجل الجلاد، وكأن الجلاد قضى تسعة أشهر في بطن أمه وهو يحمل سوطه في شوق للخروج إلى العالم لكي يسوم ضحاياه أقسى أنواع العذاب. أنا لا أدافع عن الجلادين، رغم أنني قد أبدو كذلك. أنا فقط أنظر إلى الأمور من زاوية أخرى، أنظر إليها من زاوية الجلاد الضحية، أو الضحية الجلاد، لأنني ببساطة أنتمي إلى هذه الفئة: فئة الضحايا الجلادين...

قد يراني البعض شيطاناً من شياطين الإنس، وقد يراني البعض الآخر أسوأ من إبليس نفسه. ولكن مهلاً، فحتى إبليس، وهو كبير الشياطين ورأس الشر، لم يخلقه الله شريراً بطبيعته، لقد اختلفت فيه الأقوال وتعددت على مر العصور...

COVER DESIGN BY AHMED FARAG

978-977-85438-3-4

كتوبيا
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE